

للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
المعروف بابن قيم الجوزية

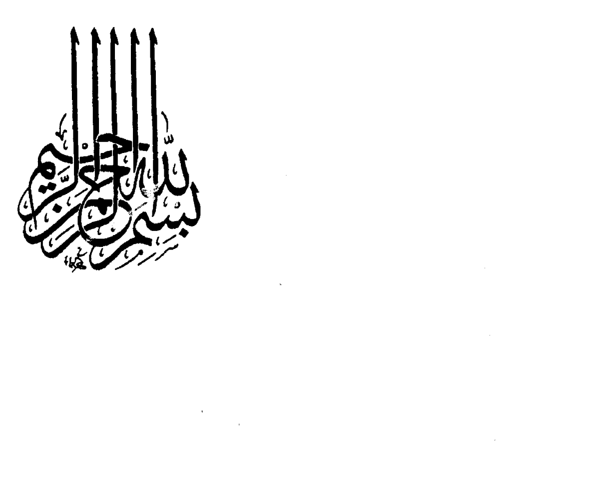
تم تخريج أحاديث الكتاب من كتب

فضيلة الشيخ / محمد ناصر الدين الألباني

أعتنى به و خرج أحاديثه

أشرف علي خلف

دار البصيرة
الاسكندرية




عدة الصابرين
وذخيرة الشاكرين

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع
٢٠٠٧/٧٢٨١

دار البصيرة
جمهورية مصر العربية - الإسكندرية
٢٤ ش كانوب - كامب شيزار - ت: ٥٩٠١٥٨٠
٤٩ ش القنطرة - محطة مصر - ت: ٣٩١٢٠٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق:

الحمد لله الحليم الصبور، الكريم الشكور، الرءوف الغفور. وصلاة وسلامًا دائمين على حبيبه وخليله، وصفيِّه من الخلق ورسوله محمد ﷺ وعلى آله وصحبه إلى يوم النشور.

وبعــــد

فإن الله ﷻ جعل الحياة الدنيا دار ابتلاء ومحن، ومحل امتحان وفتن، واقتضت حكمته سبحانه أن تتلوَّن حياة المرء بين السَّرَّاء تارة والضَّراء تارة أخرى، لينظر في أحوال الناس عند السراء هل يصبرون، ولاختبار مولاهم يصمدون، أم يكون السخط على ربِّهم ملجأهم والتبرم والتأفف ديدنهم، وألقى سبحانه بين أيدي غيرهم من النِّعم والعطايا ينظر هل تلين قلوبهم إلى شكر المنعم الوهاب، وتخضع أرواحهم وأبدانهم فيطلبون إلى رضاه كل الطرق والأسباب، فيقوم كل منهم شاكرًا نعمة ربِّه عابدًا أوَّاب، أم يسدون بجحودهم لنعمة ربِّهم كل باب، ويرون أنهم بما في أيديهم من النِّعمة أرباب، ويكون كل منهم فرعون قومه عندما أراد أن يبلغ الأسباب، فبالسعادة المبتلى الصابر عند الضراء والشاكر عند السراء، فقد وفَّقه الله لمراده وجعله من خيرة عباده، فلم تعصف به عواصف المحن، ولكنه اعتصم بربِّه واستغفر لذنبه، ورضي بقضاء مولاه وقدره ، فكان الصبر جواده الذي عبَرَ به مفاوزَ الفتنِ، وسَبَحَ به فوق الآلام والأسقام، وكان الصبر عماد قلبه الذي صمد به أمام ظلم الأنامِ، وتقلبات الأيام، وفي الصباح يحمد القوم السُّرى، فبلَّغه الله مأمنه، وجعل الجنة دار مقامه ومكمنه، وأمَّا الشاكر فإن النعم والعطايا فلم تأخذ أنوارها بعينه، ولم تطفئ بصيرته، فعلم أن الله يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فجعلها بين يديه وسيلة إلى الجنة وسبيلاً، ومطية إلى بلوغ مرتجاه ودليلاً، فاستعهدها لخدمة الحق ولم يكن للدنيا عبدًا ذليلاً، فنظر الشاكر في مراد الله من هذا الإنعام، فوضعه حيث أراد الله، فالتمسه من حِلِّه وأنفقه في حِلِّهِ، فلقي الله وعليه منه رضوان.

ولذلك جعل الله ﷻ الدين نصفين: صبرٌ وشكرٌ، وجعل رحى الحياة الدنيا تدور بين هذين الشطرين ليختبر معادن الرجال فيميز الله بين الطيب والخبيث، والرفيع والخسيس، وجعل لنا في خير الناس - وهم الأنبياء - عبرة، وضرب لنا من قصصهم منهاجًا ومثلاً، فكان خير الناس أكثرهم بلاء - وهم أنبياؤه - ثم الأمثل فالأمثل، وأعلمنا في كتابه وعلى ألسنة رسله أن لكل شيء جزاء معلومًا إلا الصبر فإن الله يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب، وكفى بذلك فضلاً ونعمة، ومن خير الكتب التي ألفت في باب الصبر والشكر كتاب شيخ الاسلام العلامة ابن قيم الجوزية «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» فكان فريدًا في بابه، جامعًا عناصره ولبابه، فقد بيَّن فيه - رحمه الله - ما للصبر من فضائل، وما للصابرين من جزاء ومناقب، وبيَّن - أيضًا - الجانب الآخر من الإيمان وهو الشكر وجزاء الشاكرين، وأيهما أفضل، الفقير الصابر أم الغنيُّ الشاكر، وضرب لكل فريق أدلته، وعالج فيه أمراض القلوب من الشُّحِّ والحِرص والتكالب على الدنيا، وكذلك القنوط والتأفف من البلاء والسخط، وبيَّن ما للرضا عن الله من فضل عظيم وقدر جليل.

عملي في الكتاب:

(١) تخريج الأحاديث والآثار وعزوها لمصادرها.

(٢) تبيين درجة كل حديث - ما استطعت - مع بيان كلام أهل العلم بهذا الشأن على صحة الحديث وضعفه.

(٣) تفسير بعض اللغويات التي تحتاج إلى إيضاح.

(٤) ترجمة لبعض أهل العلم من السلف الصالح ليتعرف عليهم القارئ ويعلم لهم قدرهم.

نسأل الله السميع العليم أن يجعله في ميزان حسناتنا وأن ينتفع به قارئه، ومن قام على كتابته ونشره، إنه نعم المولى ونعم النصير.

كتبه: أشرف علي خلف

الإسكندرية في السبت { ١٦ من رجب ١٤٢٤هـ
١٣ من سبتمبر ٢٠٠٣م }

نســـــــبه (*): هـو العالم العلاَّمة، والحبر الفهَّامة، الإمام محمد بن أبى بكر بن أيوب بـن سـعد بـن جرير الزرعي الدمشقي، لُقِّبَ بشمس الدين، وكنِّى بأبي عبد الله وعرف بابن القيم الجوزية.

وزرعي: نسبة إلى زرع، وهي التي تعرف الآن بأزرع قرية قريبة من حران.

ودمشـقي: نسـبة إلى دمشـق حيـث تعلم وعلَّم، وأفتى بمدارس الحنابلة مثل الصدرية، والجوزيـة حيث كان والده ناظرًا لها ولذا لقب بقيم الجوزية وممن أسهم في الحياة العلمية من أسـرته ولـده: جمـال الديـن فكان من كبار فقهاء مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وولده برهان الديـن إبراهـيم وكـان - أيضًا - فقيهًا في المذهب الحنبلي، وأخبره زين الدين أبو الفرج وهو مـن شـيوخ ابـن رجـب الحنـبلي وصدق الله إذ يقـــول:﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران، ٣٤)

مولـــــــده: ولـد ابـن القيم في اليوم السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة من الهجرة على ما تذهب إليه معظم الروايات التاريخية بالنسبة لتحديد زمان مولده.

وقـد ولـد في فـترة مـن أعظـم الفـترات في الجهـاد ضـد الكفـار والمنافقين مـن المغول والصليبيين، وقد ترك ذلك أثرًا في تفكيره وفي اجتهاده الفقهي والتفسيري.

شـــــــيوخه: مـع أن ابـن القيـم تعلم من شيخه الصفي الهندي أصول الفقه، ومن شيخه كمال الدين الزملكاني الفقه وأحكامه، وسمع كثيرًا من العلوم من شيخه ابن الشيراز، وقـرأ عـلى شيخه مجد الدين إسماعيل الحراني مختصر أبى القاسم، وعلى شيخه ابن قدامة قرأ «المقـنع»، وبجانب هؤلاء آخرون منهم سليمان بن حمزة المقدسي والبهاء بن عساكر، إلا أننا نراه قد اتخذ شيخه الكبير ابن تيمية أبًا روحيًا له، فلازم مجلسه، وشاركه الحياة بحلوها ومرها حـتى رحـل الإمـام إلى جـوار ربِّـه، فتسلَّم راية الكفاح تلميذه ابن القيم الذى تصدَّى لتلك

الدعوات الهدَّامة التي بددت طاقات المسلمين في الجولات الأولى ضد التَّتار والصليبيين.

وأدى دورًا عظيمًا في الدفاع عن دعوة شيخه، مبيِّنًا لتاريخه، مؤرخًا لسيرته وجهاده، وروحانياته، وأخلاقياته، وتواضعه، وخشوعه لخالقه.

علمـــــــــه: يعد ابن القيم موسوعة ثقافية، لا يشك في ذلك مَنْ قرأ ما صنَّفه من كتب، وما أُعدَّ من رسائل، فهو دائرة معارف متحركة، فقد تكلم وكتب وناقش في العلوم التي عرفها عصره الذي عاش فيه حيث وفد طلاب العلم والمعرفة إلى دمشق.

بجانب ذلك فهناك موهبته التي منحها الله له حيث قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(البقرة: ٢٦٩).

فهو عالم في التفسير، وفي علوم القرآن، وفي الحديث ومصطلحاته، وفي العقائد وفي الفقه وأصوله، وفي السيرة وفي التصوف، وفي النحو والصرف والبلاغة واللغة، إلى غير ذلك من علوم ومعرفة.

دوره في تنقية التصوُّف:

عاش ابن القيم تجربة إيمانية، يمارس الرياضات الروحية حتى صار من محققي القوم ويظهر ذلك في كتابه «مدارج السالكين» ويظهر دوره الإيماني في أنه حاول غسل التصوف مما علق به من شوائب وانحرافات، ومما تصدَّى له:

(١) فكرة وحدة الوجود التي نادى بها ابن عربي، وهي تجلي الواحد في الحقيقة المحمدية وفي الإنسان الكامل.

(٢) فكرة الحلول التي نادى بها الحلاج والبسطامي، وهي فناء المريد في الله.

(٣) التفرقة بين الحقيقة والشريعة، فلا حقيقة من غير شريعة.

(٤) التعبُّد بما لم يشرع الله. فلمن جاءت الشريعة؟ ولِمَ جاءت؟

وأبرز لأدعياء الصوفية أقوال العارفين بالله من المتصوفة، مثل الجنيد، الذي سئل: ما التصوف؟ فأجاب: الصبر تحت الأمر والنهي. وبهذا حلق ابن القيم في إبراز التصوف في ثوبه المقبول.

ثناء الأمة عليه:

كان ابن القيم دائم النظر إلى عيوب نفسه، وإلى محاسن غيره، ولم يكن فيه إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، يقول ابن حجر العسقلاني: «كان ابن القيم رجلاً قوي الخلق، سليم الضمير، وكان ذا عبادة وتهجد كثير التلاوة، وكان إذا صلّى الصبح جلس مكانه يذكر الله تعالى حتى يتعالى النهار، ويقول: هذه غدوتي لو لم أقعدها لسقطت قواي. وكان يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

ويقول فيه تلميذه ابن كثير: «وكنت من أصحب الناس له، وأحبهم إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا من هو أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله»[1].

ويقول ابن العماد: «تفنَّن ابن القيم في علوم الإسلام، فكان عالمًا بالتفسير وبالحديث ومعانيه وفقهه، وبأصول الدين وفقهه، كما كان عالمًا باللغة العربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام[2] وغير ذلك، كما كان عالمًا بالسلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، وحصل له بسبب ذلك جانب من الأذواق والمواجيد الصحيحة، كما تسلّط بسبب هذه المعرفة على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وشرح عباراتهم وأذواقهم، وكفى بمثل هؤلاء الأئمة شهداء عليه.

مؤلفاتـــــه:

يقول ابن رجب: «ما تحت أديم السماء أوسع منه علمًا، درس بالصدرية وأَمَّ بالجوزية مدة طويلة، وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة». ويكفي من هذه الكثرة أن نذكر بعض مؤلفاته، ومنها:

(١) انظر: البداية والنهاية، ١٤/٢٣٥.

(٢) علم الكلام هو علم التوحيد.

(١) «أعلام الموقعين عن رب العالمين» طبع في مصر وفي باريس وفي الهند، وله نسخة خطية بمصر.

(٢) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» طبع في القاهرة.

(٣) «تحفة المودود بأحكام المولود» طبع في القاهرة.

(٤) «الروح» طبع في القاهرة.

(٥) «مدارج السالكين» طبع في القاهرة وله نسخة خطية بدار الكتب بمصر.

(٦) «الوابل الصيِّب من الكلم الطيب» طبع في دلهي ثم في مجموعة الحديث النجدية.

(٧) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» طبع بالقاهرة .

(٨) «زاد المعاد في هدي خير العباد»، طبع في مصر وفي الهند وفي بيروت، وله نسخة خطية بمصر.

(٩) «التبيان في أقسام القرآن» طبع بمكة وبمصر بالمطبعة التجارية.

(١٠) «الحديث ومصطلحه» له نسخة بألمانيا الشرقية.

وغير ذلك كثير مما حوى العلم الغزير من مؤلفات مباركة، جزى الله إمامنا خير الجزاء على هذا العطاء.

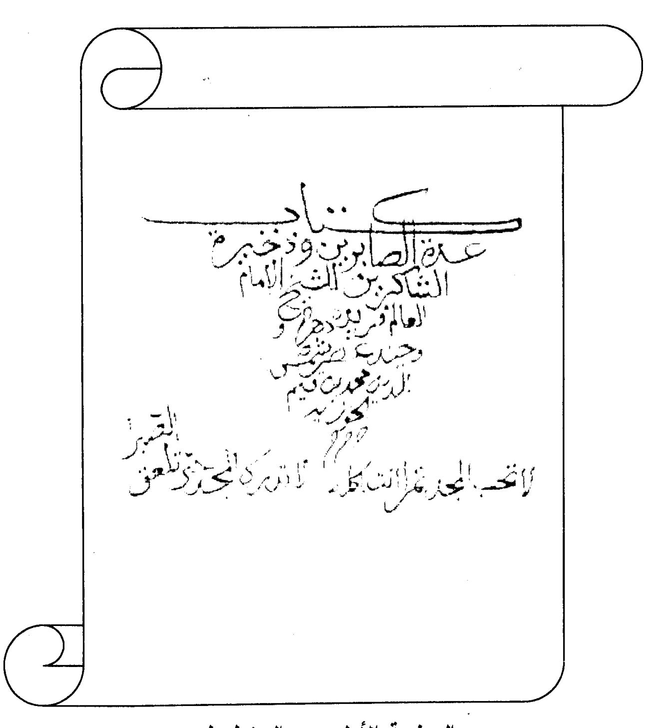
وفـــــاته:

كان ابن القيم يعد نفسه للدار الآخرة، والهجرة إلى الله، ولهذا طالما سبح بنا في بحار معرفة الله وحبه، وقاد الأرواح إلى بلاد الأفراح عند غياب دولة الأشباح ، وغايته أن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل: ٣٢)

توفي - رحمه الله - في الثالث عشر من شهر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة من الهجرة، وشيَّعه خلقٌ كثير حتى كادت شوارع دمشق أن تضيق بالمشيِّعين، رحم الله ابن

القيم، ورضي عنه، فقد كان من أهل العلم الذين يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون على الأذى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى، جزاه الله عنَّا وعن الإسلام خير الجزاء، ونفعنا بعلمه إنه سميع الدعاء، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ما بقيت الأرض والسماء.





الصفحة الأولى من المخطوط

بحمده والالسنة في ذكره والثناء عليه باوصاف مدحته فاهل
شكره اهل زيادته واهل ذكره اهل مجالسته واهل طاعته اهل
كرامته واهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ان تابوا فهو حبيبهم وان
لم يتوبوا فهو طبيبهم يبتليهم بانواع المصايب ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم
من المعايب انه غفور شكور والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا
مباركا كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمدا
يملأ السموات والارض وما بينهما وملء ما شاء ربنا من شيء بعد وصلى
الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى اله وصحبه اجمعين وعلى ساير
الانبياء والمرسلين ورضي الله عن التابعين لهم باحسان الى يوم الدين
ولا حول ولا قوة الا بالله العزيز الحكيم وحسبنا الله ونعم الوكيل
علقه افقر الورى واسير ذنوبه واحوج عباد الله الى مغفرته ورحمته
ولطفه ورضاه وعفوه عبد الرحمن بن عبد العزيز العويد ضحوة
السبت من شهر ذي القعدة سنة ١٣١٣ من هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وعلى
اله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

الصفحة الأخيرة من المخطوط

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وبه نستعين

الحمد لله الصبور الشكور. العلي الكبير، السميع البصير، العليم القدير. الذي شملت قدرته كل مخلوق. وجرت مشيئته في خلقه بمصاريف الأمور، وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحاب القبور. قدَّر مقادير الخلائق وآجالهم، وكتب آثارهم وأعمالهم وقسَّم بينهم معايشهم وأموالهم، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور، القاهر القادر، فكل عسير عليه يسير، وهو المولى النصير فنعم المولى ونعم النصير ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(التغابن: ١-٣)﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(التغابن: ٤) وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله جلَّ عن الشبيه والنظير[١]. وتعالى عن الشريك والظهير[٢] وتقدس عن تعطيل الملحدين[٣] كما تنزَّه عن شبه المخلوقين، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من بريته وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده، أعرف الخلق به، وأقومهم بخشيته، وأنصحهم لأمته، وأصبرهم لحكمه، وأشكرهم لنعمه، وأقربهم إليه وسيلة، وأعلاهم عنده منزلة وأعظمهم عنده جاهًا، وأوسعهم عنده شفاعة، بعثه إلى الجنة داعيًا، وللإيمان مناديًا، وفي مرضاته ساعيًا، وبالمعروف آمرًا وعن

(١) النظير: نظير الشيء مثله، وقد قال الله عن نفسه:

(٢) الظهير: المعين ومنه قوله تعالى:

(٣) الملحد: هو من حاد عن دين الله وعدل عنه، وألحد الرجل: ظلم في الحرم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥).

المنكر ناهيًا، فبلّغ رسالات ربِّه وصدع[1] بأمره، وتحمَّل في مرضاته ما لم يتحمله بشرٌ سواه، وقام لله بالصبر والشكر حق القيام حتى بلغ رضاه، فثبت في مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من الصابرين، وترقى في درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين. فحمدًا لله وملائكته ورسله وجميع المؤمنين. ولذلك خص بلواء الحمد دون جميع العاملين، فآدم تحت لوائه ومن دونه الأنبياء والمرسلين، وجعل الحمد فاتحة كتابه الذي أنزله عليه كذلك فيما بلغنا وفي التوراة والإنجيل، وجعله آخر دعوى أهل ثوابه الذين هداهم على يديه[2]. وسمى أمته الحامدين قبل أن يخرجهم إلى الوجود، لحمدهم له على السراء والضراء، والشدة والرخاء، وجعلهم أسبق الأمم إلى دار الثواب والجزاء، فأقرب الخلق إلى لوائه أكثرهم حمدًا لله وذكرًا، كما أن أعلاهم منزلة أكثرهم صبرًا وشكرًا، فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع المؤمنين عليه كما وحد الله وعرَّف به ودعا إليه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فإن الله سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو، وصارمًا لا ينبو[3]، وجندًا لا يهزم، وحصنًا حصينًا لا يهدم ولا يثلم[4]. فهو والنصر أخوان شقيقان، فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد، ولقد ضمن الوفي الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأخبرهم أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال: ٤٦) فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها، بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

---

(١) صدَعَ بالحقِّ: تكلم به جهارًا، قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾(الحجر: ٩٤) قال الفراء: أراد: فاصدع بالأمر، أي أظهر دينك.

(٢) إشارة إلى الآية (١٠) من سورة يونس.

(٣) الصارم: السيف القاطع البتَّار. ينبو: لم يَسْتَوِ في مكانه، ويقال: نَبَا السيف عن الضريبة نبوًا، ونبوة: لم يصبها.

(٤) يُثْلَم: الثَّلْم هو الخلل في الجدار من شق أو نحوه.

لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾(السجدة: ٢٤).

وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكدًا باليمين، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾(النحل: ١٢٦) وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(آل عمران: ١٢٠) وأخبر عن نبيِّه يوسف الصدِّيق أن صبره وتقواه وصلاه إلى محل العز والتمكين فقال:

وعلَّق الفلاح بالصبر والتقوى، فعقل ذلك عنه المؤمنون، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(آل عمران: ١٤٦). ولقد بشَّر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى:﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ ۞ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة: ١٥٥-١٥٧)

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين فقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة: ٤٥) وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(المؤمنون: ١١١) وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا أولو الصبر المؤمنون فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص: ٨٠). وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتي هي أحسن تجعل المسيء كأنه وليٌّ حميم فقال: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت: ٣٤) وأن هذه الخصلة لا يلقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍّ عظيم.

وأخبر سبحانه خبرًا مؤكدًا بالقسم ﴿إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٢-٣). وقسَّم خلقه قسمين: أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة[1]، وخصَّ أهل الميمنة أهل التواصي بالصبر والمرحمة، وخصَّ بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزًا لهم بهذا الحظ الموفور، فقال في أربع آيات من كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(سبأ: ١٩). وعلَّق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر، وذلك على من يسره عليه يسير، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(هود: ١١).

وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم[2] التي تجارة أربابها لا تبور، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(الشورى: ٤)وأمر رسوله بالصبر لحكمه وأخبر أن صبره إنما هو لربّه وبذلك جميع المصائب تهون، فقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(الطور: ٤٨) وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۞ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(النحل: ١٢٧-١٢٨).

والصبر آخية[3] المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خيرٌ اطمأنَّ به، وإنْ أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة، فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنَّات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

۞ فصـــــل ۞

ولما كان الإيمان نصفين: نصف صبر ونصف شكر، كان حقيقًا على من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين، ولا يعدل عن هذين

---

(١) المشأمة: الشؤم، وجهة الشمال.

(٢) العزائم: عزائم الله فرائضه، والعزم: الصبر والجلد.

(٣) الآخية: عروة حبل تربط في وتد ويدفن طرفا الحبل في الأرض، ثم تشد بها الدابة.

الطريقين القاصدين، وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين.

فكذلك وضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة إليهما، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما، فجاء كتابًا جامعًا حاويًا نافعًا، فيه من الفوائد ما هو حقيق على أن يعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، ممتعًا لقاريه، صريحًا للناظر فيه، مسليًّا للحزين، منهضًا للمقصرين، محرضًا للمشمرين، مشتملاً على نكا حسان من تفسير القرآن، وعلى أحاديث نبوية معزوة إلى مظانها، وآثار سلفية منسوبة إلى قائلها، ومسائل فقهية حسان مقررة بالدليل، ودقائق سلوكية على سواء السبيل، لا تخفى معرفة ذلك على من فكر وأحضر ذهنه، فإن فيه ذكر أقسام الصبر، ووجوه الشكر وأنواعه، وفصل النزاع في التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر، وذكر حقيقة الدنيا، وما مثلها الله ورسوله ﷺ والسلف الصالح به، والكلام على سير هذه الأمثال ومطابقتها لحقيقة الحال، وذكر ما يذم من الدنيا ويحمد، وما يقرب منها إلى الله ويبعد، وكيف يشقى بها من يشقى، ويسعد بها من يسعد، وغير ذلك من الفوائد التي لا تكاد تظفر بها في كتاب سواه، وذلك محض منة من الله على عبده وعطية من بعض عطاياه، فهو كتاب يصلح للملوك والأمراء والأغنياء والفقراء والصوفية والفقهاء، ينهض بالقاعد إلى المسير، ويؤنس السائر في الطريق، وينبه السالك على المقصود، ومع هذا فهو جهد المقلّ وقدرة المفلس، حذر فيه من الداء وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله، وهو يرجو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيِّه لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين، فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده، فهو المحمود والمستعان، وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله. وهذه بضاعة مؤلفه المزجاة تساق إليك، وسلعة تعرض عليك، فلقارئه غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه. وبنات أفكاره تزف إليك فإن وجدت حرًّا كريمًا كان بها أسعد، وإلا فهي خود[1] تزف إلى عِنِّين[2] مقعد. وقد جعلته ستة وعشرين بابًا وخاتمة:

---

(١) الخَوْدُ: المرأة الشابة النابهة، الحَسَنَةُ الخَلْقِ، والجمع: خُوْدٌ، خَوْدَاتٌ.

(٢) العِنِّيْنُ: الرجل العاجز عن الجماع.

- البـــاب الأول: في معنى الصبر لغة واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها.
- البـــاب الثاني: في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه.
- البـــاب الثالث: في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه.
- البـــاب الرابع: في الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة.
- البـــاب الخامس: في أقسام الصبر باعتبار محله.
- الباب السادس: في أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه، ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه.
- الباب السابع: في بيان أقسامه باعتبار متعلقه.
- الباب الثامن: في انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به.
- الباب التاسع: في بيان تفاوت درجات الصبر.
- الباب العاشر: في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم.
- الباب الحادي عشر: في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام.
- الباب الثاني عشر: في الأسباب التي تعين على الصبر.
- الباب الثالث عشر: في بيان أن الإنسان لا يستغني على الصبر في حال من الأحوال.
- الباب الرابع عشر: في بيان أشق الصبر على النفوس.
- الباب الخامس عشر: في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة.
- الباب السابع عشر: في ذكر الآثار الواردة عن الصحابة في فضيلة الصبر.
- الباب الثامن عشر: في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة عن البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها.
- الباب التاسع عشر: في أن الصبر نصف الإيمان، وأن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر.
- الباب العشرون: في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر.
- الباب الحادي والعشرون: في الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين.
- الباب الثاني والعشرون: في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل، وما هو الصواب في ذلك.

• الباب الثالث والعشرون: في ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار.
• الباب الرابع والعشرون: في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار.
• الباب الخامس والعشرون: في بيان الأمور المضادة للصبر ، والمنافية له، والقادحة فيه.
• الباب السادس والعشرون: في بيان دخول الصبر في صفات الرب ﷻ وتسميته بالصبور الشكور.

سميته «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» والله المسئول أن يجعله خالصًا لوجهه، مدنيًا من رضاه، وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه، إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الأول

في معنى الصبر لغةً واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها

أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس، فالصبر النفس عن الجزع، واللسان عن التشكّي، والجوارح عن لطم الخدود وشقّ الثياب ونحوهما، ويقال: صَبَرَ يصْبِرُ صَبْرًا وصبَرَ نفسَه، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾(الكهف: ٢٨)، وقال عنترة:

فصَــبَرْتُ عارفــةً لذلك حُرَّةً ترسُو إذا نَفْسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

يقول: حبست نفسًا عارفة، وهي نفس حر يأنف، لا نفس عبد لا أنفة له وقوله: «ترسو» أي تثبت وتسكن إذا خفت نفس الجبان واضطربت، ويقال: صَبَرْت فلانًا إذا حبسته، وصبَّرته بالتشديد إذا حملته على الصبر، وفي حديث الذي أمسك رجلاً وقتله آخر «يقتل القاتل ويصبر الصابر»[(١)] أي يحبس للموت كما حبس من أمسكه للموت، وصبرت الرجل إذا قتلته صبرًا أي أمسكته للقتل، وصبرته - أيضًا - وأصبرته إذا حبسته للحلف، ومنه الحديث الصحيح: «مَنْ حلف على يمين صبر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عنه معرض»[(٢)]. ومنه الحديث الذي في القسامة: «ولا تُصبر يمينه حيث تصبر الإيمان»[(٣)] والمصبورة: اليمين المحلوف عليها، وفي الحديث «نهي عن المصبورة [(١)]. وهي

(١) رواه الدارقطني في «السنن» (٣/١٤٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/٥٠)، من حديث ابن عمر مرفوعًا؛ ورواه البيهقي أيضًا (٨/٥٠) عن إسماعيل بن أمية عن سعيد بن المسيب مرسلاً؛ ورواه عبد عن إسماعيل بن أمية مرفوعًا؛ وقال الحافظ في «تلخيص التحبير» (٤/١٥). قال الدارقطني: والإرسال فيه أكثر، وقال البيهقي إنه محفوظ، وصححه ابن القطان.

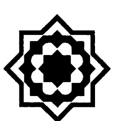
(٢) رواه البخاري (٧٤٤٥)، ومسلم (١٣٨)، وأبو داود (٣٢٤٣)، والترمذي (١٢٦٩)، وابن ماجة (٢٣٢٣)، وأحمد (١/٤٤٢)، (٥/٢١١)، من حديث ابن مسعود ﷺ. قال النووي في «شرح مسلم» (٢/٤٣٩) : يمين الصبر هي التي يحبس الحالف نفسه عليها. أ.هـ. أي التي يوقف ويحبس حتى يحلف عليها.

(٣) رواه البخاري (٣٨٤٥)، النسائي (٤٧٢٠)، من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

الشاة والدجاجة ونحوهما تصبر للموت فتربط فترمى حيث تموت.

وفعل هذا الباب صبرت أصبر بالفتح في الماضي والكسر في المستقبل، وأما صبرت أصبُر بالضم في المستقبل فهي بمعنى الكفالة، والصبير: الكفيل، كأنه حبس نفسه للغرم، ومنه قولهم: أصبرني أي جعلني كفيلاً، وقيل: أصل الكلمة من الشدة والقوة، ومنه الصبر للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته، قال الأصمعي: إذا لقى الرجل الشدة بكمالها قيل: لقيها بأصبارها، ومنه الصُّبر بضم الصاد للأرض ذات الحصب لشدتها وصلابتها، ومنه سميت الحَرَّة أم صبَّار، ومنه قولهم: وقع القوم في أمر صبُّور بتشديد الباء أي أمر شديد، ومنه صبارة الشتاء بتخفيف الباء وتشديد الراء لشدة برده. وقيل: مأخوذ من الجمع والضم، فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع، ومنه صبرة الطعام، وصبارة الحجارة.

والتحقيق أن في الصبر المعاني الثلاثة: المنع والشدة والضم، ويقال: صبر إذا أتى بالصبر، وتصبر إذا تكلفه واستدعاه، واصطبر إذا اكتسبه وتعلمه، وصابر إذا وقف خصمه في مقام الصبر، وصبَّر نفسه وغيره بالتشديد إذا حملها على الصبر، واسم الفاعل صابر وصبَّار وصبور ومصابر ومصطبر، فمصابر من صابر، ومصطبر من اصطبر، وصابر من صبر، وأمَّا صبَّار وصبور فمن أوزان المبالغة من الثلاثي، كضرَّاب وضروب، والله أعلم.



---

(١) رواه البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦)، وأبو داود (٢٨١٦)، والنسائي (٤٤٥١)، من حديث أنس ﷺ بلفظ «نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم».

الباب الثاني
في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه

قد تقدم بيان معناه لغة، وأمَّا حقيقته فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يحمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها، وسئل عنه الجنيد[1] بن محمد فقال: «تجرّعُ المرارة من غير تعبس» وقال ذو النون[2]: «هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غُصص البلية، وإظهار الغني مع حلول الفقر بساحات المعيشة» وقيل: «الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب». وقيل: «هو الغني في البلوى بلا ظهور شكوى» وقال أبو عثمان: الصبَّار هو الذي عوَّدَ نفسه الهجوم على المكاره» وقيل: عافيته وفي بلائه، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر. وقال عمرو بن عثمان المكي[3]: «الصبر هو الثبات مع الله وتلقى بلائه بالرحب والدعة» ومعنى هذا أنه يتلقى أحكام يصدر واسع لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى. وقال الخواص[4]: «الصبرُ الثبات على أحكام الكتاب والسنة» وقال رويم[5]: «الصبر ترك

---

(١) هو: الإمام القدوة المحدث أبو القاسم الجنيد بن محمد القايني، نزيل هراة وشيخ الصوفية، كان فقيهًا فاضلاً محدثًا صدوقًا، موصوفًا بالعبادة، ولد سنة ٤٦٦هـ، وتوفي سنة ٥٤٧هـ، وانظر: سير أعلام النبلاء ٢٧٢/٢٠.

(٢) هو : الثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي، الإخميمي المصري، ولد أواخر عهد المنصور، روى عن مالك، والليث، وابن لهيعة، وفضيل بن عياض، وابن عيينة، وطائفة، وقال الدارقطني: روى عن مالك أحاديث فيها نظر وكان واعظًا، وتوفي سنة ٢٤٦هـ، وانظر: سير أعلام النبلاء ٥٣٢/١١.

(٣) هو: أبو عبد الله عمر بن عثمان بن كرب بن غصص المكي، من مشايخ الصوفية الكبار، سكن بغداد حتى مات بها وله مصنفات في التصوف، وحدَّث بها، توفي بعد ٣٠٠هـ، وانظر في ترجمته: تاريخ بغداد ٢٢٣/١٢، وحلية الأولياء ٢٩١/١٠، وسير أعلام النبلاء ٥٧/١٤.

(٤) هو: سالم بن ميمون الخواص، شيخ الصوفية، ومن كبار عُبَّاد الشام، انظر في ترجمته: حلية الأولياء ١٤٠/٨، ولسان الميزان ٦٦/٣.

(٥) هو: الإمام الفقيه المقرئ العابد، أبو الحسن رويم بن أحمد، وقيل: ابن محمد بن يزيد بن رويم البغدادي، شيخ الصوفية، ومن فقهاء أهل الظاهر، أخذ الفقه على داود بن عليّ، توفي سنة ٣٠٣هـ، وانظر: سير أعلام النبلاء ٢٣٤/١٤.

الشكوى» فسَّره بلازمه، وقال غيره: «الصبرُ هو الاستعانة بالله» وقال أبو عليٍّ: «الصبر كاسمه» وقال عليٌّ بن أبى طالب ﷺ : «الصبر مطية لا تكبو» وقال أبو محمد الجريري[1]: «الصبر أن لا يفرق بين النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما».

قلت: وهذا غير مقدور ولا مأمور به، فقد ركب الله الطباع على التفريق بين الحالتين، وإنما المقدور حبس النفس عن الجزع لا استواء الحالتين عند العبد، وساحة العافية أوسع العبد من ساحة الصبر كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي»[2]. ولا يناقض هذا قوله ﷺ : «وما أعطى أحدٌ عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»[3] فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له. وقال أبو علي الدقاق[4]: حدُّ الصبر أن لا يعترض على التقدير فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر، قال الله تعالى في قصة أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ (ص : ٤٤) مع قوله ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ (الأنبياء: ٨٣) قلت: فسر اللفظة بلازمها.

وأما قوله: «على غير وجه الشكوى» فالشكوى نوعان:

أحدهما: الشكوى إلى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦)مع قوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ١٨، ٨٣)وقال أيوب: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ مع وصف الله له بالصبر، وقال سيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه:

---

(١) أبو محمد الجريري: قيل اسمه أحمد بن محمد بن حسين، وقيل: حسن بن محمد، وقيل: عبد الله بن يحيى، وقد غلب عليه كنيته ولقبه، كان من رفقاء الجنيد، وكان الجنيد يعظِّمه ويجله، فلما توفي الجنيد أجلسوه مكانه، وأخذوا عنه آداب القوم، وانظر: سير أعلام النبلاء١٤/٤٦٧، تاريخ بغداد ٤/ ٤٣٢.

(٢) رواه الطبري في: التاريخ ١/٥٥٤، وعزاه السيوطي في: الجامع الصغير للطبراني، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (١٨٢)، الضعيفة (٢٩٣٣).

(٣) رواه البخاري (١٤٦٩، ١٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣)، وأبو داود (١٦٤٤)، والترمذي (٢٠٢٤)، والنسائي (٢٥٨٧)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) هو: محمد بن ديسم أبو علي الدقَّاق، أصله من ترمذ، ثم نزل «سر من رأى»، وحدَّث بها، قال أبو حاتم: هو صدوق، وانظر: تاريخ بغداد (٥٦٩).

«اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي... إلخ»[1].

وقال موسى صلوات الله وسلامه عليه: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك».

والنوع الثاني: شكوى المبتلى بلسان الحال والمقال، فهذه لا تجامع الصبر بل تضاده وتبطله، فالفرق بين شكواه والشكوى إليه، وسنعود لهذه المسألة في باب اجتماع الشكوى والصبر وافتراقهما إن شاء الله تعالى.

وقيل: الصبر شجاعة النفس ومن ها هنا أخذ القائل قوله: «الشجاعة صبر ساعة»، وقيل: «الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب، والصبر والجزع ضدان ولهذا يُقابل أحدهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١)، والجزع: قرين العجز وشقيقه، والصبر قرين الكيس ومادته، فلو سُئِلَ الجزع: من أبوك؟ لقال: العجز، ولو سُئل الكيس: من أبوك؟ لقال: الصبر، والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار والصبر لها بمنزلة الخِطام[2] والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خِطام ولا زمام شردت في كل مذهب.

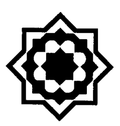
وحفظ من خطب الحجاج: «اقدعوا[3] هذه النفوس فإنها طلعة[4] إلى كل سوء، فرحم الله امرءًا جعل لنفسه خِطامًا وزمامًا فقادها بخطامها إلى طاعة الله وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه».

قلت: والنفس فيها قوتان: قوة الإقدام، وقوة الأحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يضره، ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره، فيصبر على مشقة

---

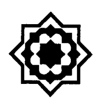
(١) سبق تخريجه.
(٢) الخِطام: هو الزمام، سمي بذلك لأنه يوضع على خَطْمٍ - أي أنف - الجمل ليُقَادَ به.
(٣) اقدعوا: امنعوا وكفُّوا.
(٤) طلعة: متطلعة، ناظرة.

الطاعة، ولا صبر له عن داعي هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك، وأفضل الناس أصبرهم على النوعين، فكثير من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد، وعلى مشقة الصيام، ولا يصبر عن نظرة محرمة، وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات إلى الصور، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار المنافقين، بل هو أضعف شيء عن هذا وأعجزه، وأكثرهم لا صبر له على واحد من الأمرين، وأقلهم أصبرهم في الموضعين، وقيل: «الصبرُ ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة» ومعنى هذا أن الطبع يتقاضى ما يحب وباعث العقل والدين يمنع منه، والحرب قائمة بينهما وهو سِجالٌ، ومعرك هذا الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات.



الباب الثالث
في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفساني الاختياري عن إجابة داعي الهوى المذموم كانت مراتبه وأسماؤه بحسب متعلقه، فإنه إن كان صبرًا عن شهوة الفرج المحرَّمة سُمِّي عفة، وضدها الفجور والزنا والعهر. وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يحمل منه سُمِّي شرف نفس وشبع نفس، وسمى ضده شرهًا ودناءة ووضاعة نفس، وإن كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمِّي كتمان سر، وضده إذاعة وإفشاء أو تهمة أو فحشاء أو سبًّا أو كذبًا أو قذفًا، وإن كان عن فضول العيش سمِّي زهدًا، وضده حرصًا، وإن كان على قدر يكفي من الدنيا سمى قناعة وضدها الحرص أيضًا، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمى حلمًا وضده تسرعًا، وإن كان عن إجابة داعي العجلة سمى وقارًا وثباتًا وضده طيشًا وخفة، وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سمِّي عفوًا وصفحًا وضده انتقامًا وعقوبة، وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سمِّي شجاعة وضده جبنًا وخورًا، وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سمِّي جودًا وضده بخلاً، وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سمِّي صومًا، وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سمِّي كيسًا، وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكفل على الناس وعدم حمل كفلهم سمى مروءة، فله عند كل فعل وترك اسم يخصه ، بحسب متعلقه، والاسم الجامع لذلك كله «الصبر» وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخها، وهكذا يسمى عدلاً إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم ، ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار، وعلى هذا جميع منازل الدين.



الباب الرابع
في الفرق بين الصبر والتصبُّر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن إن كان خلقًا له وملكة سمي صبرًا. وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمِّي تصبُّرًا، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلف كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها، وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ومن يتصبَّر يُصبِّرْه الله» [1]. وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية، كذلك سائر الأخلاق، وهي مسألة اختلف فيها الناس هل يمكن اكتساب واحد منها أو التخلق لا يصير خلقًا أبدًا. كما قال الشاعر:

يُـرادُ مـن القلـبِ نسيانُكمْ وتـأبَى الطـباعُ على الناقلِ

قال آخر:

يـا أيُّها المتحلى غير شيمته إن التخلُّق يأتي دونَه الخُلُقُ

وقال آخر:

قُـبْحُ التطبُّعِ شيمةُ المطبوعِ

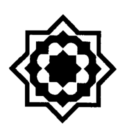
قالوا: وقد فرغ الله سبحانه من الخلقِ والخُلُق والرزق والأجل، وقالت طائفة أخرى: بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة، والوجود شاهد بذلك. قالوا: والمزاولات تعطى الملكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئًا واعتاده وتمرَّن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة. قالوا: والعوائد تنقل الطبائع. فلا يزال العبد يتكلف

(١) سبق تخريجه من حديث أبي سعيد ﷺ.

التصبُّر حتى يصير الصبر له سجية، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقًا بمنزلة الطبائع. قالوا: وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوة القبول والتعلم فنقلُ الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل. غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفًا فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث. وقد يكون قويًا ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود إلى طبعه إذا قوى الباعث واشتد وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعًا ثانيًا. فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذي انتقل عنه.

وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب فالتصبر مبدأ الاصطبار. كما أن التكسب مقدمة الاكتساب. فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطبارًا.

وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) فأمرهم بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط. وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر ﷺ أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته.



الباب الخامس

في انقسامه باعتبار محله

الصبر ضربان: ضرب بدني، وضرب نفساني، وكل منهما نوعان: اختياري واضطراري، فهذه أربعة أقسام:

الأول: البدني الاختياري كتعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختيارًا وإرادة.

الثاني: البدني الاضطراري كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات، والبرد والحر وغير ذلك.

الثالث: النفساني الاختياري، كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله شرعًا ولا عقلاً.

الرابع: النفساني الاضطراري، كصبر النفس عن محبوبها قهرًا إذا حيل بينها وبينه.

فإذا عرفت هذه الأقسام فهي مختصة بنوع الإنسان دون البهائم ومشاركة للبهائم في نوعين منها، وهما: صبر البدن والنفس الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبرًا من الإنسان، وإنما يتميز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين، وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم لا في النوع الذي يخصُّ الإنسان فيعد صابرًا وليس من الصابرين.

فإن قيل: هل يشارك الجنُّ والإنس في هذا الصبر؟ قيل: نعم، هذا من لوازم التكليف وهو مظنة الأمر والنهي، والجنُّ مكلفون بالصبر على الأوامر والصبر عن النواهي كما كلفنا نحن بذلك. فإن قيل : فهل هم مكلفون على الوجه الذي كلفنا نحن به أم على وجه آخر، قيل: ما كان من لوازم النفس كالحب والبغض والإيمان والتصديق والموالاة والمعاداة فنحن وهم مستوون فيه، وما كان من لوازم الأبدان كغسل الجنابة وغسل الأعضاء في الوضوء

والاستنجاء والختان وغسل الحيض ونحو ذلك فلا تجب مساواتهم لنا في تكلفه وإن تعلق ذلك بهم على وجه يناسب خلقتهم وحياتهم.

فإن قيل: فهل تشاركنا الملائكة في شيء من أقسام الصبر؟ قيل: الملائكة لم يبتلوا بهوى يحارب عقولهم ومعارفهم بل العبادة والطاعة لهم كالنفس لنا فلا يتصور في حقهم الصبر الذي حقيقته ثبات باعث الدين والعقل في مقابلة باعث الشهوة والهوى، وإن كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم وإقامتهم على ما خلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع.

فالإنسان منا إذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة التحق بالملائكة، وإن غلب باعث الهوى والشهوة صبره التحق بالشياطين وإن غلب باعث طبعه من الأكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهائم. قال قتادة: «خلق الله سبحانه الملائكة عقولاً بلا شهوات وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلاً وشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم، ولما خُلق الإنسان في ابتدء أمره ناقصًا لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، فصبره في هذه الحال بمنزلة صبر البهائم، وليس له قبل تمييزه قوة صبر الاختبار: فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختياري على ضعفها فيه، فإذا تعلقت به شهوة النكاح ظهرت فيه قوة الصبر، وإذا تحرك سلطان العقل وقوى استعان بجيش الصبر، ولكن هذا السلطان وجنده لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده فإن إشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره، وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها. بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا ومفاسدها، فإذا طلعت عليه شمس النبوة والرسالة وأشرق عليه نورها، رأى في ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدهما، فتلمح العواقب وليس لامة الحرب وأخذ من نصره الله، والمخذول من خذله ولا تضع الحرب أوزارها حتى ينزل في إحدى المنزلتين. ويصير إلى ما خلق له من الدارين.



الباب السادس

في بيان أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه

وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيرد جيش الهوى مفلولاً[1]. وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة، وهم الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (فصلت: ٣٠، ٣١) وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين. وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وخصَّهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية فيستسلم البائس للشيطان وحده فيقودونه حيث شاءوا وله معهم حالتان: إحداهما: أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوى المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قال القائل:

وكُنتُ امْرَأً من جُنْدِ إبليسَ فارتقَى ... بيَ الحالُ حتى صار إبليسُ من جندى

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، وجند أصحابها المكر،

---

(١) مفلولاً: مهزومًا، منكسرًا.

والخداع، والأماني الباطلة، والغرور، والتسويف بالعمل، وطول الأمل، وإيثار العاجل على الآجل. وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «**والعاجزُ مَنْ أتبَعَ نفسَهُ هواها وتمَنَّى على الله الأماني**»[1]. وأصحاب هذه الحال أنواع شتى: فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول، يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجًا وتحريفًا ليصد الناس عنها، ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط. ومنهم المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام. ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذَّرت عليَّ فلا مطمع لي فيها. ومنهم من يقول: ليس الله محتاجًا إلى صلاتي وصيامي. وأنا لا أنجو بعملي والله غفورٌ رحيم. ومنهم من يقول: ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته:

فكثِّرْ ما استطعتَ من الخطايا إذا كــانَ القُــدُومُ على كريمِ

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص إصبعه وباقي بدنه غريق؟ ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترِّين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر، يستعمله في رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب، وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمنزلة رجل قهر مسلمًا، وباعه للكفار، وسلَّمه إليهم، وجعله أسيرًا عندهم.

(فصـــــــل) وها هنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها وهو أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرَّفه ورفع به قدره، وسلَّمه في يد أبغض

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (١/١٢٤)، والحاكم (١/٥٧)، والطبراني في: الكبير (٧/٣٣٨)، وأبو نعيم في: الحلية (١/٢٦٧)، والبغوي في: شرح السنة (٢/٣٠٥)، وابن عدي في: الكامل (٢/٤٧٢)، من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس مرفوعًا به. وإسناده ضعيف، من أجل أبي بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف، والحديث ضعَّفه الألباني، رحمه الله، في : ضعيف الجامع (٤٣٠٥).

أعدائه إليه، وجعله أسيرًا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه سلَّط عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه، فكما أزلَّ سلطان الله وسلَّمه إلى عدوه أذلَّه الله وسلَّط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلَّم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه، فلما ترك مقاومته ومحاربته، واستسلم له سلَّط عليه عقوبة له، قال الله تعالى: ﴿فإذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾(النحل: ٩٨، ١٠٠).

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطانًا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيًا عنه مقررًا له: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾(ابراهيم: ٢٢)وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾(سبأ: ٢٠، ٢١).

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين: أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان. والثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة ولكن هم سلَّطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصائحه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

(فصـــــل) الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً ودولاً بين الجندين، فتارة له، وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقل، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً

صالحًا وآخر سيئًا. وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة، وهذه الأحوال الثلاث هي أحوال الناس في الصحة والمرض، فمن الناس من تقاوم قوته داءه فتقهره ويكون السلطان للقوة، ومنهم من يقهر داؤه قوته ويكون السلطان للداء، ومنهم من الحرب بين دائه وقوته نوبًا فهو متردد بين الصحة والمرض.

(فصـــــل) ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة، ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس. ومثال الأول كرجل صارع رجلاً شديدًا فلا يقهره إلا بتعب ومشقة، والثاني كمن صارع رجلاً ضعيفًا فإنه يصرعه بغير مشقة. فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان. ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان. قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «لقي رجلٌ من الإنس رجلاً من الجنِّ فصارعه فصرعه الإنسي. فقال: ما لي أراك ضئيلاً؟ فقال: إني من بينهم لضليع»[1]. فقالوا: أهو عمر بن الخطَّاب؟ فقال: من ترونه غير عمر»[2].

وقال بعض الصحابة: «إن المؤمن يُنضي[3] شيطانه كما يُنضي أحدُكُم بعيره في السفر»[4] وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف: أن شيطانًا لقي شيطانًا فقال: ما لي أراك

---

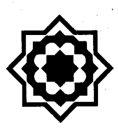
(١) الضليع: القويّ، والشديد الأضلاع.

(٢) رواه الدارمي في: السنن (٣٣٨١)، والطبراني في: الكبير (٩/١٦٦)، وقال الهيثمي في: المجمع (٩/٧١): رواه الطبراني بإسنادين، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود ولكن أدركه، ورواة الطريق الأولى فيهم المسعودي، وهو ثقة ولكنه اختلط، فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي، والله أعلم.أ.هـ.

(٣) يُنضي: يقال: أنضى الدابة، أي : أتعبها وأهزلها، و«النضو»: المهزول من الحيوان، ويقال: فلان نِضْو سفر: مجهد من السفر.

(٤) رواه أحمد (٢/٣٨٠) من طريق قتيبة بن سعيد عن ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة مرفوعًا به، وهذا إسناد ضعيف من ابن لهيعة، وموسى بن وردان قال الحافظ في التطريب (١/٥٥٤): صدوق ربما أخطأ، والحديث ضعَّفه الألباني - رحمه الله - في : ضعيف الجامع (١٧٧٢)، والضعيفة (٣٢١٦).

شـحيًا؟ فقـال: إنـي مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فـلا أشـربُ معـه، وإن دخـل بيـته ذكـر اسم الله فأبيت خارج الدار، فقال الآخر: لكني مع رجل إن أكل لم يُسمِّ الله فآكل أنا وهو جميعًا، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسـم الله فـأدخل معـه، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها، فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عزَّ عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه غرضه.



الباب السابع
في ذكر أقسامه باعتبار متعلقه

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبرٌ على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في «فتوح الغيب»: «لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهيٍ يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الربِّ تعالى، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الربِّ فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري. فالشرعي متعلق بأمره، والكوني متعلق بخلقه. وهو سبحانه له الخلق والأمر. وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب. فإن المطلوب إن كان محبوبًا له فالمطلوب فعله إما واجباً وإما مستحبًّا، ولا يتم ذلك إلا بالصبر. وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركه إما تحريمًا وإما كراهة. وذلك - أيضًا - موقوف على الصبر. فهذا حكمه الديني الشرعي. وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها. ففرضه الصبر عليها وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، وهما وجهان في مذهب أحمد أصحهما أنه مستحب، فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث مادام مكلفًا، ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف. فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر، لا تستوى إلا عليه، كما لا تستوى السنبلة إلا على ساقها.

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائمًا يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور. وهذه

الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله ﴿يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾(لقمان: ١٧). فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به. وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الأمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي. وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۞ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۞ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾(الرعد: ١٩، ٢٢):

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه. ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له، والقيام بطاعته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وحبه، وخوفه، ورجائه، والتوبة إليه، والاستكانة له، والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطية والاستغفار منها. فهذه هي الوصلة بين الربِّ والعبد. وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل وأمر أن توصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه. فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله. وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة، فإنه أمر ببرِّ الوالدين وصلة الأرحام، ذلك مما أمر به أن يوصل. وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل، ونكسوهم مما نكتسي، ولا نكلفهم فوق طاقتهم، وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا، وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر، وأن نصل ما بيننا وبين عموم

الناس بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم، ونستحي منهم كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه.

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب. ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصل. ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو آخيّة ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه، وهو الصبر فقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾(الرعد: ٢٢)، فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصًا لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهي الصلاة فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة، وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة: ٤٥) وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة: ١٥٣).

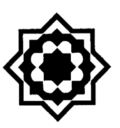
ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرًّا وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم. ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله، بل يدرأون بالحسنة السيئة، فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ وقد فسَّر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(هود: ١١٤) وقال النبيُّ ﷺ : «أَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا»[١]. والتحقيق أن الآية تعم النوعين.

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها، واشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله:

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٦) وأحمد (٥/١٥٣) والدارمي (٢٧٩١) وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧) وصحيح الترمذي (١٦١٨).

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٢٥) وقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ (يوسف: ٩٠) وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(آل عمران: ٢٠٠) فكل موضع قُرِنَ فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور.



الباب الثامن

في انقسامه باعتباره تعلق الأحكام الخمسة به

وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى: واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح، فالصبر الواجب ثلاثة أنواع: **أحدها:** الصبر عن المحرمات، الصبر على أداء الواجبات. **والثالث:** الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها. كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله.

وأما المحظور فأنواع: أحدها: الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت. وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت. قال طاوس وبعده الإمام أحمد: «من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار».

فإن قيل: فما تقولون في الصبر عن المسألة في هذه الحال؟

قيل: اختلف في حكمه هل هو حرام أو مباح؟ على قولين هما لأصحاب أحمد وظاهر نصه أن الصبر عن المسألة جائز، فإنه قيل له: إذا خاف إن لم يسأل أن يموت؟ فقال: لا يموت، يأتيه الله برزقه أو كما قال، فأحمد منع وقوع المسألة ومتى علم الله ضرورته وصدقه في ترك المسألة قيض الله له رزقًا.

وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعي: يجب عليه المسألة وإن لم يسأل كان عاصيًا لأن المسألة تتضمن نجاته من التلف.

(فصل) ومن الصبر المحظور صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبُع أو حيَّات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين فإنه مباح له بل يستحب، كما دلت عليه النصوص الكثيرة، وقد سئل النبيﷺ عن هذه

المسألة بعينها فقال: «كُنْ كخيرِ ابني آدم» [1] وفي لفظ: «كُنْ عبدَ الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل» [2]. وفي لفظ «دعه يبوء بإثمه وإثمك» [3] وفي لفظ: «فإن بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك» [4]. وقد حكى الله استسلام خير ابني آدم وأثنى عليه بذلك، وهذا بخلاف قتل الكافر فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه، لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين. وأما قتال اللصوص فهل يجب فيه الدفع أو يجوز فيه الاستسلام؟ فإن كان عن معصوم غيره وجب، وإن كان عن نفس فظاهر نصوصه أنه لا يجب الدفع، وأوجبه بعضهم، ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمته بالفاحشة.

(فصـــــل) وأما الصبر المكروه فله أمثلة: أحدها: أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه. الثاني: صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به. والثالث: صبره على المكروه. الرابع: صبره عن فعل المستحب.

(فصـــــل) وأمَّا الصبر المباح فهو الصبر عن كل فعل مُستوى الطرفين خير بين فعله وتركه والصبر عليه.

وبالجملة فالصبر على الواجب واجب وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام، والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه. والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه. والصبر عن المباح مباح والله أعلم.

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٧) والترمذي (٢١٩٤)، وأحمد (١٨٥/١)، وابن حبان (١٨٧٠) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وحسَّنه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٨٥). ورواه أبو داود (٤٢٥٩)، والترمذي (٢٢٠٤)، وابن ماجه (٣٩٦١)، وأحمد (٤٠٨/٤) من حديث أبي موسى ﷺ. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٧٩٥).

(٢) رواه أحمد (١١٠/٥، ٢٩٢)، والحاكم (٥١٧/٤)، وأبو يعلى (٧٢١٥) وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٨٣) من حديث خباب، وفي سنده رجل مجهول.

(٣) رواه أبو داود (٤٢٦١)، وابن ماجه (٣٩٥٨)، وأحمد (٤٨/٥)، والبيهقي (١٩١/٨)، والحاكم (٢٢٣/٤) من حديث أبي ذر ﷺ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٤) جزء من الحديث السابق.

الباب التاسع

في بيان تفاوت درجات الصبر

الصبر كما تقدم نوعان: اختياري واضطراري، والاختياري أكمل من الاضطراري، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتي منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف الصديق عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لَّما ألقوه في الجُبِّ وفرَّقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد، ومن الصبر الثاني إنشاء الله سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض، وكذلك صبر الخليل عليه السلام، والكليم ، وصبر نوح، وصبر المسيح، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم عليهم الصلاة والسلام كان صبرًا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله، ولهذا سَّماهم الله أولى العزم، وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ﴾(الأحقاف: ٣٥) وأولو العزم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى﴾(الشورى: ١٣) وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾(الأحزاب: ٧) كذلك قال ابن عباس وغيره من السلف، ونهاه سبحانه أن يتشبَّهَ بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولى العزم فقال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إذ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (القلم: ٤٨).

وها هنا سؤال نافع وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله : ﴿إِذْ نَادَى﴾ ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه، إذ يصير المعنى لا تكن مثله في ندائه، وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء، فأخبر أنه نجَّاه به فقال: ﴿وَذَا النُّون إذ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنبياء: ٨٧، ٨٨) وفي الترمذي وغيره عن النبي

ﷺ أنه قال: «**دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروبٌ إلا فرَّج الله عنه: لا إله إلا أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين** »[1]. فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادى به ربَّه، وإنما نُهِيَ عن التشبه به في السبب الذى أفضى به إلى هذه المناداة وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم، والكظيم والكاظم الذي قد امتلأ غيظًا وغضبًا وهمًا وحزنًا وكظم عليه فلم يخرجه.

فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل في الظرف؟ قيل: ما في صاحب الحوت من معنى الفعل.

فإن قيل: فالسؤال بعد قائم، فإنه إذا قيد المنهي بقيد أو زمن كان داخلاً في حيز النهي، فإن كان المعنى لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت كان نهيًا عن تلك الحالة.

قيل: لما كان نداؤه مسببًا عن كونه صاحب الحوت، فنهى أن يشبه به في الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء، وهي ضعف العزيمة، والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضبًا فالتقمه الحوت فنادى، بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر، واكتفى بغايتها وما انتهت إليه.

فإن قيل: فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهي عنه، أي لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلئ غيظًا وهمًّا وغمًّا، بل يكون نداؤك نداء راضٍ بما قُضِيَ عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم. قيل: هذا المعنى وإن كان صحيحًا إلا أن النهي لم يقع عن التشبه به في مجرده. وإنما نهى عن التشبه به في الحال التي حملته على ذهابه مغاضبًا حتى

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٥)، وأحمد (١/١٧٠)، والحاكم (٢/٥٨٣) وأبو يعلى (٧٧٢) والضياء في المختارة (١٠٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/٣٥٥) من حديث سعد ﷺ وقال الهيثمي في المجمع (٧/٦٨): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، وهو ثقة. أ.هـ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٧٨).

سجن في بطن الحوت، ويدل عليه قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ثم قال: ﴿وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أي في ضعف صبره لحكم ربه، فإن الحالة التي نهى عنها هي ضد الحالة التي أمر بها.

فإن قيل: فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدري الذي يقدره عليه ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه، بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته؟

قيل: منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضرِّ، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنبياء: ٨٧، ٨٨) فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثنى عليه ويمدحه به، وكذلك اثنى على ايوب بقوله: ﴿مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وعلى يعقوب بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾(يوسف: ٨٦) وعلى موسى بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(القصص: ٢٤) وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله:

الحديث. فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه، وقد ذمَّ سبحانه مَنْ لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾(المؤمنون: ٧٦) والعبد أضعف من أن يتجلد على ربِّه. والربُّ تعالى لم يرد من عبده أن يتجلّد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه؟ فقال: ربِّي يرضى ذلَّ العبد إليه.

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبرَ أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختيارًا وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى

أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فإن قيل: أي أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبرُ على المأمور أم الصبرُ عن المحظور أم الصبر على المقدور؟

قيل: الصبر المتعلق بالتكليف وهو الأمر والنهي أفضل من الصبر على مجرد القدر، فإن هذا الصبر يأتي به البرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فلابد لكل أحد من الصبر على القدر اختيارًا أو اضطرارًا.

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبرُ أتباعِ الرُّسل، وأعظمهم اتباعًا أصبرهم في ذلك، وكل صبر في محله وبموضعه أفضل: فالصبر عن الحرام في محله أفضل، وعلى الطاعة في محلها أفضل.

فإن قيل: أي الصبرين أحبُّ إلى الله؟ صبرُ مَنْ يصبر على أوامه، أم صبرُ من يصبر عن محارمه؟

قيل: هذا موضع تنازع فيه الناس. فقالت طائفة: الصبر عن المخالفات أفضل لأنه أشق وأصعب، فإن أعمال البرِّ يفعلها البرُّ والفاجر، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصدِّيقون، قالوا: ولأن الصبر عن المحرمات صبرٌ على مخالفة هوى النفس وهو أشق شيء وأفضله. وقالوا: ولأن ترك المحبوب الذي تحبه النفوس دليل على أن من ترك لأجله أحب إليه من نفسه وهواه، بخلاف فعل ما يحبه المحبوب فإنه لا يستلزم ذلك. قالوا: وأيضًا فالمروءة والفتوة كلها في هذا الصبر.

قال الإمام أحمد: «والفتُوة ترك ما تهوى لما تخشى» فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر. قالوا: وليس العجب ممن يصبر على الأوامر، فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر، وهذه محاب للنفوس الفاضلة الزكية، بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب للنفوس فيترك المحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرى والنفس موكلة بحب العاجل فصبرها عنه مخالف لطبعها.

قالوا: ولأن المناهي لها أربعة دواع تدعو إليها: نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه،

فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة، وذلك أشق شيء على النفوس وأمه. قالوا: فالمناهي من باب حمية النفوس عن مشتهياتها ولذاتها، والحمية مع قيام داعي التناول وقوته من أصعب شيء وأشقه. قالوا: ولذلك كان باب قربان النهي مسدودًا كله. وباب الأمر إنما يفعل منه المستطاع كما قال النبيُّ ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**»[1]. فدلَّ على أن باب المنهيات أضيق من باب المأمورات وأنه لم يرخص في ارتكاب شيء منه كما رخَّص في ترك بعض المأموات لعجز والعذر، قالوا: ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بخلاف ترك المأمور، فإن الله سبحانه لم يرتب عليه حدًّا، معينًا فأعظم المأمورات الصلاة، وقد اختلف العلماء: هل على تاركها حدّ أم لا؟

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) والترمذي (٢٦٧٩) والنسائي (٢٦١٨) وابن ماجه (٢) وأحمد (٢/٢٥٨، ٤٤٧)، وابن حبان (١٨)، وابن خزيمة (٢٥٠٨)، والدارقطني (٢/١٨١)، والبيهقي (٤/٣٢٦) من حديث أبي هريرة.

✪ فصـــــل ✪

فهـذا بعـض مـا احتجـت بـه الطائفة، وقالت طائفة أخرى: بل الصبر على فعل المأمور أفضـل وأجـلُّ مـن الصـبر عـلى ترك المحظور، لأن فعل المأمور أحبُّ إلى الله من ترك المحظور، والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى، وبيان ذلك من وجوه:

أحدهـا: أن فعـل المـأمور مقصـود لذاتـه فهـو مشـروع شـرع لمقاصـد. فإن معرفة الله وتوحـيده وعبوديـته وحـده والإنابة إليه والتوكل عليه، وإخلاص العمل له ومحبته والرضا به والقـيام في خدمـته هـو الغايـة التي خلق لها الخلق وثبت بها الأمر، وذلك أمر مقصود لنفسه والمنهـيات إنمـا نهـى عـنها لأنهـا صـادَّة عـن ذلـك، أو شاغلة عنه أو مفوتة لكماله، ولذلك كانـت درجاتهـا في الـنهي بحسـب صـدِّها عـن المـأمور وتعويقهـا عنه وتفويتها لكماله، فهي مقصـودة لغيرهـا، والمـأمور مقصـود لنفسـه، فلـو لم يصـد الخمـر والميسـر عن ذكر الله وعن الصـلاة وعـن الـتواد والـتحاب اذي وضـعه الله بـين عباده لما حرَّمه، وكذلك لو لم يَحُلْ بين العـبد وبـين عقلـه الذي به يعرف الله ويعبده ويحمده ويمجِّدُه ويصلي له ويسجد لَمَا حرَّمه. وكذلك سائر ما حرَّمه إنما حرَّمه لأنه يصد عما يحبه ويرضاه ويحول بين العبد وبين إكماله.

الـثاني: أن المـأمورات مـتعلقة بمعـرفة الله وتوحـيده وعـبادته وذكـره وشـكره ومحبـته والـتوكل علـيه والإنابـة إلـيه، فمـتعلقها ذات الـرب تعالى وأسماؤه وصفاته ومتعلق المنهيات ذوات الأشياء المنهي عنها، والفرق من أعظم ما يكون.

الثالـث: أن ضرورة العبد وحاجته إلى فعل المأمور أعظم من ضرورته إلى ترك المحظور، فإنه ليس إلى شيء أحوج وأشد فاقه منه إلى معرفة ربِّه وتوحيده وإخلاص العمل له، وإفراده من ضرورته إلى غذائه الذي به قوام بدنه، بل هذا لقلبه، وروحه كالحياة والغذاء لبدنه، وهو إنما هو إنسان بروحه وقلبه لا ببدنه وقالبه، كما قيل:

يا خادمَ الجسمِ كَمْ تَشقَى بخدمتهِ ... فأنـــتَ بالقلبِ لا بالجسمِ إنسانُ

وتـرك المـنهي إنمـا شرع له تحصيلاً لهذا الأمر الذي هو ضروري به وما أحوجه وأفقره إليه.

الرابع: أن ترك المنهي من باب الحمية، وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذي لا تقوم البنية بدونه، ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسان مع تركه الحمية وإن كان بدنه عليلاً أشد ما يكون علة، ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذي يحفظها، فهذا مثل المأمورات والمنهيات.

الخامس: أن الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين: ترك المأمور وفعل المحظور، ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود في النار، ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلدًا في السعير، فأينَ شيءٌ مثاقيلُ الدر منه تُخرج من النار، إلى شيء وزن الجبال منه أضعافًا مضاعفة لا تقتضي الخلود في النار، مع وجود ذلك المأمور أو أدنى شيء منه.

السادس: أن جميع المحظورات من أولها إلى آخرها تسقط بمأمور التوبة، ولا تسقط المأمورات كلها معصية المخالفة إلا بالشرك أو الوفاة عليه، ولا خلاف بين الأمة أن كل محظور يسقط بالتوبة منه، واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية، وفي المسألة نزاع وتفاصيل ليس هذا موضعه. السابع: أن ذنب الأب كان بفعل المحظور فكان عاقبته أن اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى، وذنب إبليس كان بترك المأمور فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه، وجعل هذا عبرة للذرية إلى يوم القيامة.

الثامن: أن المأمور محبوب إلى الربِّ، والمنهي مكروه له، وهو سبحانه إنما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى. أما من عبده فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك، وأما من نفسه فبالمغفرة والتوبة على العبد والعفو عنه، والصفح والحلم والتجاوز عن حقه، وغير ذلك مما هو أحب إليه من فواته بعدم تقدير ما يكرهه، وإذا كان إنما قدر ما يكرهه لأنه يكون وسيلة إلى ما يحبه، علم أن محبوبه هو الغاية، ففوات محبوبه أبغض إليه وأكره له من حصول مبغوضه، بل إذا ترتب على حصول مبغوضه ما يحبه من وجه آخر كان المبغوض مرادًا له إرادة الوسائل، كما كان النهي عنه وكراهته لذلك، وأما المحبوب وحده. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا

لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) وقدر مكروهه ومبغوضه تكميلاً لهذه الغاية التي خلق خلقه لأجلها فإنه ترتب عليه من المأمورات ما لم يكن يحصل بدون تقديره كالجهاد الذي هو أحب العمل إليه والموالاة فيه والمعاداة فيه، ولولا محبته لهذه المأمورات لما قدر من المكروه له ما يكون سببًا لحصولها.

التاسع: أن ترك المحظور لا يكون قربة ما لم يقارنه فعل المأمور، فلو ترك العبد كل محظور لم يثبه الله عليه حتى يقارنه مأمور الإيمان، وكذلك المؤمن لا يكون تركه المحظور قربة حتى يقارنه مأمور النية بحيث يكون تركه لله. فافتقر ترك المنهيات بكونه قربة يثاب عليها إلى فعل المأمور، ولا يفتقر فعل المأمور في كونه قربة وطاعة إلى ترك المحظور، ولو افتقر إليه لم يقبل الله طاعة مَنْ عصاه أبدًا، وهذا من أبطل الباطل.

العاشر: أن المنهي عنه مطلوب إعدامه، والمأمور مطلوب إيجاده، والمراد إيجاد هذا وإعدام ذاك، فإذا قدر عدم الأمرين أو وجودهما كان وجودهما خيرًا من عدمهما فإنه إذا عدم المأمور لم ينفع عدم المحظور، وإذا وجد المأمور فقد يُستعان به على دفع المحظور أو دفع أثره، فوجود القوة والمرض خير من عدم الحياة والمرض.

الحادي عشر: أن باب المأمور الحسنة فيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وباب المحظور السيئة فيه بمثلها وهي بصدد الزوال بالتوبة والاستغفار، والحسنة الماحية والمصيبة المكفِّرة واستغفار الملائكة للمؤمنين واستغفار بعضهم لبعض وغير ذلك، وهذا يدل على أنه أحب إلى الله من عدم النهي.

الثاني عشر: أن باب المنهيات يمحوه الله سبحانه ويبطل أثره بأمور عديدة من فعل العبد وغيره، فإنه يبطله بالتوبة النصوح وبالاستغفار وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة، وباستغفار الملائكة وبدعاء المؤمنين، فهذه سنة في حال حياته، وبتشديد الموت وكربه وسياقه عليه. فهذا عند مفارقته الدنيا، وبهول المطلع وروعة الملكين في القبر وضغطته وعصرته له وشدة الموقف وعدائه وصعوبته. وبشفاعة الشافعين فيه وبرحمة أرحم الراحمين له، فإن عجزت عنه هذه الأمور فلابد له من دخول النار، ويكون لبثه فيها على قدر بقاء خبثه

ودرنه. فإن الله حرَّم الجنَّة إلا على كل طيب، فما دام درنه ووسخه وخبثه فيه فهو في كير التطهير حتى يتصفى من ذلك الوسخ والخبث، وأما باب المأمورات فلا يبطله إلا المشرك.

الثالث عشر: أن جزاء المأمورات الثواب وهو من باب الإحسان والفضل والرحمة، وجزاء المنهيات العقوبة وهي من باب الغضب والعدل، ورحمته سبحانه تغلب غضبه، فما تعلق بالرحمة والفضل أحب إليه مما تعلق بالغضب والعدل، وتعطيل ما تعلق بالرحمة أكره إليه من فعل ما تعلق بالغضب.

الرابع عشر: أن باب المنهيات تُسقِط الآلاف المؤلفة منه الواحدة من المأمورات، وباب المأمورات لا تسقط الواحدة منه الآلاف المؤلفة من المنهيات.

الخامس عشر: أن متعلق المأمورات الفعل وهو صفة كمال، بل كمال المخلوق من فعاله فإنه فعل مكمل ومتعلق النهي الترك، والترك عدم، ومن حيث هو كذلك لا يكون كمالاً، فإن العدم المحض ليس بكمال، وإنما يكون كمالاً لما يتضمنه أو يستلزمه من الفعل الوجودي المادي الذي هو سبب الكمال، وأما أن يكون مجرد الترك الذي هو عدم محض كمالاً أو سببًا للكمال فلا. مثال ذلك لو ترك السجود للصنم لم يكن كماله في مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله، وإلا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالاً. وكذلك لو ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمنًا ما لم يفعل ضد ذلك من التصديق والحب وموالاته وطاعته، فعلم أن الكمال كله في المأمور، وأن المنهي ما لم يتصل به فعل المأمور لم يفد شيئًا ولم يكن كمالاً، فإن الرجل لو قال للرسول: لا أكذبك ولا أصدقك ولا أواليك ولا أعاديك، ولا أحاربك ولا أحارب من يحاربك، لكان كافرًا ولم يكن مؤمنًا بترك معاداته وتكذيبه ومحاربته ما لم يأت بالفعل الوجودي الذي أمر به.

السادس عشر: أن العبد إذا أتى بالمأمور به على وجهه ترك المنهي عنه ولابد. فالمقصود إنما هو فعل المأمور، ومع فعله على وجهه يتعذر فعل المنهي، فالمنهي عنه في الحقيقة هو تعريض المأمور للإضاعة، فإن العبد إذا فعل ما أمر به من العدل والعفة وامتنع من صدور الظلم والفواحش منه، فنفس العدل يتضمن ترك الظلم، ونفس العفة تتضمن ترك

الفواحش، فدخل ترك المنهي عنه في المأمور به ضمنًا وتبعًا، وليس كذلك في عكسه فإن ترك المحظور لا يتضمن فعل المأمور فإنه قد يتركها معًا كما تقدم، فعلم أن المقصود هو إقامة الأمر على وجهه، ومع ذلك لا يمكن ارتكاب النهي البتة وأما ترك المنهي عنه فإنه يستلزم إقامة الأمر.

السابع عشر: أن الربَّ تعالى إذا أمر عبده أمر ونهاه عن أمر ففعلهما جميعًا كان قد حصل محبوب الربِّ وبغيضه. فقد تقدم له من محبوبه ما يدفع عنه شر بغيضه ومقاومته، ولاسيما كان فعل ذلك المحبوب أحب إليه من ترك ذلك البغيض فيهب له من جنايته ما فعل من هذا بطاعته، ويتجاوز له عما فعل من الآخر، ونظير هذا في الشاهد أن يقتل الرجل عدوًا للملك هو حريص على قتله. وشرب مسكرًا نهاه عن شربه. فإنه يتجاوز له عن هذه الزلة بل عن أمثالها في جنب ما أتى به من محبوبه. وأما إذا ترك محبوبه وبغيضه فإنه لا يقوم ترك بغيضه بمصلحة فعل محبوبه أيضًا، كما إذا أمر الملك عبده بقتل عدوه ونهاه عن شرب مسكر فعصاه في قتل عدوه مع قدرته عليه وترك شرب المسكر، فإن الملك لا يهب له جرمه بترك أمره في جنب ترك ما نهاه عنه، وقد فطر الله عباده على هذا، فهكذا السادات مع عبيدهم والآباء مع أولادهم والملوك مع جندهم والزوجات مع أزواجهم ليس التارك منهم محبوب الأمر ومكروهه بمنزلة الفاعل منهم محبوب أمره ومكروهه.

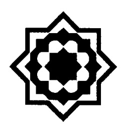
يوضحه الوجه الثامن عشر: أن فاعل محبوب الربِّ يستحيل أن يفعل جميع مكروهه بل يترك من مكروهه بقدر ما أتى به من محبوبه فيستحيل الإتيان بجميع مكروهه وهو يفعل ما أحبَّه وأبغضه فغايته إن اجتمع الأمران فيحبه الربُّ تعالى من وجه ويبغضه من وجه. أما إذا ترك المأمور به جملة فإنه لم يقم به ما يحبه الرب عليه فإن مجرد ترك المنهي لا يكون طاعة إلا باقترانه بالمأمور كما تقدم فلا يحبه على مجرد الترك وهو سبحانه يكرهه ويبغضه على مخالفة الأمر. فصار مبغوضًا للربِّ تعالى من كل وجه إذ ليس فيه ما يحبه الربُّ عليه، فتأمله.

يوضحه الوجه التاسع عشر: وهو أن الله سبحانه لم يعلق محبته إلا بأمر وجودي أمر به إيجابًا أو استحبابًا ولم يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا هو موضع واحد فإنه يحب

التوابين ويحب المحسنين. ويحب الشاكرين، ويحب الصابرين ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ، ويحب المتقين ويحب الذاكرين، ويحب المتصدِّقين، فهو سبحانه إنّما علق محبته بأوامره إذ هي المقصود من الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ فما خلق الخلق إلا لقيام أوامره، وما نهاهم إلا عما يصدهم عن قيام أوامره ويعوقهم عنها.

يوضحه الوجه العشرون: أن المنهيات لو لم تصد عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذي أمر الله بها لم يكن المنهي عنها معنى، وإنما نهى عنها لمضادتها لأوامره وتعويقها لها وصدها عنها، فالنهي عنها من باب التكميل والتتمة للمأمور، فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء ليجرى في مجاريه غير معوق، فالأمر بمنزلة الماء الذي أرسل في نهر لحياة البلاد والعباد، والنهي بمنزلة تنظيف طرقه ومجراه وتنقيتها مما يعوق الماء، والأمر بمنزلة القوة والحياة، والنهي بمنزلة الحمية الحافظة للقوة والداء والخادم لها.

قالوا: وإذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر، وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور والصبر على المقدور، فإن الصبر الأعلى يتضمن الصبر الأدنى دون العكس، وقد ظهر لك من هذا أن الأنواع الثلاثة متلازمة، وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين، وإن كان من الناس من قوة صبره على المقدور، فإذا جاء الأمر والنهي فقوة صبره هناك ضعيفة، ومنهم مَنْ هو بالعكس من ذلك، ومنهم مَنْ قوة صبره في جانب الأمر أقوى، ومنهم مَنْ هو بالعكس والله أعلم.



الباب العاشر

في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم

الصبر ينقسم إلى قسمين : قسم مذموم، وقسم ممدوح:

فالمذموم: الصبر عن الله وإراداته ومحبته وسير القلب إليه، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له، وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمه وأبلغه، فإنه لا صبر أبلغ من صبر مَنْ يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له بدونه ألبتة، كما أنه لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعدَّ الله لاوليائه من كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهد، كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب لزهده: «ما رأيت أزهد منك، فقال: أنت أزهد مني، أنا زهدت في الدنيا وهي لا بقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت في الآخرة، فمن أزهد منا؟ قال يحيى بن معاذ الرازي(1): «صبرُ المحبين أعجب من صبر الزاهدين، واعجبًا كيف يصبرون» وفي هذا قيل:

الصبرُ يُحمَدُ في المواطن كلِّها ... إلاَّ عليك فإنَّه لا يُحمَدُ

ووقف رجل على الشبلي(2) فقال: «أيُّ صبرٍ أشدُّ على الصابرين؟ فقال: الصبرُ في الله، قال: لا فقال: الصبر لله، فقال: لا . قال: فالصبر مع الله، قال: لا. قال: فإيش هو؟ قال: «الصبر عن الله» فصرخَ الشبلي صرخة كادت روحه تزهق.

---

(1) هو: يحيى بن معاذ الرازي، أحد الزهَّاد والوعَّاظ، من كبار المشايخ، انظر في ترجمته: سير أعمال النبلاء، (١٣/١٥)، صفة الصفوة (٤/٩٠)، حلية الأولياء (١٠/٥١).

(2) هو : أبو بكر الشبلي البغدادي، قيل: اسمه دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دلف، أصله من الشبلية، قرية وراء النهر، ومولده بسامراء، كان فقيهًا عارفًا بمذهب الإمام مالك، وكتب الحديث عن طائفة، توفي سنة ٣٣٤هـ عن نيف وثمانين سنة، وانظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/٣٦٧)، معجم البلدان (٣/٣٢٢).

وقيل: «الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء» وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود، فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه في محبته، ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل:

والصـــبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُهُ ... والصبرُ في سائرِ الأشياءِ محمودُ

وقال آخر في الصبر عن محبوبه:

إذا لَعِـبَ الـرجال بكـلِّ شيءٍ ... رأيـتَ الحـبَّ يلعَـبُ بالرِّجالِ
وكـيف الصـبرُ عمَّنْ حلَّ منِّي ... بمـنزلةِ اليميـنِ مـع الشمالِ؟

وشكا آخر إلى محبوبه ما يقاسي من حبه فقال: «لو كنت صادقًا لما صبرت عني»:

ولما شكوتُ الحبَّ قالت: كَذَبْتَني ... ترَى الصَّبَّ[1] عن محبوبِه كيفَ يَصْبِرُ

(فصـــــــل) وأمَّا الصبر المحمود فنوعان: صبر لله، وصبر بالله، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلا بِاللَّهِ﴾ (النحل: ١٢٧) وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨) وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل، فقالت طائفة: الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية وما كان به فهو وسيلة والغايات أشرف من الوسائل، ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبررًا وتقربًا إلى الله لأنه نذر له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج تخرج اليمين لأنه حلف به، فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنجي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عبَّاد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربُّه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به كما قال تعالى:

---

(١) الصب: الحبيب المشتاق.

﴿وَاصْبِرْ﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إلا بِاللَّهِ﴾ فهذه جملة خبرية غير الجملة المطلوبة التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة كقوله:

وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرَّح بمضمونها في قوله﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال: ٤٦) وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرَّب إليه بالنوافل حتى صار محبوبًا له. فهو يسمع وبه يبصر. وكذلك به يصبر فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه. ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله. كما في الأثر الإلهي يعني وما يتحمل المتحملون من أجلي فدلَّ قوله ﴿وَمَا صَبْرُكَ إلا بِاللَّهِ﴾ على أنه مَنْ لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر، وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذًا وتبليغًا، وعلى الحكم القدري احتمالاً له واضطلاعًا به، من لم يكن الله معه؟ فلا يطمع في درجة الصبر المحمود عواقبه من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله.

وهذا هو المراد من قوله: «كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها [1]. ليس المراد أني كنت نفس هذه الأعضاء والقوى كما يظنُّه أعداء الله أهل الوحدة. وأن ذات العبد هي ذات الربِّ، تعالى الله عن قول إخوان النصارى علوًا كبيرًا، ولو كان كما يظنُّون لم يكن فرق بين هذا العبد وغيره، ولا بين حالتي تقربه إلى ربِّه بالنوافل وتمقته إليه بالمعاصي بل لم يكن هناك متقرب ومتقرب إليه، ولا عبد ولا معبود، ولا محب ولا محبوب. فالحديث كله مكذِّبٌ لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجهًا تعرف بالتأمل الظاهر. وقد فسَّر المراد من قوله

بقوله: فعبر عن هذه المصاحبة التي حصلت بالتقرب إليه بمحابه بألطف عبارة وأحسنها تدل على تأكد المصاحبة ولزومها حتى صار له

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢)، ابن حبان (٣٤٧)، البيهقي (٣٤٦/٣) من حديث أبي هريرة ﷺ

بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله، ونظيرها قوله: «**الحجر الأسود يمينُ الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله فكأنَّما صافح الله وقبَّل يمينه**»[1]. ومثل هذا سائغ في الاستعمال أن ينزل إلى منزلة ما يصاحبه ويقارنه حتى يقول المحب للمحبوب: أنت روحي وسمعي وبصري. وفي ذلك معنيان:

أحدهما أنه صار منه بمنزلة روحه وقلبه وسمعه وبصره، والثاني أن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه كما في الحديث: «**يقول الله تعالى: أنا جليس مَنْ ذكرَني**»[2]. وفي الحديث الآخر: [3]. وفي الحديث: «**فإذا أحببت عبدي كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا**»[4]. ولا يعبر عن هذا المعنى بأتم من هذه العبارة ولا أحسن ولا ألطف منها وإيضاح هذه العبارة مما يزيدها جفاء وخفاء.

والمقصود إنما هو ذكر الصبر بالله، وأن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره. قال أبو علي: «فاز الصابرون بعز الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾». وها هنا سر بديع وهو أن مَنْ تعلَّق بصفة من صفات الربِّ تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والربُّ تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه. وقد قيل: إن

---

(١) رواه ابن عدي في: الكامل (٣٤٢/١)، الخطيب في: تاريخ بغداد (٣٢٨/٥)، وقال ابن الجوزي في: العلل المتناهية (٥٧٥/٢) حديث (٩٤٤): هذا حديث لا يصح، فيه إسحق بن بشير، كذبه ابن أبي شيبة، وقال الدارقطني: هو في عداد من يضع، وقال ابن العربي: حديث باطل فلا يلتفت إليه. وانظر: فيض القدير (٤٠٩/٣) والحديث ضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٧٧١، ٢٧٧٢).

(٢) رواه أحمد في الزهد (ص ٦٨)، وابن أبي شيبة (١٠٨/١) (١٢٢٤)، البيهقي في الشعب (٦٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧/٦، ٤٢) عن كعب الأحبار، وإسناده ضعيف، وما بعده يغني عنه.

(٣) رواه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ تعليقًا بصيغة الجزم، ووصله البخاري في «**خلق أفعال العباد**» (ص ٩٦)، وأحمد (٥٤٠/٢) وابن ماجه (٣٧٩٢) وابن حبان (٨١٥) والطبراني في الأوسط (٦٦٢١) والبيهقي في الشعب (٥٠٩) وابن المبارك في الزهد (٩٥٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٦٠٩)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٩/٨) وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٤٣/١) برقم (٢٧).

الله سبحانه أوحى إلى داود: «تخلَّق بأخلاقي فإن مِنْ أخلاقي أنّي أنا الصَّبُور» والربُّ تعالى يحب أسماءه وصفاته، ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد فإنه جميل يحب الجمال عفوّ يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليمٌ يحب أهل العلم، وِتْرٌ يحب الوِتْر، قويٌّ والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، صبورٌ يحب الصابرين، شكورٌ يحب الشاكرين، وإذا كان سبحانه يحب المتَّصِفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف، فهذه المعية الخاصة عبَّر عنها بقوله: «كنتُ له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا».

(فصـــــــل) وزاد بعضهم قسمًا ثالثًا من أقسام الصبر وهو الصبر مع الله وجعلوه أعلى أنواع الصبر، وقالوا: هو الوفاء، ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يفسره بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت، وهي الصبر على اقضيته، والصبر على أوامره، والصبر عن نواهيه، فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه يدور معها حيث دارت فيكون دائمًا مع الله لا مع نفسه، فهو مع الله بالمحبة والموافقة، فهذا المعنى حق ولكن مداره على الصبر على الأنواع المتقدمة، وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر، فهذا حق ولكنَّ جعله قسمًا رابعًا من أقسام الصبر غير مستقيم.

واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه، وهو أن لا يروغ عنه روغان الثعالب ها هنا وها هنا. فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه وعكوف القلب عليه، وزاد بعضهم قسمًا آخر من أقسامه وسمَّاه الصبر فيه، وهذا - أيضًا - غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة، ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له. وهذا كما يقال: فعلت هذا في الله وله، كما قال خبيب:

وذلك في ذاتِ الإله وإنْ يَشَأْ ... يُبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[1]

---

(١) الشِّلْو: العضو والجزء، والجمع: أشلاء. الممزع: المفرَّق المقطَّع.
وقصة البيت رواها البخاري: (٣٠٤٥)، والنسائي في: الكبرى (٨٨٣٩) وأحمد (٢/٢٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت: ٦٩) وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾(الحج: ٧٨) وفي حديث جابر: «إن الله تعالى لما أحيا أباه وقال له: تمنَّ. قال: يا رب أن ترجعني إلى الدنيا حتى أقتل فيك مرة ثانية»(١). وقال ﷺ: «ولقد أوذيتُ في الله وما يؤذى أحدٌ»(٢). وهذا يفهم منه معنيان أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله، وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره، كما في الحديث «تعلمت فيك العلم»(٣). والثاني أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب ما يأتي قولهم: «ذلك في الله» في هذا المعنى، فتأمل قوله ﷺ: «ولقد أوذيتُ في الله» وقول خبيب: «وذلك في ذات الإله» وقول عبد الله بن حرام: «حتى أقتل فيك» وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه.

وليست «في» ها هنا للظرفية، ولا لمجرد السببية، وإن كانت السببية هي أصلها فانظر إلى قوله:«في نفس المؤمن مائة من الإبل»(٤). وقوله: «دخلت امرأة النار في هرة»(٥). كيف نجد فيه معنى زائدًا على السببية، وليست «في» للوعاء في جميع معانيها فقولك «فعلت هذا

---

(١) رواه الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجه (١٩٠) والبخاري في: «خلق أفعال العباد» (ص ٤٢)، وابن حبان (٧٠٢٢) والحاكم (٣/٢٠٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٨٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١)، وأحمد (٣/١٢٠، ٢٨٦)، وابن حبان (٦٥٦٠)، والضياء في «المختارة» (١٦٣٣)، وأبو يعلى (٣٤٢٣)، وعبد بن حميد (١٣١٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٣٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٥٠)، من حديث أنس ﷺ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٠١).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧)، وأحمد (٢/٣٢١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) رواه النسائي (٤٨٦٨)، والحاكم (١/٣٩٥)، والدارمي (٢٣٥٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/٢٨) وابن حبان (٦٥٥٩) وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٣٣) وقال في «الإرواء» (٢/٢٢) وإسناده مرسلاً صحيح.

(٥) رواه البخاري (٣٤٨٥)، ومسلم (٢٢٤٢)، والنسائي (١٤٨٢)، وابن ماجه (٤٢٥٦)، وأحمد (٢/٢٦١)، والدارمي(٢٨١٤)، وابن حبان (٥٤٦)، والبيهقي (٥/٢١٤)، وعبد بن حميد (٧٨٩)، عن حديث ابن عمر رضى الله عنهما، والباب من حديث أبي هريرة وجابر رضى الله عنهما.

هـذا في مرضـاتك» فيه معنى زيد على قولك «فعلته لمرضاتك» وأنت إذا قلت: «أوذيت في الله» لا يقـوم مقـام هذا اللفظ كقولك «أوذيت لله» ولا «بسبب الله» وإذا فهم المعنى طوى حكـم العبـارة، والمقصود أن الصبر في الله إن أريد به هذا المعنى فهو حق، وإن أريد به معنى خـارجٌ عـن الصـبر عـلى أقضيته وعلى أوامره وعن نواهيه وله وبه لم يحصل، فالصابر في الله كالمجاهد في الله، والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله. والله الموفق.

وأمـا قـول بعضهم «الصبر لله عناء، والصبر بالله بقاء، والصبر في الله بلاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء» فكلام لا جب التسليم لقائله لأنه ذكر ما سنح له وتصوره، وإنما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم ونحن نشرح هذه الكلمات.

أمـا قولـه «الصـبر لله عناء» فإن الصبر لله بترك حظوظ النفس ومرادها لمراد الله وهذا أشـق شيء على النفس وأصعبه، فإن قطع المفازة[1] التي بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديد جدًا على النفس، بخلاف السفر إلى الآخرة فإنه سهل كما قال الجنيد: «السير من الدنيا إلى الآخرة سهل، (يعني على المؤمن). وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد».

وأمـا قولـه: «والصبر بالله بقاء» فلأن العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء ويتحمل الأثقـال ولم يجـد لهـا ثقـلاً، فإنـه إذا كـان بالله لا بالخلق ولا بنفسه، كان لقلبه وروحه وجود آخـر وشـأن آخـر، غـير شـأنه إذا كـان بنفسـه وبالخلق، وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مـرارته وتنقلـب مشـاق التكـليف له نعـيمًا وقُرَّةَ عين. كما قال بعض الزهَّاد: «عالجت قيام الليـل سـنة وتنعمـت بـه عشـرين سـنة» ومـن كانـت له قرَّة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة.

وأمـا قولـه: «والصـبر في الله بـلاء» فالـبلاء فـوق العـناء، والصـبر فيه فوق الصبر له وأخـص مـنه كما تقدم، فإن الصبر فيه بمنزلة الجهاد فيه وهو أشق من الجهاد له، فكل مجاهد

(١) المفازة: الصحراء، سميت بذلك تفاؤلاً، لأن مَنْ يعبرها فهو فائز.

في الله وصابر في الله، مجاهد له وصابر له، من غير عكس فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة ليقع عليه اسم من فعل ذلك لله، ولا يقع عليه اسم من فعل ذلك في الله، وإنما يقع على من انغمس في الجهاد والصبر ودخل الجنة.

وأما قوله: «والصبرُ مع الله وفاء، فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه، ولا يزيغ القلب عن الإنابة ولا الجوارح عن الطاعة فتعطى المعية حقها من التوفية كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾(النجم: ٣٧) أي وفي ما أمر به بصبره مع الله على أوامره.

وأما قوله «والصبر عن الله جفاء فلا جفاء أعظم ممن صبر عن معبوده وإلهه ومولاه الذي لا مولى له سواه، ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم إلا بمعيته والقرب منه. وإيثار مرضاته على كل شيء. فأي جفاء أعظم من الصبر عنه. وهذا معنى قول من قال: «الصبر على ضدّ بين صبر العابدين وصبر المحبين، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظًا، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضًا كما قيل:

تَبَيَّنَ يومَ البَيْنِ أنَّ اعتزامَهُ ... علَى الصَّبْرِ من إحدَى الظنونِ الكواذِبِ

وقال الآخر:

ولمَّا دعوتُ الصبرَ بعدك والبُكَا ... أجابَ البكا طَوْعًا ولم يُجِبِ الصبرُ

قالوا: ويدل عليه أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(يوسف: ٨٣،١٨). ورسول الله ﷺإذا وعد وفَّى. ثم حمله الوجد على يوسف والشوق إليه أن قال: ﴿يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ﴾(يوسف: ٨٤) فلم يكن عدم صبره عنه منافيًا لقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فإن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه ولا تنافيه الشكوى إلى الله فإنه قد قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل وقد امتثل ما أمر به وقال: «اللهم إنِّي أشكو إليك ضعفَ قوتي وقلةَ حيلتي»[1] الحديث. وأما قول بعضهم:

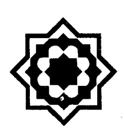
(١) سبق تخريجه.

إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري من هو، فهذا من الصبر الجميل، لأن من فقده فقد الصبر الجميل، فإن ظهور أثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه ألبتة وبالله التوفيق.

وزاد بعضهم في الصبر قسمًا آخر وسماه «الصبر على الصبر» وقال: هو أن يستغرق في الصبر حتى يعجز الصبر عن الصبر كما قيل:

صابر الصبر فاستغاث به الصبرُ فصـــاح المحـــبُّ بالصبر صبرًا

وليس هذا خارجًا عن أقسام الصبر، وإنما هو المرابطة على الصبر والثبات عليه، والله أعلم.



الباب الحادي عشر
في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

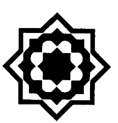
كل أحد لابد أن يصبر على بعض ما يكره، إما اختيارًا وإما اضطرارًا، فالكريم يصبر اختيارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يحمله عليه، ويذم على الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتًا. ولم ينتزع عنه مكروهًا وأن المقدور لا حيلة في دفعه وما لم يقدر لا حيلة في تحصيله، فالجزع ضره أقرب من نفعه، قال بعض العقلاء: العاقل عند نزول المصيبة بفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر، كما قيل:

وإن الأمر يفضي إلى آخر فيصير آخره أولاً

فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود، فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره، وقال بعض العقلاء: «مَنْ لم يصبر صبرَ الكرام سلاَ سلوَّ البهائم» فالكريم ينظر إلى المصيبة فإن رأى الجزع يردها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين.

(فصل) وأما اللئيم فإنه يصبر اضطرارًا فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدي عليه شيئًا فيصبر صبر المُثق للضرب، وأيضًا فالكريم يصبر في طاعة الرحمن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان. فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم وأقل الناس صبرًا في طاعة ربِّهم، فيصبر على البذل في طاعة الشيطان أتم صبر ولا يصبر على البذل في طاعة الله في أيسر شيء، ويصبر على تحمل المشاق لهوى نفسه في مرضاة عدوه، ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة ربِّه، ويصبر على ما يقال في عرضه في المعصية، ولا يصبر على ما يقال في عرضه إذا أوذي في الله بل يفر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية أن يتكلم في عرضه في ذات الله، ويبذل عرضه في هوى نفسه ومرضاته صابرًا على ما يقال فيه، وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده، ولا يصبر على التبذل لله في

مرضاته وطاعته، فهو أصبر شيء على التبذل[1] في طاعة الشيطان ومراد النفس ، وأعجز شيء عن الصبر على ذلك في الله، وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبه كريمًا عند الله، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم: أين المتقون؟.



(١) التبذل: ترك الزينة والتجمل ولبس الخشن من الثياب.

الباب الثاني عشر
في الأسباب التي تعين على الصبر

لما كان الصبر مأمورًا به جعل الله سبحانه له أسبابًا تعين عليه وتوصل إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بالأمر إلا أعان عليه ونصب له أسبابًا تمده وتعين عليه كما أنه ما قدر داء إلا وقدر له دواء وضمن الشفاء باستعماله، فالصبر وإن كان شاقًا كريهًا على النفوس فتحصيله ممكن. وهو يتركب من مفردين: العلم والعمل، فمنهما تركب جميع الأدوية التي تداوى بها القلوب والأبدان، فلابد من جزء علمي وجزء عملي فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية. فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية، وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه، وحَلَتْ له مرارته وانقلب ألمه لذةً، وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس، وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر، فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر، كالحال مع القوة والمرض سواء، فإذا قوى باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه، أو يملكه ولكن لا يملك طرفه أو يملكه ولكن لا يملك قلبه، بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنِّيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكر فيما ينفعه في دنياه وآخرته، فإذا عزم على التداوى ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولاً بأمور:

أحدها: أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة، إما بنوعها أن بكميتها وكثرتها ليحسم هذه المادة بتقليلها فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم فإنه يضعف مجاري الشهوة ويكسر حدتها، ولاسيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلاً.

الثاني: أن يجنب محرك الطلب وهو النظر فليقصر لجام طرفه ما أمكنه، فإن داعي

الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر، والنظر يحرك القلب بالشهوة، وفي المسند عنهﷺ : «النظر سهمٌ مسمومٌ من سِهَامِ إبليس» [1]. وهذا السهم يشرده[2] إبليس نحو القلب ولا يصادف جُنَّة[3] دونه؛ وليست الجنة إلا غض الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمي؛ فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا لم تقف على طريقها أخطأ السهم، وإن نصبت قلبك عرضًا فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة.

الثالث: تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام؛ فإن كل ما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه. وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس، كما أرشد إليه النبيُّﷺ فالدواء الأول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح، وعن الكلب الضاري لإضعاف قوتهما. والدواء الثاني يشبه تغيب اللحم عن الكلب والشعير عن البهيمة لئلا تتحرك قوتهما له عند المشاهدة والدواء الثالث يشبه إعطائهما من الغذاء ما يميل إليه طبعهما بحسب الحاجة لتبقى معه القوة فتطيع صاحبهما؛ ولا تغلب بإعطائها الزيادة على ذلك.

الرابع: التفكر في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر، فإنه لو لم يكن جنة ولا نار لكان في المفاسد الدنيوية ما ينتهى عن إجابة هذا الداعي ولو تكلفنا عدَّها لفاقت الحصر، ولكن عين الهوى عمياء.

الخامس: الفكرة في مقابح الصورة التي تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره، فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب كما قيل:

سَأترِكُ وَصْلَكُمْ شَرَفًا وعِزًّا ... لِخِسَّةِ سائرِ الشُّرَكاءِ فيهِ

(١) رواه أحمد (٥/٢٦٤)، والحاكم (٤/٣١٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٢) عن حذيفة، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: «إسحق واهٍ، وعبد الرحمن الواسطي ضعَّفوه».أ.هـ ، وهو ضعيف كما في «التقريب » (١/٣٣٦)، وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود مختلف في سماعه من ابن مسعود، والحديث ضعَّفه الألباني في «الضعيف» (١٠٦٥).

(٢) شرده: يحيده عن طريقه.

(٣) جُنَّة: وقاية وحماية وسترًا.

وقال آخر:

إذا كـثُرَ الذبـابُ على طعامٍ　　رفعـتُ يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنـبُ الأُسُودُ ورودَ ماءٍ　　إذا كـان الكـلابُ يَلِغْنَ فيهِ

وليذكر مخالطة ريقه لريق كل خبيث ريقه الداء الدوى، فإن ريق الفاسق داء كما قيل:

تَسَلَّ يا قلبُ عن سَمْحٍ بِمُهْجَتِهِ　　مُـبَذَّلٍ كـلُّ مَنْ يلقاهُ يقرفُهُ
كالمـاء أي صيد يأتيه ينهله　　والغُصْنِ أيُّ نسيمٍ مَرَّ يَعْطفُهُ
وإن حـلا رَيِّقٌ فاذكرْ مرارتَهُ　　فـي فَمِ أَبْخَرَ يحفيهِ ويَرْشُفُهُ

ومن له أدنى مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه، فإن لم تجبه نفسه إلى الإعراض ورضى بالمشاركة فلينظر إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبائح الباطنة، فإن من سكَّنَ نفسه من فعل القبائح فنفسه أقبح من نفوس البهائم، فإنه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من الحيوانات أصلاً إلا ما يحكى عن الخنزير، وأنه ليس في البهائم لوطي سواه، فقد رضى هذا الممكن من نفسه أنه يكون بمنزلة الخنزير، وهذا القبح يغطي كل جمال وملاحة في الوجه والبدن، غير أن حبَّك الشيء يعمي ويصم، وإن كانت الصورة أنثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها فلها نصيب من وزرهم وعارهم، ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح ألبتة، وإذا أردت معرفة ذلك فانظر إلى القبح الذي يعلو وجه أحدهما في كبره، وكيف يقلب الله سبحانه تلك المحاسن مقابح حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه كما قيل شعرًا:

لـو فكر العاشق في منتهى　　حسـن الذي يسبيه لم يَسْبِهِ

وتفصيل هذه الوجوه يطول جدًا فيكفي ذكر أصولها.

(فصـــل) وأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور:

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك ألبتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له، فإن المحب لمن يحب مطيع وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة ممن أحسن إليه. وإنما يفعل هذا لئام الناس، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياءً منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه، ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إ لى ربه، فملك ينزل بهذا، وملك يعرج بذاك، فأقبح بها من مقابلة.

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإنَّ الربَّ تعالى إذا تمادى العبدُ في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلاً عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا، ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعًا وعقلاً وعرفًا، ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذى أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافًا مضاعفة ، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعتها، تذهب الشهوة وتبقى الشقوة، وقد صح عن النبيﷺ أنه قال:«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» [1]. قال بعض الصحابة : ينزع منه الإيمان حتى يتبقى على رأسه مثل الظلة، فإن تاب رجع إليه. وقال بعض التابعين: ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص، فإن تاب لبسه. ولهذا روى عن النبيِّﷺ في الحديث الذي رواه البخاري:«الزناة في التنُّور» [2] عُراة لأنهم تعرُّوا من لباس الإيمان، وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنورًا ظاهرًا يحمى عليه في النار.

السادس: مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة

(١) رواه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧)، وأبو داود (٤٦٨٩)، والترمذي (٢٦٢٥)، والنسائي (٤٨٨٥)، وابن ماجه (٣٩٣٦) وأحمد (٣١٧/٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) ليس في البخاري بهذا اللفظ، ولعل المصنِّف - رحمه الله - يقصد أن معناه رواه البخاري في «الجنائز» برقم (١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب.

وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى موقعًا وأتم فرحة، وأما عاقبته فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله.

السابع: مشهد العوض وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض والمعوض، فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعية وهو نوعان: معية عامة ومعية خاصة، فالعامة اطلاع الربِّ عليه وكونه بعينه لا تخفى عليه حاله. وقد تقدم هذا، والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال: ٤٦) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(النحل: ١٢٨) وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت: ٦٩) فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره ونال شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر؟ إنما هي كأحلام نائم أو كظل زائل.

التاسع: مشهد المغافصة[1] والمعاجلة وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة فيالها من حسرة! ما أمرَّها وما أصعبها! لكن ما يعرفها إلا مَنْ جرَّبها! وفي بعض الكتب القديمة: «يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ولا يتمُّ له سرور يوم، الحذرَ الحذر».

العاشر: مشهد البلاء والعافية فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية عوقبت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم، وقال بعض أهل العلم: في الأثر المروي: «إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية« فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصى الله والإعراض والغفلة عنه، وهذا وإن كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم والله أعلم.

(١) المغافصة: المفاجأة.

الحادي عشر: أن يعود باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر، فتقوى حينئذ همته، فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزاز[1] والخياط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعُفَ فيه باعثُ الدين وقوي فيه باعث الشهوة. وفتى عوَّد نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد.

الثاني عشر: كفُّ الباطل عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها فإنها تصير اماني، وهي رءوس أموال المفاليس وفتى ساكن الخواطر صارت أماني ثم تقوى فتصير همومًا ثم تقوى فتصير إرادات ثم تقوى فتصير عزمًا يقترن به المراد، فدفعُ الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطعُ العلائق والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهوى، وليس المراد أن لا يكون له هوى، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه، ويستعمله في تنفيذ مراد الربِّ تعالى، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه، فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله، فإن الله يقيه شرَّ استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله الله استعمله لنفسه وهواه ولابد، فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوى، والعمل إن لم يكن لله كان للرياء والنفاق، والمال إن لم ينفق في طاعة الله أنفق في طاعة الشيطان والهوى، والجاه إن لم يستعمله لله استعمله صاحبه في هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها في أمر الله استعملته في معصيته، فمن عوَّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومتى عوَّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله، وهذا في جميع أبواب الأعمال، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس.

الرابع عشر: صَرْفُ الفكر إلى عجائب آيات الله التي ندب عباده إلى التفكر فيها، وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاظرة الشيطان

(١) البزاز: بائع الثياب.

ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن مَنْ أمكنه أن لا يزال محاظرًا للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلى محاظرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن والله المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعًا إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به وينال بسبب غاية الألم. بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبنًا.

السادس عشر: تعرضه إلى مَنْ القلوب بين أصبعيه وأزِمَّة الأمور بيديه وانتهاء كل شيء إليه على الدوام، فلعله أن يصادف أوقات النفحات كما في الأثر المعروف: «إن لله في أيام دهره نفحات فتعرضوا لنفحاته واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم»[1]. ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه. فمن أعطى منثور الدعاء أعطى الإجابة. فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء كما قيل:

لــو لم تُرِدْ نَيْلَ ما أرجو وأطلُبُه ... مِنْ جُودِ كفِّكَ ما عوَّدْتَني الطلبا

ولا يستوحش من ظاهر الحال فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة مَنْ ليس كمثله شيء في أفعاله كما ليس كمثله شيء في صفاته، فإنه ما حَرَمَه إلا ليعطيه. ولا أمرضه إلا ليشفيه ولا أفقره إلا ليغنيه ولا أماته إلا ليحييه وماأخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال، كما قيل: «يا آدم لا تجزع من قولي لك وأخرج منها فلك خلقتُها وسأعيدك إليها».

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٥٠/١)، والبيهقي في «الشعب» (١١٢١ ٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٦٢/٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٠١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٣٣٩/٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٣٤/١٠): «رواه الطبراني ورجال إسناده رجال الصحيح، غير عيسى بن موسى بن إياس بن البكير وهو ثقة» أ.هـ. وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٨٩٠).

فالربُّ تعالى ينعم على عبده بابتلائه ويعطيه بحرمانه ويصحبه بسقمه فلا يستوحش عبده من حالة تسؤوه أصلاً إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

السابع عشر: أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ومحنته بين الجاذبين. جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل ينتهي إلى موضعه من سِجِّين. ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل فلينظر أين روحه في هذا العالم فإنها إذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا فهو أولى بها. فالمرء مع من أحب طبعًا وعقلاً وجزاء، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع. وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾(الإسراء: ٨٤). فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها ونهممها وأعمالها إلى أعلى. والنفوس السافلة إلى أسفل.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة وتنقيته من الدغل[1] شرط لكمال الزرع، فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلاً قابلاً ينزل فيه وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة، ولكنه لم ينقّه من الدغل لم يكن الزرع زرعًا كاملاً، بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له، وهذا كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث، فإذا طهَّر العبدُ قلبه وفرَّغه من إرادة السوء وخواطره، وبذر فيه بَذر الذِّكْر والمحبَّة والإخلاص، وعرَّضه لمهاب رياح الرحمة وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه. كان جديرًا بحصول المغل، وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوى الرخاء لإصابة نفحات الرحمن ﷻ في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ولاسيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة.. فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول

(١) الدغل: الشجر الكثيف الملتف، والجمع «أدغال» والمقصود هنا الموانع والعوائق التي تمنع وصول الهداية إلى القلب، مثلما يمنع الدغل وصول الغيث إلى النبات فلا ينمو نموًا سليمًا.

الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها، بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحسن، وبظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه ولو فرغ العبد المحل وهيأه وأصلح لرأى العجائب، فإن فضل الله لا يرده إلا المانع الذي في العبد. فلو زال ذلك المانع لسارع غليه الفضل من كل صوب فتأمل حال نهر عظيم يسقى كل أرض يمر عليها فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدبة سكرٌ[1] وسد كثيفٌ فصاحبها يشكو الجدب والنهر إلى جانب أرضه.

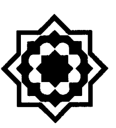
التاسع عشر: أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له، ولعز لا ذل معه، وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدار، بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل، والأمن الذيب معه الخوف وبعده الخوف ، وكذلك الغناء واللذة والفروح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده، لأنه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذا طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله، وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاءوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم. فإن الزهد في الدنيا ملك حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد. فيحرص كل الحرص على أن لا يصل إليه، فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو الملك حقًا، لأن صاحب هذا الملك حر، والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مسخَّرٌ مملوك في زيٍّ مالك يقوده زمام الشهوة والضغب كما يقاد البعير. فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذي صورته ملك وباطنه رق، وعلى الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة، والبصير الموفق يعبر نظره من الأوائل إلى الأواخر، ومن المبادئ إلى العواقب، وذلك

(١) السَّكْرُ: ما يُسَدُّ به مجرى الماء ونحوه.

فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

العشرون: أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف في حصول المقصود، بل لابد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه، وملاك ذلك الخروج عن العوائد فإنها أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبدًا، ويستعين على الخروج على العوايد بالهرب من مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ سمع بالدَّجَال فلينأ عنه»[1] فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه.

وها هنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق، وهي أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة، والله أعلم.



(١) رواه أبو داود (٤٣١٩)، وأحمد (٤/٤٣١، ٤٤١)، والحاكم (٤/٥٣١)، والطبراني في «الكبير» (١٨/٢٢٠)، والروياني في «مسنده» (١٣٣)، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٧٧)، من حديث عمران بن حصين.

الباب الثالث عشر
في بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال

فإنه بَيْنَ أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهيٌ يجب عليه اجتنابه وتركه، وقد يجرى عليه اتفاقًا، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات، وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين: أحدهما: يوافق هواه ومراده، والآخر يخالفه، وهو يحتاج إلى الصبر في كل منهما. أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها ولا يغترَّ بها ولا تحمله على البطر والأشر[1] والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحُرِمَ الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها.

الرابع: أن يصبر من صرفها في الحرام، فلا يمكّن نفسه من كل ما تريده منها فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السرَّاء إلا الصدِّيقون.

قال بعض السلف: «البلاء يصبرُ عليه المؤمنُ والكافرُ، ولا يَصْبِرُ على العافية إلا

---

(١) البَطَر والأَشَر: الغلو في المرح والزهو، وبطر النعمة: جحودها والكفر بها، وبطر الحق: إنكاره وعدم قبوله.

الصدِّيقون». وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: «ابتلينا بالضرَّاء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[(1)] ولذلك حذَّرَ الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾(المنافقون:٩) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾(التغابن: ١٤) وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة بل إنما هي عداوة المحبة الصادّة للآباء عن الهجرة والجهاد، وتعلُّم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البرِّ كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل حدثنا سِمَاك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ قال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبيَّ ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين همُّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ الآية. قال الترمذي[(2)]: هذا حديث حسن صحيح، وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث: «الولد مَبخلةٌ مجبنةٌ»[(3)] وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد قال: حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثُران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٤)، والضياء في «المختارة» (٩٢٤)، وحسَّنه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي (٣٣١٧)، والحاكم (٢/٤٩٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٦٦٦)، وأحمد (٤/١٧٢)، والحاكم (١٦٤١٣)، والبيهقي (١٠/٢٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٣٢/٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٥)، وصححه البوصيري في «الزوائد» (٤/٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٣٧).

ورفعتهما»[1]. وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

(فصـــــــل) وإنما كان الصبر على السراء شديدًا لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشَّبق[2] عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها.

(فصـــــــل) وأما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إما أن يرتط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أولا يرتبط أولاً باختياره كالمصائب، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه فها هنا ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يرتبط باختياره وهو جميع أفعاله التي توصل بكونها طاعة أو معصية فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما في الصلاة فَلِمَا في طبعها من الكسل وإيثار الراحة ولاسيما إذا اتفق مع العلماء قسوة القلب ورين[3] الذنب..والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة. فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفًا غائب القلب، ذاهلاً عنها طالبًا لفراقها كالجالس إلى الجيفة.

وأما الزكاة فلها في - أي النفس - من الشح والبخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعًا. ويحتاج العبد ها هنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشروع فيها بتصحيح النية والإخلاص وتجنب دواعي الرياء والسمعة،

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٧٤)، والنسائي (١٥٨٤)، وأبو داود (١١٠٩)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وأحمد (٥/٣٥٤)، وابن حبان (موارد /٢٢٣٠)، والبيهقي (٢١٨/٣) من حديث بريدة بن الحصيب وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٠١٦).

(٢) الشَبِقُ: شديد الشهوة.

(٣) الرَّيْنُ: قسوة القلب لاقتراف الذنب بعد الذنب.

وعقد العزم على توفية المأمورية حقها.

الحالـة الثانـية: الصبر حال العمل فيلازم العبد الصبر عن واعي التقصير فيه والتفريط، ويـلازم الصـبر عـلى استصـحاب ذكـر الـنية وعـلى حضور القلب بين يدي المعبود، وأن لا ينسـاه في أمـره، فلـيس الشـأن في فعـل بـل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الأمر حال الإتيان بأمـره، بـل يكـون مستصـحبًا لذكره في أمره. فهذه عبادة العبيد المخلصين لله فهو محتاج إلى الصـبر عـلى توفـية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلى الصبر على استصـحاب ذكـر المعـبود فـيها ولا يشـتغل عنه بعبادته، فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالد الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾(البقرة: ٢٦٤) فليس الشأن الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الـثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها، فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالـث: أن يصـبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية فإن العبد يعمل العمل سـرًا بيـنه وبـين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر، فإن تحدَّث به نقل إلى ديوان العلانية فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

(فصـــــل) وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقـة الأعـوان علـيه في المجالسـة والمحـادة وقطـع العوائـد، فـإن العـادة طبيعة خاصة، فإذا انضـافت الشـهوة إلى العـادة تظاهـر جـندان مـن جـند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما.

(فصـــــل) القسـم الـثاني مـا لا يدخـل تحـت الاختـبار، ولـيس للعبد حيلة في دفعه كالمصـائب الـتي لا صـنع للعـبد فـيها، كموت من يعز عليه وسرقة ماله ومرضه ونحو ذلك، وهذان نوعان :

أحدهما: ما لا صنع للعبد الآدمي فيه.

والثاني: ما أصابه من جهة آدمي مثله كالسب والضرب وغيرهما.

فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات:

أحدهـا: مقـام العجـز وهو مقام الجزع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً ودينًا ومروءة وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر إما لله وإما للمروءة الإنسانية.

المقـام الثالـث: مقام الرضا وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقـام الـرابع: مقـام الشـكر وهـو أعلى من مقام الرضا فإنه يشهد البلية نعمة فيشكر المبتلى عليها.

وأمـا الـنوع الـثاني وهـو مـا أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات، ويضاف إليه أربعة أخر:

أحدها: مقام العفو والصفح.

الـثاني: مقـام سـلامة القلـب من إرادة التشفي والانتقام، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها.

الثالـث: مقـام شهود القدر، وإنه وإن كان ظالمًا بإيصال هذا الأذى إليك فالذي قدَّره علـيك وأجـراه عـلى يد هذا الظالم ليس بظالم وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه،

فالتسخط من أذى الحر والبرد غير حازم، والكل جارٍ بالقدر وإن اختلفت طرقه وأسبابه.

المقام الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسانك، وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله، فإن فات العبد هذا المقام العالي فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها.

(فصـــل) القسم الثالث : ما يكون وروده باختياره فإذا تمكّن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطرار، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها، كما لا حيلة في دفع السُّكْرَ بعد تناول المُسْكِر، فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله، فلما فاته بقى فرضه الصبر عليه في آخره، وأنلا يطيع داعي هواه ونفسه، وللشيطان ها هنا دسيسة عجيبة، وهي أن يخيل إليه أن نيل بعض ما منع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوي، وغايته أن يكون كالتداوي بالخمر والنجاسة، وقد أجازه كثير من الفقهاء، وهذا من أعظم الجهل، فإن هذا التداوي لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه. وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه في هذا الدواء، بل الدواء الدافع لهذا الداء الصبر والتقوى كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(آل عمران: ١٨٦) وقال: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(يوسف: ٩٠) فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه.

فإن قيل: فهل يثاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصيًا مفرّطًا يتعاطى أسبابه، وهل يكون معاقبًا على ما تولد منه وهو غير اختياري له؟

قيل: نعم إذا صبر الله تعالى وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره لأنه جهاد منه لنفسه وهو عمل صالح ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأما عقوبته على ما تولد منه فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه. كما يعاقب السكران على ما جناه في حال سُكْره. فإذا كان السبب محظورًا لم يكن السكران

معذورًا، فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه، لأن اتباعهم له تولد عن فعله، ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كِفْلٌ[1] من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(النحل: ٢٥) وقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾(العنكوت: ١٣).

فإن قِيلَ: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره قيل التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك. فإن كان المتولد متعلقًا بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة. وأن الهدى في ضده كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البيِّنات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(البقرة: ١٥٩-١٦٠).

وهذا ما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين وتحيُّزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفّار من أهل الكتاب والمشركين وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياء وسمعة فهكذا نفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان.

---

(١) الكُفل: النصيب، والضِّعْفُ، والمِثْلُ.

الباب الرابع عشر
في بيان أشق الصبر على النفوس

مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر، وإن فُقِدَا معًا سَهُل الصبر عليه، وإن وجد أحدهما وفُقِدَ الآخر سهل الصبر من وجه وصَعُبَ من وجه، فمن لا داعي له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش، ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شيء وأسهله، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه، ولهذا كان صبرُ السلطان عن الظلم وصبر الشاب عن الفاحشة وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان.

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «عجب ربُك من شابٍّ ليست له صبوة»[1] ولذلك استحق السبعة المذكورون في الحديث الذين يظلهم الله في ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته، فإن صبر الإمام المتسلِّط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدِّق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك وعدم إظهاره للناس من أشقِّ الصبر، ولهذا كانت عقوبة الشيخ

(١) رواه أحمد (١٥١/٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٤٩)، وأبو يعلى (١٧٤٩)، والطبراني في «الكبير»(٣٠٩/١٧)،وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧١)، والقضاعي في«سند الشهاب» (٥٧٦)، وابن عدي في «الكامل» (١٤٧/٤)، من حديث عقبة بن عامر، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦٥٨)، وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١١٦/٢): «إنما هو موقوف»

الزاني والملك الكذّاب والفقير المختال أشد العقوبة؛ لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرَّمات عليهم لضعف دواعيها في حقهم، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلاً على تمردهم على الله وعتوهم عليه.

ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرْج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان؛ كالنميمة والغيبة والكذب والمِرَاء والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه، ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «أمسك عليك لسانك» فقال: «وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟» قال: «وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّار على مناخرِهم إلا حَصَائِدُ ألسنتِهِم»[1] ولاسيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها، ولهذا نجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار، ويتورع من استناده إلى وسادة حرير، لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكُّهِ في أعراض الخلق، وربما رخَّص أهل الصلاح والعلم بالله والدين والقول على اله ما لا يعلم، وكثيرٌ ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة، ولا يبالي بارتكاب الفرج الحرام، كما يحكى أن رجلاً خلا بامرأة أجنبية، فلما أراد مواقعتها قال: يا هذه غطي وجهك فإن النظر إلى وجه الأجنبية حرام!! وقد سأل رجل عبد الله بن عمر عن دمِ البعوض فقال: انظروا إلى هؤلاء يسألون عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ.

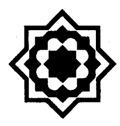
واتفق لي قريب من هذه الحكاية: كنت في حال الإحرام فأتاني قومٌ من الأعراب المعروفين بقتل النفوس والإغارة على الأموال يسألوني عن قتل المُحْرِم القَمْل، فقلت: يا

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، والطبراني في «الأوسط» (٧٥٠٣)، والطيالسي في «مسنده» (٥٦٠)، وعبد بن حميد (١١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٠٦)، من حديث معاذ ﷺ.وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠١٢).

عجبًا لقوم لا يتورعون عن قتل النفس التي حرَّمَ الله قتلها، ويسألون عن قتل القملة في الإحرام.

والمقصود أن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها، ويذكر عن عليٍّ ﷺ أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبرٌ على المعصية وصبرٌ على الطاعة، وصبر عن المعصية» فمن صبر على المعصية حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفًا من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة».. وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المعصية حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية» وقال الفضيل في قوله تعالى ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾(الرعد: ٢٤) ثم قال: صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهوا عنه، وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به والله أعلم.



الباب الخامس عشر
في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز

قال الإمام أحمد رحمه الله: «ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا» أ.هـ ونحن نذكر الأنواع التي سيق فيها الصبر وهي عدة أنواع:

أحدها: الأمر به كقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾(النحل: ١٢٧) ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾(الطور: ١٣٩).

الثاني: النهي عما يضاده كقوله ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾(الأحقاف: ٣٥) وقوله ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾(آل عمران: ١٣٩) وقوله ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾(القلم: ٤٨) وبالجملة فكل ما نهى عنه فإنه يضاد الصبر المأمور به.

الثالث: تعليق الفلاح به كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(آل عمران: ٢٠٠) فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره كقوله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾(القصص: ٥٤) وقوله ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(الزمر: ١٠) . قال سليمان بن القاسم: «كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال: كالماء المنهمر».

الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(السجدة: ٢٤) فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

السادس: ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٤٦) قال أبو علي الدقاق: «فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته».

السابع: أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي الصلاة منه عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(البقرة: ١٥٥-١٥٧) وقال بعض السلف وقد عزى على مصيبة نالته فقال: ما لى لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خِصَال كل خصلة منها خيرٌ من الدنيا وما عليها.

الثامن: أنه سبحانه جعل الصبر عونًا وعدة وأمر بالاستعانة به فقال: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾(البقرة: ٤٥) فمن لا صبر له لا عون له.

التاسع: أنه سبحانه علّق النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾(آل عمران: ١٢٥) لهذا قال النبيﷺ: «واعلم أنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْر» (١).

العاشر: أنه سبحانه جعل الصبر والتقوى جُنَّةً عظيمة من كيد العدو ومكره فما استجن العبد من ذلك جنة أعظم منهما. قال تعالى ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾(آل عمران: ١٢٠).

الحادي عشر: أنه سبحانه أخبر أن ملائكته تسلّم عليهم في الجنة بصبرهم كما قال: ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى

---

(١) رواه أحمد (٣٠٧/١)، والحاكم (٥٤١/٣)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣/١١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٣١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣١٤/١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٥)، وابن عدي في «الكامل» (٦١/٧)، والضياء المقدسي في «المختارة» (١٣)، وصحّحه الحاكم، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٣٤) وفي «ظلال الجنة» (٣١٥).

الثاني عشر: أنه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسمًا مؤكدًا غاية التأكيد أن صبرهم خيرٌ لهم فقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾(النحل:١٢٦) فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التي في الجواب.

الثالث عشر: أنه سبحانه رتَّب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾(هود: ١١) وهؤلاء ثنية الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما.

الرابع عشر: أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(الشورى:٤٣) وقال لقمان لابنه: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(لقمان: ١٧) .

الخامس عشر: أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم وهي الكلمة الحسنى، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر فقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾(الاعراف:١٣٧) .

السادس عشر: أنه سبحانه علَّق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(ال عمران:١٤٦)

السابع عشر: أنه سبحانه أخبر عن خصال الخير أنه لا يلقاها إلا الصابرون، في موضعين من كتابه، في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتوا العلم قالوا للذين

تمنّوا مثل ما أوتي: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾(القصص: ٨٠) وفي سورة حم: السجدة حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيبٌ قريب. ثم قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(فصلت: ٣٥)..

الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبَّار الشكور فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(ابراهيم: ٥)،، وقال تعالى في لقمان ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(لقمان: ٣١) وقال في قصة سبأ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(سبأ: ١٩) وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(الشورى: ٣٢-٣٣) فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن آيات الربِّ إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

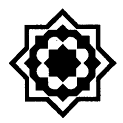
التاسع عشر: أنه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(سورة ص: ٤٤) فأطلق عليه نِعْمَ العبد بكونه وجده صابرًا. وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلى فإنه بئْسَ العبد.

العشرون: أنه سبحانه حكم بالخسران حكمًا عامًا على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾(سورة العصر) ولهذا قال الشافعي: لو فكَّر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم. وذلك أنّ العبد كماله في تكميل قوتيه: قوة العلم وقوة العمل وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي

بالصبر، وآخية ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر.

الحادي والعشرون: أنه سبحانه خصَّ أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصلوا بها غيرهم فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾(البلد: ١٧-١٨) وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام هؤلاء خيرُ الأقسام وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه، ويليه من له صبر ولا رحمة عنده ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له.

الثاني والعشرون: أنه سبحانه قَرَنَ الصبرَ بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها فقرنه بالصلاة كقوله: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وقرنه بالأعمال الصالحة عمومًا كقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ وجعله قرين التقوى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وجعله قرين الحق كقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ وجعله قرين الرحمة كقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ وجعله قرين اليقين كقوله ﴿ لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ وجعله قرين الصدق كقوله ﴿ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ ﴾(الأحزاب: ٣٥) وجعله سبب محبته ومعيته ونصره وعونه وحسن جزائه، ويكفي بعض ذلك شرفًا وفضلاً والله أعلم.



الباب السادس عشر

في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة

في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: اتَّقي الله واصْبري، فقالت: وما تُبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثلُ الموت فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال:«إنَّما الصبر عند أول صدمة» [1] وفي لفظة«عند الصدمة الأولى» وقوله الصبر عند الصدمة الأولى مثل قوله:«ليس الشديد بالصُّرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه وقت الغضب» [2] فإن مفاجئات المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها، فإن صبر للصدمة الأولى انكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر وأيضًا فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطَّنٍ لها فتزعجه وهي الصدمة الأولى. وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطَّن لها وعلم أنه لابد له منها فيصبح صبره شبه الاضطرار، وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدى عليها شيئًا جاءت تعتذر إلى النبيِّ ﷺ كأنها تقول له: قد صبرت، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى.

ويدل على هذا المعنى ما رواه سعيد بن زربي عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ النبيُّ ﷺ على امرأة جاثمة على قبر تبكي، فقال لها: «يا أمة الله اتقي الله واصبري» قالت: يا عبد الله ثَكْلى. قال: «يا أمةَ الله اتقى الله واصبري»، قالت: يا عبد الله لو كنت مصابًا عذرتني، قال: يا أمة الله اتقى الله واصبري. قالت: يا عبد الله قد أسمعت فانصرف

(١) رواه البخاري(١٢٨٣)، ومسلم(٩٢٦)، وأبوداود(٣١٢٤)، والترمذي(٩٨٨)، والنسائي(١٨٦٨) وابن ماجه (١٥٩٦)، وأحمد (١٤٣/٣).

(٢) رواه البخاري(٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٢٦)، وأحمد (٢٣٦/٢، ٢٦٨، ٥١٧)، ومالك في «الموطأ» (٩٠٦/٢)، والبيهقي (٢٣٥/١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عني، فمضى رسول الله ﷺ واتَّبعه رجل من أصحابه فوقف على المرأة فقال لها: ما قال لك الرجلُ الذاهب؟ قالت: قال لي كذا وكذا وأجبته بكذا وكذا. قال: هل تعرفينه؟ قالت: لا. قال: ذلك رسول الله ﷺ . قال: فوثبت مسرعة نحوه حتى انتهت إليه وهي تقول: أنا أصبر أنا أصبر يا رسول الله. فقال: «الصبرُ عند الصدمة الأولى، الصبرُ عند الصدمة الأولى»[1].

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا بشر بن الوليد وصالح الكندي بن مالك قالا: حدثنا سعيد بن زربي فذكره. فهذا السياق يبين معنى الحديث. قال أبو عبيد: معناه أن كل ذي زرية فإن قصاراه الصبر، ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها.

قلت: وفي الحديث أنواع من العلم:

(أحدها) وجوب الصبر على المصائب، أنه من التقوى التي أمر العبد بها.

(الثاني) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن سكر المصيبة وشدتها لا يسقطه عن الآمر الناهي.

(الثالث) تكرار الأمر والنهي مرة بعد مرة حتى يعذر المرء إلى ربه.

(الرابع) احتج به على جواز زيارة النساء للقبور فإنه ﷺ لم ينكر عليها الزيارة وإنما أمرها بالصبر ولو كانت الزيارة حرامًا لبيَّن لها حكمها وهذا كان في آخر الأمر، فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد السنة السابعة، وأجيب عن هذا بأنه ﷺ قد أمرها بتقوى الله والصبر وهذا إنكارٌ منه لحالها من الزيارة والبكاء، ويدل عليه أنها لما علمت أن الآمر لها من تجب طاعته انصرفت مسرعة، وأيضًا فأبو هريرة لم يخبر أنه شهد هذه القصة فلا يدل الحديث على أنها بعد إسلامه، ولو شهدها فلَعْنَتُهُ ﷺ لزائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج

(١) رواه أبو يعلى (٦٠٦٧)، وابن عدي في «الكامل» (٣/٣٦٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/٢)، وفيه أبو عبيدة الناجي، وهو ضعيف» أ.هـ. ولكن الحديث السابق يشهد له، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٥١).

كان بعد هذا في مرض موته، وفي عدم تعريفه لها بنفسه في تلك الحال التي لا تملك فيها نفسها شفقة منه ورحمة بها إذا عرَّفها بنفسه في تلك الحال فربما لم تسمع منه فتهلك وكان معصيتها له وهي لا تعلم أنه رسول الله أخفّ من معصيتها له لو علمت، فهذا من كمال رأفته صلوات الله وسلامه عليه.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أجرْني في مُصيبتي وأخلِفْ لي خيرًا منها، إلا أخلَفَ اللهُ له خيرًا منها. قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إني قلتها فأخلَفَ اللهُ لي رسوله، فأرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إنَّ لي بنتًا وأنا غيور، فقال: أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة، فتزوجت رسول الله ﷺ »[1].

وعند أبي داود في هذا الحديث عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «إذا أصابت أحدكم مصيبة فليقل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي فأجرني فيها وأبدلني خيرًا منها»[2]. فلما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفني في أهلي خيرًا مني، فلما قُبِضَ قالت أم سلمة: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، عند الله أحتسب مصيبتي. فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضاء عن الله إلى ما آلت إليه.وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله.

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عن أبي موسى الأشعري

---

(١) رواه مسلم (٩١٨)، وأبو داود (٣١١٩)، والترمذي (٣٧١١)، وابن ماجه (١٥٩٨).

(٢) رواه أبو داود (٣١١٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٧١)، وأحمد (٣١٣/٦)، والحاكم (١٦١٤)، والبيهقي (١٣١/٧)، وأبو يعلى (٦٩٠٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٤٦/٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية»(٣/٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٥٤/١)، وضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (٢٣٨٩)، و«ضعيف الجامع» (٣٧٦).

قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولدُ العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدَك واسترجعك. فيقول: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد»[١].

وفي صحيح البخاري من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة»[٢] يريد عينيه. وعند الترمذي في الحديث: «إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنَّة»[٣]. وفي الترمذي - أيضًا - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: مَنْ أذهبت حبيبتيه فَصَبرَ واحتَسَبَ لم أرض له ثوابًا دونَ الجنَّةِ»[٤].

وفي سنن أبي داود من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرضى الله لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيِّه من أهل الأرض واحتسبه بثواب دون الجنة»[٥]. وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنَّة»[٦]. وفي صحيحه أيضًا عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنَّة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبيَّ ﷺ فقالت: «يا رسول الله إني أُصْرَع وإنِّي أتكشَّف فادعُ اللهَ

---

(١) رواه الترمذي (١٠٢١)، وأحمد (٤/٤١٥)، وابن حبان (٢٩٤٨)، والبيهقي (٤/٦٨)، والطيالسي (٥٠٨)، وابن المبارك في «الزهد» (١٠٨)، وعبد بن حميد (٥٥١)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٨١٤).

(٢) رواه البخاري (٥٦٥٣)، وأحمد (٣/١٤٤)، وأبو يعلى (٣٧١١)، والبيهقي (٣/٣٧٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٠٠)، وأحمد (٣/٢٨٣)، وأبو يعلى (٤٢٣٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٥٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠١)، وأحمد (٢/٢٦٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٩٦)، و«صحيح الترمذي» (١٩٥٩).

(٥) رواه النسائي في «الجنائز» (١٨٧٠)، وحسَّنه الألباني في «أحكام الجنائز» (٣٤).

(٦) رواه البخاري (٦٤٢٤)، وأحمد (٢/٤١٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٨٦١).

لي. قال: إنْ شئتِ صَبَرتِ ولك الجَنَّة، وإنْ شئت دعوتُ لك اللهَ تعالى أن يُعافيك. فقالت: أصبرُ . فقالت: إنِّي أتكشفُ فادعُ اللهَ أن لا أتكشف. فدعا لها»

وفي الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين، فقال: انظرا ماذا يقول لِعُوَّاده. فإن هو إذ جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم. فيقول: إن لعبدي عليَّ إن توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدله لحمًا خيرًا من لحمه. ودمًا خيرًا من دمه. وأنْ أكفِّرَ عنه سيئاته» [٢] وفي صحيفة عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله : «إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الصبر؟ فيقوم أناس وهم قليلون فينطلقون سِراعًا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعًا إلى الجنة فمن أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل. فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلِمْنَا صبرنا، وإذا أسيء إلينا غفرنا، وإذا جُهِلَ علينا حَلُمْنَا ، فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنِعْمَ أجرُ العاملين» [٣].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قسَّم مالاً، فقال بعض الناس: هذه قسمة ما أريد بها وجهُ الله، فأُخْبِرَ بذلك رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «رَحِمَ الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر» [٤]

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة -رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ : «ما من مصيبة تُصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها» [٥]. وفيهما - أيضًا - من حديث أبى سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦)، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٧/١١)، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٦٦)، وأبو نعيم في «الحلية».

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٩٤٠/٢)، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٤١) عن عطاء مرسلاً.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» (٨٠٨٦) وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٨/٣، ١٣٩)، وقال البيهقي: هذا متن غريب وفي إسناده ضعف.أ.هـ.

(٤) رواه البخاري (٣١٥٠) ومسلم (١٠٦٢) والترمذي (٣٨٩٦) وأحمد (٣٨٠/١، ٣٩٥، ٤١١، ٤٣٥) وابن حبان (٤٨٢٩) والحميدي (١١٠) وأبو يعلى (٥١٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٥) رواه البخاري(٥٦٤١)، ومسلم(٢٥٧٢)، والنسائي في «الكبرى»(٧٤٨٥)، وأحمد(٤٨/٦، ٨٨، ١١٣، ١٢٠)، وابن حبان(٢٩٢)، ومالك في «الموطأ»(٩٤١/٢)، وابن خزيمة في صحيحه(٨٤٩).

يصيب المسم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍّ حتَّى الشوكة يُشاكُها إلا كفَّر اللهُ بها من خطاياه»[1].

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يصيبُ المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحطَّ بها خطيئة»[2]. وفي المسند من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[3]. وفي الصحيح من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ **قال: قلت**: يا رسول الله، أي النَّاس أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإنْ كان في دينه رقة خُفِّفَ عنه. وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»[4]

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: دخلت على النبيِّ ﷺ وهو يوعك وعكًا شديدًا، قال: فقلت: «يا رسول الله إنَّك لتوعك وعكًا شديدًا قال: أجل إني لأوعك كما يوعك رجلان منكم. قلت: إن لك لأجرين. قال: نعم. والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذًى من مرض فما سواه إلا حطَّ الله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة ورقها»[5]. وفي الصحيحين - أيضًا - من حديث عائشة - رضى الله عنها - قالت: «ما رأيت

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)، والترمذي (٣٠٣٨)، وأحمد (٣٠٣/٢، ٣٣٥)، وابن حبان (٢٩٠٥)، والحميدي (١١٤٨)، وسعيد بن منصور (٦٩٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٢) (٤٧)، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٨٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٩٩)، وأحمد (٢٨٧/٢)، والحاكم (٣٤٦/١)، وقال الترمذي: «حسن صحيح» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «جامع الترمذي» (١٩٥٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه(٤٠٢٣)، وأحمد (١٧٢/١، ١٧٤، ١٨٠)، والدارمي (٢٧٨٣)، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥١٠)، والطبراني في «الأوسط» (٩٠٤٧)، والبيهقي (٢٧٢/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٧٠/١)، من حديث أبي سعيد، وقال البوصيري في «الزوائد» (١٨٨/٤) : «إسناده صحيح ورجاله ثقات»أ.هـ. والحديث صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٥٦).

(٥) رواه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١)، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٨٣)، والدارمي (٢٧٧١)، وابن حبان (٢٩٣٧)، والبيهقي (٣٧٢/٣).

الوجع أشد منه على رسول الله ﷺ »[1]

وفي بعض المسانيد مرفوعًا: إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يُبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك[2]. ويروى عن عائشة - رضى الله عنها - عنه ﷺ : «إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب كما يُخلّص الكيرُ الخبث من الحديد»[3]. وفي صحيح البخارى من حديث خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة. فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدُّه ذلك عن دينه. والله ليتمَّنَّ هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[4].

وفي لفظ للبخاري: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمرٌّ وجهه، فقال: «لقد كان الرجل ليمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدُّه ذلك عن دينه»[5].

وقد حمل أهل العلم قول خباب: «شكونا إلى رسول الله ﷺ حرَّ الرمضاء فلم يشكنا»[6] على هذا المحمل، وقال: شكوا إليه حر الرمضاء الذي كان يصيب جباههم

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠)، والترمذي (٢٣٩٧)، والنسائي في «الكبرى» (٧٠٨٧)، وابن ماجه (١٦٢٠)، وأحمد (١٨١/٦)، وابن حبان (٢٩١٨).

(٢) رواه ابن حبان (٢٨٩٧)، والحاكم (٣٤٤/١)، والبيهقي في «الشعب» (٩٨٥٥)، وهناد في «الزهد» (٤٠٠) من حديث أبي هريرة ﷺ وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (١٥٩٩).

(٣) رواه ابن حبان (٢٩٣٦)، والبخاري في «الأدب» (٤٩٧)، وعبد بن حميد (١٤٨٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٠٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥٨/٢٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٢٥٧).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٢)، والنسائي (٥٣٣٥)، وأحمد (١٠٩/٥، ١١٠)، وأبو يعلى (٧٢١٣)، والطبراني في «الكبير» (٦٢/٤).

(٥) رواه البخاري (٦٩٤٣)، وأبو داود (٢٦٤٩).

(٦) رواه مسلم (٦١٩)، والنسائي (٤٩٦)، وابن ماجه (٩٧٥)، وأحمد (١٠٨/٥، ١١٠).

وأكفهم من تعذيب الكفار فلم يشكهم، وإنما دلَّهم على الصبر.

وهـذا الوجه أنسب من تفسير مَنْ فسَّر ذلك بالسجود على الرمضاء، واحتج به على وجوب مباشرة المصلي بالجبهة لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه لا دليل في اللفظ على ذلك.

الثاني: أنهـم قد أخبروا أنهم كانوا مع النبيِّ ﷺ فكان أحدهم إذا لم يستطع أن يسجد على الأرض يبسط ثوبه فيسجد عليه[1]، والظاهر أن هذا يبلغه ويعلم به. وقد أقرهم عليه.

الثالث: أن شدة الحر في الحجاز تمنع من مباشرة الجبهة والكف للأرض بل يكاد يشوى الوجه والكف، فلا يتمكن من الطمأنينة في السجود، ويذهب خشوع الصلاة ويتضرر البدن ويتعرض للمرض، والشريعة لا تأتي بهذا، فتأمل رواية خباب لهذا والذي قبله، واجمع بين اللفظين والمعنيين، والله أعلم، ولا تستوحش من قوله: «فلم يشكنا» فإنه هو معنى إعراضه عن شكايتهم وإخبارهم لهم بصبر من قبلهم، والله أعلم.

وفي الصحيح من حديث أسامة بن زيد قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أنَّ ابنًا لي احتضر فأتنا، فأرسل يُقْرِيها السلام ويقول: إنَّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلّ شيء عنده بأجلٍ مسمًّى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تُقْسِمُ عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع الصبيُّ إلى رسول الله ﷺ فأقعده في حجره ونفسه تقعقع كأنها شنّ، ففاضت عيناه فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم اللهُ من عباده الرحماء»[2].

وفي سنن النسائي عن ابن عباس قال: احتضرت ابنةٌ لرسول الله ﷺ صغيرة فأخذها

(١) رواه البخاري(٣٨٥)، ومسلم (٦٢٠)، وأبو داود(٦٦٠)، والترمذي (٥٨٤)، والنسائي(١١١٥)، وابن ماجه (١٠٣٣)، وأحمد (٣/١٠٠)، من حديث أنس ﷺ.

(٢) رواه البخاري(١٢٨٤)، ومسلم(٩٢٣)، والنسائي(١٨٦٧)، وابن ماجه(١٥٨٨)، وأحمد(٥/٢٠٤).

رسول الله ﷺ وضمَّها إلى صدره ثم وضع يده عليها وهي بين يدي رسول الله ﷺ فبكت أمُّ أيمن فقلت لها: أتبكين ورسول الله ﷺ عندك؟ فقالت: ما لى لا أبكي ورسول الله ﷺ يبكي، فقال رسول الله ﷺ : «إنِّي لست أبكي ولكنها رحمة، ثم قال رسول الله ﷺ : المؤمن بخير على كل حال، تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عزَّ وجلَّ»

وفي صحيح البخاري من حديث أنس ﷺ قال: اشتكى ابنٌ لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيَّأت شيئًا وسجته في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، فظنَّ أبو طلحة أنها صادقة، قال: فبات معها، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلَّى مع رسول الله ﷺ ثم أخبره بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ : لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما[2]، قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن، وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد قال: «هلكت امرأة لي فأتاني محمدٌ بن كعب القرظي يعزِّيني فيها، فقال: إنه قد كان في بني إسرائيل رجلٌ فقيه عابد عالم مجتهد وكانت له امرأة وكان بها معجبًا، فماتت فوَجَدَ عليها وجدًا شديدًا حتَّى خلى في بيت وأغلق على نفسه واحتجب عن الناس، فلم يكن يدخل عليه أحد، ثم إنَّ امرأة من بني إسرائيل سمعت به فجاءته فقالت: إنَّ لي إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزيني إلا أن أشافهه بها، فذهب الناس ولزمت الباب، فأخبر فأذن لها فقالت: أستفتيك في أمر، قال: وما هو؟ قالت: إني استعرت من جارة حليًا فكنت ألبسه وأعيره زمانًا، ثم إنها أرسلت إلي فيه أفأردُّه

(١) رواه النسائي (١٨٤٢)، والترمذي في «الشمائل» (٣١٠)، وأحمد (٢٦٨/١، ٢٧٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٣٢).
(٢) رواه البخاري (١٣٠١)، ومسلم (٢١٤٤، ٢٣)، وأحمد (١٠٥/٣، ١٨١، ١٩٦)، وابن حبان (٧١٨٧)، وأبو يعلى (٣٨٨٢)، والطيالسي (٢٠٥٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٧٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٧/٢).

إليها؟ قال: نعم. قالت: والله إنَّه مكثَ عندي زمانًا، فقال: ذلك أحقُّ لردك إياه. فقالت له: يرحمك الله، أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك؟ فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها»[1].

وفي جامع الترمذي عن شيخ من بني مُرَّة قال: قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبي بردة، فقتل: إن فيه لُمعتبرًا، فأتيته وهو محبوس في داره التي كان بنى، وإذا كل شيء منه قد تغيَّر من العذاب والضرب، وإذا هو في قُشاشٍ، فقلت له: الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك أنفك من غير غبار وأنت في حالتك هذه، فكيف صبرك اليوم؟ فقال: ممن أنت؟ قلت: من بني مرة بن عباد. قال: ألا أحدثك حديثًا عسى أن ينفعك الله به؟ قلت: هات. قال: حدثني أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُصيبُ عبدًا نكبةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر» قال: وقرأ: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[2].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: كأني أنظر إلي رسول الله ﷺ يحكى أن نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدمَ عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[3]. فتضمنت هذه الدعوة العفوَ عنهم والدعاءَ لهم والاعتذار عنهم والاستعطافَ بقوله: «لقومي»، وفي الموطأ من حديث عبد الرحمن بن القاسم قال: قال رسول الله ﷺ « لِيُعَزِّ المسلمين في مصائبهم المصيبةُ بي»[4] . وفي الترمذي من حديث يحيى

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١/٢٣٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٥٢)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٠٩).

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢)، وأحمد (١/٣٨٠، ٤٢٧)، وابن ماجه (٤٠٢٥)، وابن حبان (٦٥٧٦)، وأبو يعلى (٥٠٧٢).

(٤) رواه مالك في «الموطأ» (١/٢٣٦)، عن القاسم بن محمد مرسلاً ، وقد صححه الألباني في «الصحيحة» (١١٠٦) لشواهده.

ابن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم»[1] أعظم أجرًا من المؤمن الذى لايخالط الناس ولا يصبر على أذاهم. قال الترمذى: كان شعبة يرى أن الشيخ ابن عمر.

وفي الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «ما أُعْطِىَ عطاءٌ خيرٌ وأوسعُ من الصبر»[2] وفى بعض المسانيد عنه ﷺ أنه قال: ﷺ «إذا وجَّهْتُ إلى عبد من عبادى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييتُ منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانًا أو أنشر له ديوانًا»[3].

وفى جامع الترمذى عنه ﷺ : «إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[4]. وفى بعض المسانيد عنه ﷺ مرفوعًا: «إذا أراد الله بعبد خيرًا صبَّ عليه البلاء صبًّا»[5]. وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله دخل على امرأة فقال:«مالك تزفزفين؟ قالت: الحمى لا بارك الله فيها. قال: لا تسبى الحمى فإنها تُذهِب خطايا بنى آدم كما يذهب الكيرُ خَبَثَ الحديد»[6].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه(٤٠٣٢)، وأحمد(٤٣/٢)، والطبراني في «الأوسط»(٥٩٥٣)، والبيهقي (٨٩/١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٦٥/٧)، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٢٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (١٥٠/٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٦٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أنس ﷺ ، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٠٤٤).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وأحمد (٤٢٧/٥) ، من حديث محمود بن لبيد، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٤٦).

(٥) ذكره المنذري في «الترغيب» (١٤٢/٤) والديلمي في «الفردوس» (٩٧٢) وعزاه العجلوني في «كشف الخفا» (٨٠/١) للطبراني.

(٦) رواه مسلم (٢٥٧٥)، وابن حبان (٢٩٣٨)، وأبو يعلى (٢٠٨٣)، والبيهقي (٣٧٧/٣).

ويذكر عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من وعك ليلة فصبر ورضى عن الله تعالى خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1]. وقال الحسن: إنه لَيُكفِّرُ عن العبد خطاياه كلها بحمى ليلة وفي المسند وغيره عن أبي سعيد الخدرى قال:

ﷺ وهو محموم فوضعت يدى من فوق القطيفة فوجدت حرارة الحمى. فقلت: ما أشد حماك يا رسول الله! قال: إنا كذلك معاشر الأنبياء يضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر قال: قلت يا رسول الله فأى الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء قلت ثم من؟ قال: الصالحون إن كان الرجل ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباء فيجوبها فيلبسها وإن كان الرجل ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم [2].

وقال عقبة بن عامر الجهنى: قال رسول الله ﷺ: «ليس من عمل إلا وهو يختم عليه فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته عن العمل فيقول الرب تعالى: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»[3]. وقال أبو هريرة: إذا مرض العبد المسلم نودى صاحب اليمين أن أجر على عبدى صالح ما كان يعمل وهو صحيح، ويقال لصاحب الشمال: أقصر عن عبدى ما دام في وثاقي. فقال رجل عند أبي هريرة: يا ليتني لا أزال ضاجعًا، فقال أبو هريرة: كره العبد الخطايا ذكره ابن أبي الدنيا.

وذكر - أيضًا - عن هلال بن بساق قال: كنا قعودًا عند عمار بن ياسر فذكروا

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٩٨٦٨)، من حديث أبي هريرة، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٥٦).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٢٤)، وأحمد (٣/٩٤)، والبيهقي (٣/٣٧٢)، وقال البوصيري في «الزوائد» (٤/١٨٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وله شاهد من حديث مصعب بن سعد عن أبيه» رواه الترمذي، وقال: «حسن صحيح». أ.هـ. والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٤).

(٣) رواه أحمد (٤/١٤٦)، والحاكم (٤/٣٠٨) وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢/٣٠٣) وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام». أ.هـ. ثم ساق الهيثمي عدة شواهد للحديث يرتقي بها لدرجة الصحيح لغيره. والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع»(٥٣٠٨)، و«الصحيحة» (٢١٩٣).

الأوجاع فقال أعرابي: ما اشتكيت قط فقال عمار: ما أنت منا أو لست منا إن المسلم يبتلى بلاء فتحط عنه ذنوبه كما يحط الورق من الشجر وإنَّ الكافر أو قال الفاجر يبتلى ببلية فمثله مثل البعير إن أُطلقَ لم يَدْرِ لِمَ أطلق وإن عُقِلَ لَمْ يَدْرِ لِمَ عُقِلَ. وذكر عن أبي معمر الأزدي قال: كنا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئا نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا، فقال لنا ذات يوم: ألا إن السقم لا يكتب له أجر فساءنا ذلك وكبر علينا فقال: ولكن يكفر به الخطيئة، فسرنا ذلك وأعجبنا.

وهذا من كمال علمه وفقهه ﷺ فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما تولد منها كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة التوبة في قوله في المباشر من الإنفاق وقطع الوادي ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم ﴾(التوبة: ١٢١) وفي المتولد من اصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾(التوبة: ١٢٠). فالثواب مرتبط بهذين النوعين وأما الأسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾(الشورى: ٣٠) والنبي إنما قال في المصائب «كفر الله بها من خطاياه» كما تقدم ذكر الفاظه وكذا قوله «المرض حطة». فالطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات، ولهذا قال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه»[١]. وقال ﷺ: «مَنْ يُرِد الله به خيرًا يُفَقِّهُه في الدين»[٢] فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه.

وقال يزيد بن ميسرة: إن العبد ليمرض المرض وما له عند الله من عمل خير فيذكره الله سبحانه بعض ما سلف من خطاياه فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله فيبعثه الله إن بعثه مطهرًا أو يقبضه إن قبضه مطهرًا، ولا يرد على هذا حديث أبي

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٧٨)، وأحمد (٢/٢٣٧)، ومالك في «الموطأ» (٢/٩٤١)، وابن حبان (٢٩٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (٩٠٣٧)، وابن ماجه (٢١١)، وأحمد (٤/١٠١)، والدارمي (٢٢٤)، من حديث معاوية ﷺ ورواه الترمذي (٢٦٤٥)، وأحمد (١/٣٠٦)، والدارمي (٢٢٥)، من حديث ابن عباس ﷺ.

موسى الأشعرى ﷺ في ثواب من قبض الله ولده وثمرة فؤاده بأن يبنى له بيتا في الجنة ويسميه بيت الحمد.

وقال زياد بن زياد مولى ابن عباس ﷺ وعن أصحاب النبي ﷺ قال: «دخلنا على النبي ﷺ وهو ممعوك ـ أى محموم ـ فقلنا: أحْ أحْ بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، ما أشد وعكك! قال: إنَّا معاشِرَ الأنبياء يُضاعف علينا البلاء تضعيفًا. قال: قلنا سبحان الله! قال: أفعجبتم؟ إن كان النبي ﷺ من الأنبياء ليقتله القمل. قلنا: سبحان الله! قال: أفعجبتم؟ إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل. قلنا: سبحان الله! قال: أفعجبتم؟ إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء»[1]

أحْ بالحاء المهملة هو المعروف من كلامهم، ومن قال بالخاء المعجمة فقد غلط، وذكر النسائى عن عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة قالت: «أتيت النبي ﷺ في نسوة نعوده فإذا سقاء معلقة يقطر ماؤها من شدة ما كان يجد من الحمى، فقلنا: لو دعوتَ الله يا رسول الله أن يُذهِبَها عنك، فقال: إنَّ أشدَّ النَّاس بلاءً الأنبياءُ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[2].

وقال مسروق عن عائشة رضى الله عنها: «ما رأيت أحدًا أشد وجعًا من رسول الله ﷺ كان يُشَدَّد عليه إذا مَرِضَ حتى إنه لربما مكث خمس عشرة لا ينام. وكان يأخذه عرق الكُلْيَة وهو الخاصرة، فقلنا: يا رسول الله لو دعوتَ الله فيكشف عنك. قال: إنّا معاشر الأنبياء يشدد علينا الوجع لِيُكَفِّر عنا»[3].

وفي المسند والنسائى من حديث أبى سعيد قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت هذه الأمراض التى تصيبنا ما لنا بها؟ قال: كفارات. فقال أُبَيّ بن كعب: يا رسول الله وإنْ قَلَّت؟ قال: شوكة فما فوقها. قال: فدعا أُبَيّ على نفسه عند ذلك أنْ لا يُفَارِقَه الوعكُ حتى يموت

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (٧٤٩٦) وأحمد (٦/٣٦٩) والحاكم (٤/٤٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/٢٤٥)والبيهقي في «الشعب» (٩٧٧٦) وقال الهيثمي في المجمع (٢/٢٩٢): وإسناد أحمد حسن».أ.هـ.
(٣) روى شطره الأول أبو يعلى (٤٥٣٦) ورواه بنحوه (٤٧٦٩) وقال الهيثمي في «المجمع»(٢/٢٩٤): «رواه أبو يعلى وفيه محمد بن إسحق وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات».أ.هـ.

ولا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله وصلاة مكتوبة في جماعة، قال: فما مسَّ رجلٌ جِلْدَه بعدها إلا وَجَدَ حرَّها حتى مات»[1]. وقال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طُلُقًا أو اكْفُتْهُ إلى ناقة طُلُق»[2] بضم الطاء واللام إذا حل عقالها. ويقال: كفته إليه إذا ضمه إليه. ذكره ابن أبي الدنيا.

وذكر - أيضًا - عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لَيُجَرِّب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز فذلك الذى نجاه الله من السيئات، ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك فذلك الذى يشك بعض الشك، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود فذلك الذى قد افتتن»[3]. وذكر - أيضًا - من مراسيل الحسن البصرى عن النبي ﷺ: «إن الله ليكفِّرُ عن المؤمن خطاياه كلها بحمَّى ليلة»[4].

قال ابن أبي الدنيا: قال ابن المبارك: هذا من الحديث الجيد. قال: وكانوا يرجون في حمى ليله كفارة ما مضى من الذنوب.

وذكر عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل على رجل وهو يشتكى فقال: «قل اللهم إنى أسألك تعجيل عافيتك وصبرًا على بليَّتك وخروجًا من الدنيا إلى رحمتك»[5]. وقالت عائشة

---

(١) رواه أحمد (٣/٢٣)،والحاكم (٤/٣٠٨)، وابن حبان (٢٩٢٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٧٠)، وحسَّنه الحافظ في «الإصابة» (٣٢) في ترجمة أبيٍّ بن كعب ﷺ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/١١، ٣٠٢): «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجاله ثقات».أ.هـ.

(٢) رواه أحمد (٢/٢٠٣)، والبيهقي (٣/٣٧٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/٣٠٣): «إسناده صحيح، وقال الألباني في «الصحيحة» (٣/٢٣٣): «إسناده حسن».

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (٨/١٦٦)، والحاكم (٤/٣١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٢٤)، والديلمي في «الفردوس» (٥٨٦)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٩١): «رواه الطبراني في «الكبير» وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف».أ.هـ.

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» (٩٨٦٥) موقوفًا على الحسن، ثم رواه برقم (٩٨٦٦) مرسلاً.

(٥) رواه ابن حبان (٩٢٢)، والحاكم (١/٥٢٢)، والطبراني في «الأوسط» (٩٦٩)، والقضاعي في

رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ : «إن الحُمَّى تَحُطُّ الخطايا كما تحط الشجرة ورقها»[1] وقال أبو هريرة وقد عاد مريضًا فقال له: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ يقول: هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة»[2].

وقال مجاهد: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾(مريم: ٧١) وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذى في القرآن؛ فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعًا وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده كلهم بورود النار، فالحمى للمؤمن تكفر خطاياه فيسهل عليه الورود يوم القيامة فينجو منها سريعًا، والله أعلم.

ويدل عليه حديث أبى ريحانة عن النبي ﷺ : «الحمى كِيرٌ من كير جهنم، وهى نصيب المؤمن من النار»[3]. وقال أنس ﷺ : قال رسول الله ﷺ : «مثل المؤمن إذا برأ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها»[4] ذكره ابن أبى الدنيا.

«مسند الشهاب» (١٤٧٠)، وابن عدي في «الكامل» (٢٢٠/٣)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٧٠)، وفي «الضعيفة» (١٧٥٦).

(١) رواه ابن قانع في «معجم الصحابة»(٣/١) عن أسد بن كرز، وقال الهيثمي في «المجمع»(٣٠١/٢): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وإسناده حسن»أهـ، وقد ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٧٩٤)، و«الضعيفة» (٢٥٣١).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٨٨)، وابن ماجه (٣٤٧٠)، وأحمد (٤٤٠/٢)، والحاكم (٣٤٥/١)، والبيهقي (٣٨١/٣)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد» (٦١/٤) : «هذا إسناد صحيح ، ورجاله موثقون».أ.هـ.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٣٩/٤)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٣٤٥/١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٣٦٠/٦)، من حديث أبي ريحانة.
ورواه أحمد (٢٥٢/٥، ٢٦٤)، والطبراني في «الكبير» (٩٣/٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩٨٤٣)، والروياني في «مسنده» (١٢٦٩)، من حديث أبي أمامة بنحوه، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٨٣)، و«الصحيحة» (١٨٢٢).

(٤) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥١٦٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٨٤١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣١٨/٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٠٣/٢): «رواه البزار والطبراني في «الأوسط» وفيه الوليد بن محمد الموقري وهو ضعيف».أ.هـ.

وذكر - أيضًا - عن أبي أمامة يرفعه: «ما من مسلم يُصرَع صرعةً من مرض إلا بُعِثَ منها طاهرًا»(١). وذكر عنه ﷺ : «مثل المؤمن حيث يصيبه الوعك مثل الحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها»(٢) وذكر - أيضًا - عنه مرفوعًا: «إن العبد إذا مرض أوحى الله إلى ملائكته: يا ملائكتي، أنا قيدت عبدى بقيد من قيودي فإن أقبضه أغفر له وإن أُعافِهِ فجسدٌ مغفور لا ذنب له»(٣).

وذكر عن سهل بن أنس الجهني عن أبيه عن جده قال: دخلت على أبي الدرداء في مرضه فقلت: يا أبا الدرداء، إنا نحب أن نصحَّ ولا نمرض، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الصداع والمليلة لا يزالان بالمؤمن وإن كان ذنبه مثل أحد حتى لا يدعان عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل»(٤) المليلة: فعيلة من التململ، وأصلها من المَلَّة التي يخبز فيها.

وقالت أم سلمة عن النبي ﷺ : «ما ابتلى الله عبدًا بلاءً وهو على طريق يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء له كفارة وطهورًا ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله أو يدعو غير الله بكشفه»(٥) وقال عطية بن قيس: مرض كعب فعاده رهط من أهل دمشق فقالوا: كيف

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»(٨/٩٧)، والبيهقي في «الشعب»(٩٩٢٢)، والروياني في «مسنده» (١٢٧٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧١٩).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/٣٧٤)، والروياني في «المسند» (١٥٣٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/٥٩)، والحاكم (١/٣٤٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (٨/١٦٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٢٣)، والحاكم (٤/٣١٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/٢٩١): «وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف».أهـ. والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٦١١) لشواهده.

(٤) رواه أحمد (٥/١٩٩)، وأبو يعلى (٦١٥٠)، وابن عدي في «الكامل» (٤/١٠٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/٣٠١): «رجاله ثقات». أ.هـ. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٨٥)، و«الضعيفة» (٢٤٣٣).

(٥) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/١٤١)، وقال: «رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات، وأم عبد الله بن أبي ذئاب- الراوية عن أم سلمة لم أعرفها.أهـ.

تجدك يا أبا إسحاق؟ قال: «بخير جسد أخذ بذنبه إن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه، وإن بعثه بعثه خلقًا جديدًا لا ذنب له». وقال سعيد بن وهب: «دخلنا مع سلمان الفارسى على رجل من كندة نعوده فقال سلمان: إن المسلم يبتلى فيكون كفارة لما مضى ومستعْتَبًا فيما بقى، وإن الكافر يبتلى فمثله كمثل البعير أطلق فلم يَدْرِ لِمَ أُطلِقَ وعُقِلَ فلَمْ يَدْرِ لِمَ عُقِل».

وذكر - أيضًا - عن أبى أيوب الأنصارى قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار وأكَبَّ عليه فسأله فقال: يا نبى الله، ما غمضت منذ سبع، فقال رسول الله ﷺ: «أى أخى، اصبر، أى أخى اصبر تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها» ثم قال رسول الله ﷺ: «ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا»[(١)].

وفي النسائى من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأعرابى: «هل أخذتك أم مِلْدَم؟ قال: يا رسول الله، وما أم ملدم؟ قال: حرٌّ يكون بين الجلد والدم. قال: ما وجدت هذا. قال: يا أعرابى، هل أخذك الصداع؟ قال: يا رسول الله، وما الصداع؟ قال: عِرْقٌ يضرب على الإنسان في رأسه. قال: ما وجدت هذا. فلما ولَّى قال رسول الله ﷺ: مَنْ أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا»[(٢)]. وقالت أم سليم: مرضت فعادنى رسول الله ﷺ فقال: «يا أم سليم، أتعرفين النار والحديد وخبث الحديد؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: أبشرى يا أم سليم، فإنك إن تخلصى من وجعك هذا تخلصى منه كما تخلص الحديدَ النارُ من خبثه»[(٣)]. وخرج بعض الصحابة زائر لرجل من إخوانه فبلغه أنه شاكٍ قبل أن يدخل عليه فقال: أتيتك زائرًا وأتيتك عائدًا ومبشرًا. قال: كيف جمعت هذا؟ قال:

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٩٩٢٥)، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٢٠٨)، و«الضعيفة» (٣٦٨٠): ضعيف جدًا.

(٢) رواه أحمد (٢/٣٣٢)، والحاكم (١/٣٤٧)، وابن حبان (٢٩١٧)، وأبو يعلى (٦٥٥٦)، والبخاري في الأدب (٤٩٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (٢/٢٩٤): إسناده حسن.اهـ.

(٣) لم أجده بلفظه، وأورده الهيثمي بنحوه في «المجمع» (٢/٣٠٧) وقال: رواه الطبراني فى «الكبير» ورجاله رجال الصحيح. وانظر «الصحيحة» للألبانى (٧١٤).

خرجت وأنا أريد زيارتك فبلغني شكاتك فصارت عيادة، وأبشرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ قال: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها - أو قال: لم ينلها بعمله - ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله ثم صبَّره حتى يبلِّغه المنزلة التي سبقت له من الله ﷻ»(١).

وقال الحسن، وذكر الوجع: أما والله ما هو بشَرِّ أيام المسلم، أيام نورت له فيها مراحله، وذكر فيها ما نسي من معاده، وكُفِّر بها عنه من خطاياه. وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس.

وقال أنس بن مالك ﷺ : انتهى رسول الله ﷺ إلى شجرة فهزها حتى سقط من ورقها ما شاء الله ثم قال: «المصائب والأوجاع في إحباط ذنوب أمتي أسرع مني في هذه الشجرة»(٢). وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة ﷺ يرفعه: «ما من مسلم إلا وكّل الله به ملكين من ملائكته لا يفارقانه حتى يقضي الله بأمره بإحدى الحسنيين: إما بموت وإما بحياة، فإذا قال له العواد: كيف تجدك؟ قال: أحمد الله، أجدني - والله المحمود - بخير، قال له الملكان: أبشر بدم هو خير من دمك وصحة هي خير من صحتك. وإن قال: أجدني مجهودًا في بلاء شديد، قال له الملكان: أبْشِرْ بدم هو شرٌّ من دمك وبلاء أطول من بلائك»(٣).

ولا يناقض هذا قول النبي ﷺ في وجعه: وا رأساه!(٤) وقول سعد: يا رسول الله، قد

---

(١) رواه أحمد (٥/٢٧٢)، وأبو يعلى (٩٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٩٨٥٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/٤٧٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤١٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٤٠)، و«الضعيفة» (٢٥٦٣).

(٢) رواه أبو يعلى (٤٢٩٩)، والبيهقي في «الشعب» (٩٨٦٤)، وابن عدي في «الكامل» (٣/١٨٦)، وقال الهيثمي في « المجمع» (٢/٣٠): وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف.أهـ. قلت: وفيه أيضًا زياد بن عبد الله النميري، ضعَّفه ابن معين، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به. وانظر «الجرح والتعديل» (٣/٥٣٦)، وقال الحافظ في «التقريب» (٢٠٨٧): «ضعيف».

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» (٩٩٤٠).

(٤) رواه البخاري في «كتاب المرضى» باب: قول المريض إني وجع، أو و ارأساه، أو اشتد بي الوجع (٥٦٦٦)، ورواه أيضًا النسائي في «الكبرى» (٧٠٧٩)، وابن ماجه (١٤٦٥)، وأحمد (٦/٢١٩، ٢٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

اشتد بى الوجع وأنا ذو مال[1]. وقول عائشة: وا رأساه. فإن هذا إنما قيل على وجه الإخبار لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العُوَّاد، فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعِلَّته لم يكن شكوى منه، وإن أخبر بها تبرمًا وتسخُّطًا كان شكوى منه؛ فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها، وقد يعاقب بالنية والقصد.

وقال ثابت البناني: انطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوده، فخرج إلينا ابنه وقال: هو مبطون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه، فقال الحسن: إن أباك إن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه خير من أن يأكله التراب.

وقال ثابت أيضًا: دخلنا على ربيعة بن الحارث نعوده وهو ثقيل فقال: إنه مَنْ كان في مثل حالتى هذه ملأت الآخرة قلبه كانت الدنيا أصغر في عينيه من ذباب. ويذكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[2]. ويذكر عنه ﷺ :«لا تُرَدُّ دعوة المريض حتى يبرأ»[3].

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود ﷺ قال: «كنت مع رسول الله ﷺ جالسًا فتبسم فقلنا: يا رسول الله، مِمَّ تبسمت؟ قال: تعجُّبًا للمؤمن من جزعه من السقم، ولو كان يعلم ما له في السقم أحب أن يكون سقيمًا حتى يلقَى الله. ثم تبسم ثانية ورفع رأسه إلى السماء، قلنا يا رسول الله، مِمَّ تبسمت ورفعت رأسك إلى السماء؟ قال: عجبت من ملكين نزلا من السماء يلتمسان عبدًا مؤمنًا كان في مُصَلاَّه يصلى فلا يجداه، فعرجا إلى الله فقالا: يا رب،

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٠٩)، ومسلم (١٦٢٨)، وأبو داود (٢٨٦)، والترمذي (٢١١٦)، والنسائي (٣٦٢٨)، وابن ماجه (٢٧٠٨).

(٢) رواه الطبراني في «الصغير» (٣١٤/١)، وابن عدي في «الكامل» (٢٤٢/١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٩٧/٢): «رواه أحمد والطبراني في : الصغير والأوسط، وأبو داود ، ضعيف جدًا، وفي إسناد الطبراني إبراهيم بن الحكم بن إبان وهو ضعيف أيضًا».أ.هـ. والحديث ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٧٠٢) وقال: ضعيف جدًا.

(٣) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٤٢٠/١) برقم (٩٠٩) وإسناده ضعيف جدًا، وعزاه السيوطي في «الجامع الصغير» للديلمي، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٧٥١): موضوع.

عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل في يوم وليلة كذا وكذا، فوجدنا قد حبسته في حبالك فلم نكتب له شيئًا من عمله، فقال: اكتبوا لعبدى عمله الذى كان يعمله في يومه وليلته ولا تنقصوا منه شيئًا فعلَيَّ أجر ما حبسته وله أجر ما كان يعمل»(١).

ويذكر عنه ﷺ : «من وعك ليلة فصبر ورضى بها عن الله ﷻ خرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه»(٢). ومن مراسيل يحيى بن كثير قال: فقد رسول الله ﷺ سلمان فسأل عنه فأُخبر أنه عليل فأتاه يعوده فقال: «شفى الله سُقمك وعظَّم أجرك وغفر دنبك ورزقك العافية في دينك وجسمك إلى منتهى أجلك، إن لك من وجعك خلالاً ثلاثًا: أما الأولى فتذكرة من ربك يذكرك بها، وأما الثانية فتمحيص لما سلف من ذنوبك، وأما الثالثة فادع بما شئت فإن المبتلى مجاب الدعوة»(٣).

وقال زياد بن الربيع: قلت لأُبيّ بن كعب: آية من كتاب الله قد أحزنتنى. قال: ما هى؟ قلت: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾(النساء: ١٢٣) قال: ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت: ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله فقال النبي ﷺ : يا عائشة هذه معاتبة الله تعالى لعبده بما يصيبه من الحمى والمليله والشوكة وانقطاع شسعه(٤)، حتى البضاعة يضعها في كُمِّه فيفقدها فيفزع لها فيجدها في ضبنه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير»(٥). ضبن الإنسان: ما تحت يده، يقال:

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده (٣٤٧)، والطبراني في «الأوسط» (٢٣١٧) مختصرًا، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٠٤/٢): «وفيه محمد بن أبي عيد ، وهو ضعيف جدًا»اهـ. ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٦٨٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الحاكم مختصرًا إلى قوله «منتهى أجلك» ورواه الخطيب في «وضح أوهام الجمع والتفريق» (٢ /٣٢٣) موصولاً به.

(٤) الشَّسْعُ: سير من جلد يمسك النعل بأصابع القدم، والجمع : أشْسَاعٌ، وشُسُوعٌ.

(٥) رواه الترمذي(٢٩٩١)، وأحمد (٢١٨/٦)، والطيالسي(١٥٨٤)، والبيهقي في «الشعب»(٩٨٠٩)،

اضطبن كذا إذا حمله تحت يده. وقال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء.

وفي بعض كتب الله سبحانه: «إن الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه وإنه ليحبه، لينظر كيف تضرعه إليه».

وقال كعب: أجد في التوراة: «لولا أن يحزن عبدى المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبدًا». وقال معروف الكرخى: «إن الله ليبتلى عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع فيشكو إلى أصحابه فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتى وجلالى ما ابتليتك بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب، فلا تشكُنى».

وذكر ابن أبى الدنيا أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الأسقام؟ قال: «أو ما سقمت قطّ؟ قال: لا. فقال: قُمْ عنَّا فلستَ مؤمنًا»[1].

وكان عبد الله بن مسعود قد اشتدت به العلَّة فدخل عليه بعض أصحابه يعوده وأهله تقول: نفسى فداك، ما نطعمك؟ ما نسقيك؟ فأجابها بصوت ضعيف: «بليت الحرافيف وطالت الضجعة، والله ما يسرُّنى أن الله نقصنى منه قلامة ظفر».

وطلق خالد بن الوليد امرأة له ثم أحسن عليها الثناء، فقيل له: يا أبا سليمان، لأى شيء طلقتها؟ قال: ما طلقتها لأمر رابنى منها ولا ساءنى، ولكن لم يصبها عندى بلاء.

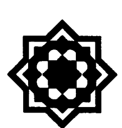
وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه من حديث عائشة إلا من حديث حماد بن سلمة. ورواه أيضًا الطبري في «تفسيره» (١٤٩/٣) من طريق حماد عن علي بن زيد بن جدعان عن أمه عن عائشة به، وقال ابن كثير في «التفسير» (٣٤١/١) : «عليّ بن زيد ضعيف يغرب في رواياته، وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه - أمية بنت عبد الله - عن عائشة ﵂ وليس لها في الكتب سواه».أهـ. والحديث ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٠٨٦).

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٩٩١٦) وعزاه المناوي في «فيض القدير» (٤٠٨/٢) لابن أبي الدنيا.

ويذكر عنه ﷺ: «ما ضرب على مؤمن عِرْقٌ إلا كتب الله له به حسنة وحطَّ به عنه سيئة ورفع له به درجة»(١).

ولا ينافي هذا ما قدمناه من أن المصائب مكفرات لا غير، لأن حصول الحسنة إنما هو بصبره الاختيارى عليها، وهو عمل منه. وعاد رجل من المهاجرين مريضًا فقال: «إن للمريض اربعًا: يرفع عنه القلم، ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته، ويتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها، فإن عاش عاش مغفورًا له، وإن مات مات مغفورًا له» فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعًا.

وفي المسند عنه ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»(٢) وفي لفظ: «إن أمر المؤمن كله عجب؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(٣).



(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٩٨٦٠)، والحاكم (٣٤٧/١) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٠٤/٢): «رواه الطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن»أهـ. وقال الحافظ في «الفتح» (١٠٥٨٠): «سنده جيد». ولكن ضعَّفه أبو حاتم في «العلل» (٣٥٨/١) فقال: «هذا إسناد مضطرب، وعمران هو أبو يحيى الطويل كوفي ليس بالقوي ، يكتب حديثه».أهـ. وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٠٩٣)، و«الضعيفة» (٤٤٥٦).

(٢) رواه أحمد (١٦/٦)، والطبراني في «الكبير» (٤٠/٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٧٥/٣) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٧).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٣٣٢/٤، ٣٣٣)، وابن حبان (٢٨٩٦).

الباب السابع عشر
في الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن السفر قال: «مرض أبو بكر ﷺ فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب. قالوا: فأى شيء قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد»[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[2]. وقال أيضًا: «أفضل عيش أدركناه بالصبر ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا». وقال على بن أبى طالب ﷺ: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له»[3] وقال: الصبر مطية لا تكبو».

وقال الحسن[4]: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده». وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرًا مما انتزعه» وقال ميمون بن مهران: «ما نال أحدٌ شيئًا من ختم الخير

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٩٣/٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه تعليقًا بصيغة الجزم في «الرقائق» باب: الصبر على محارم الله، وقوله ﷺ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ورواه أحمد في «الزهد» (ص ١١٧)، وابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، وقال الحافظ في «الفتح» (٣٠٣/١١) : «سنده صحيح».

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»(١٧٢/٦) وفي «الإيمان»(١٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧٦/١)، والبيهقي في «الشعب» (٩٧٧٨)، والعدني في «الإيمان» (ص ٨٥).

(٤) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٣٢٢/٥)، وقال العجلوني في «كشف الخفا»: رواه في: الإحياء، وقال العراقي في تخريجه: لم أجده.أهـ.

فما دونه إلا الصبر» وقال سليمان بن القاسم: «كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(الزمر: ١٠) قال: كالماء المنهمر.

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها، وفيها: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(الطور: ٤٨). وقال عمر بن الخطاب ﷺ : «لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أُبَالِ أيهما ركبت». وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال: «سحابة صيف ثم تنقشع». وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾(السجدة: ٢٤) : لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رءوسًا. وقيل للأحنف بن قيس: ما الحلم؟ قال: «أن تصبر على ما تكره قليلاً». وقال وهب: «مكتوب في الحكمة: قصر السفه النصب، وقصر الحلم الراحة، وقصر الصبر الظفر» وقصر الشيء وقصاراه: غايته وثمرته.

وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد، وكان من أحسن الناس وجهًا، فدخل يوما على الوليد في ثياب وشي وله غديرتان وهو يضرب بيده فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش. فعانه فخرج من عنده متوسِّنًا فوقع في إصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطؤه بأرجلها حتى مات، ثم إن الأكلة وقعت في رجل عروة فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا: إن لم تقطعها سَرَتْ إلى باقي الجسد فتهلك. فعزم على قطعها، فنشروها بالمنشار، فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشي عليه ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر فأخذها وجعل يقبلها في يده ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه فجعل يقول: ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾(الكهف: ٦٢) ولم يزد عليه، ثم قال: لا أدخل المدينة؛ إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد لنعمة، فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هنالك فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أبا لشانئيك، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فكشف له عن

ركبته فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع، قد أبقى الله أكثرك: عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك. فقال له: يا عيسى، ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به. ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئا كيلا تشعر بالوجع. فقال: إنما ابتلاني ليرى صبري، أفأعارض أمره؟! وسئل ابنه هشام: كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ؟ قال: كان يمسح عليها[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا سلام قال: سمعت قتادة يقول: قال لقمان وسأله رجل: أى شيء خير؟ قال: صبر لا يتبعه أذى. قال: فأى الناس خير؟ قال: الذى يرضى بما أوتى. قال: فأى الناس أعلم؟ قال: الذى يأخذ من علم الناس إلى علمه. قيل: فما خير الكنز من المال أو من العلم؟ قال: سبحان الله! بل المؤمن العالم الذى إن ابتغى عنده خيرًا وجد، وإن لم يكن عنده كف نفسه، وبحسب المؤمن أن يكف نفسه»[2] وقال حسان بن أبى جبلة: «من بث فلم يصبر» ورواه ابن أبى الدنيا مرفوعا إلى النبي ﷺ. وإن صح فمعناه: إلى المخلوق لا من بث إلى الله. وقال حسان بن أبى جبلة - أيضًا - في قوله تعالى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾(يوسف: ١٨) قال: لا شكوى فيه. ورفعه ابن أبى الدنيا أيضًا. وقال مجاهد: فصبر جميل في غير جزع. وقال عمرو بن قيس: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال: الرضا بالمصيبة والتسليم. وقال بعض السلف: فصبر جميل لا شكوى فيه. وقال همام عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(يوسف: ٨٤) قال: كظم على حزن فلم يقل إلا خيرًا. وقال يحيى بن المختار عن الحسن: الكظيم: الصبور.

وقال همام عن قتادة في قوله تعالى ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾: أى كميد أى كمد الحزن. وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها بحلم.

---

(١) القصة في:«حلية الأولياء»(١٧٩/٢)، و«سير أعلام النبلاء»(٤٣٣/٤)، و«فيض القدير»(٣٢٦/٥).
(٢) رواه معمر بن راشد في «الجامع» (٢٥٤/١١)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٤٤٨).

وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر»[1] فقوله: اعتراف العبد لله بما أصاب منه، كأنه تفسير لقوله:﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد، وقوله: راجيا به ما عند الله كأنه تفسير لقوله:﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٦) أي نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة. وقوله: وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، أى: ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، وردُّ اللسان عن الشكوى؛ فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر.

وقال يونس بن يزيد: سألت ربيعة بن أبى عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه. وقال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾(المعارج: ٥) قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو. وكان شمر إذا عزى مصابا قال: «اصبر لما حكم ربك». وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط وعليه إزار في موت واقد بن عبد الله بن عمر لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنى محمد بن جعفر بن مهران قال: قالت امرأة من قريش:

أمَــا والــذى لا خُلْدَ إلا لوجْهِهِ ... ومَنْ ليس في العزِّ المنيعِ له كُفْوُ
لئنْ كان بَدْءُ الصبر مرًّا مذاقُهُ ... لقــد يُجْــنَى مِنْ غبِّهِ الثمرُ الحُلْوُ

قال: وأنشدنى عمرو بن بكير:

صبرتُ فكان الصبرُ خيرَ مَغَبَّةٍ ... وهلْ جَزَعٌ يُجْدِى عَلَيَّ فأجزَعُ
ملكتُ دموعَ العينِ حتَّى رددْتُها ... إلى ناظِرِى فالعينُ في القلبِ تَدْمَعُ

(١) ذكره ابن كثير في «التفسير» (١/١٩٨).

قال: وأنشدني أحمد بن موسى الثقفي:

مِـنْ أنْ تنوبَ نوائبُ الدَّهرِ نُبِّئْـتُ خَوْلَةَ أمْسِ قد جَزِعَتْ
إنَّ الكـرامَ بنوا على الصَّبْرِ لا تجزعى يا خَوْلَ واصبرى

قـال: وحدثنى عبد الله بن محمد بن إسماعيل التيمى أن رجلا عزَّى رجلا في ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه، فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك، وأنكى الرزيتين لك والسلام. وعزى ابن أبى السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر فيه يعمل مَنْ احتسب وإليه يصير من جزع. وقال عمر بن عبد العزيز: «أما الرضاء فمنزلة عزيزة أو منيعة، ولكن جعل الله في الصبر مُعَوَّلاً حسنًا» ولما مات عبد الملك ابنه صلى عليه ثم قال: «رحمك الله، لقد كنتَ لى وزيرًا وكنتَ لى معينًا». قال: والناس يبكون وما يقطر من عينيه قطرة. وأصيب مطرف بن عبد الله في ابنٍ له فأتاه قومٌ يعزونه فخرج إليهم أحسن ما كان بشرًا ثم قال: «إنى لأستحيى من الله أن أتضعضع لمصيبة» وقال عمرو بن دينار: قال عبيد بن عمير: «ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ».

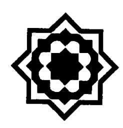
وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى الحسين بن عبد العزيز الحروزى: «قد مات ابن لى نفيس فقلت لأمه: اتقي الله واحتسبيه واصبرى، فقالت: مصيبتى أعظم من أن أفسدها بالجزع» قال ابن أبى الدنيا: وأخبرنى عمر بن بكير عن شيخ من قريش قال: مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن، وعبيد الله يومئذ قاضٍ على البصرة وأمير، فكثر من يعزيه؛ فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال خالد بن أبى عثمان القرشي: كان سعيد بن جبير يعزينى في ابنى فرآنى أطوف بالبيت متقنعًا، فكشف القناع عن رأسى وقال: «الاستكانة من الجزع».

(فصـــــــل) وأما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم: لا بأس أن يجعل

المصاب على رأسه ثوبًا يعرف به، قالوا: لأن التعزية سُنَّة، وفي ذلك تيسير لمعرفته حتى يعزيه، ففيه نظر، وأنكره شيخنا، ولا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيئًا من ذلك، ولا نقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين، والآثار المتقدمة كلها صريحة في رد هذا القول، وقد أنكر إسحق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه وقال: هو من الجزع.

وبالجملة فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيرون شيئًا من زيهم قبل المصيبة ولا يتركون ما كانوا يعملونه، فهذا كله منافٍ للصبر، والله سبحانه أعلم.



الباب الثامن عشر
في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاء على الميت، ومذهب أحمد وأبي حنيفة أجازاه قبل الموت وبعده، واختاره أبو إسحاق الشيرازي. وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت ورخصوا فيه قبل خروج الروح، واحتجوا بحديث جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب فصاح به فلم يجب فاسترجع وقال: غلبنا عليك يا أبا الربيع، فصاح النسوة وبكين، فجعل ابن عتيك يسكتهن، فقال رسول الله ﷺ : «دعهن، فإذا وجب فلا تبكين باكية. قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال: الموت»[1] رواه أبو داود والنسائي.

قالوا: وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»[2] وهذا إنما هو بعد الموت وأما قبله فلا يسمى ميتًا. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما قدم من أحد سمع نساء بني عبد الأشهل يبكين على هلكاهن فقال: «لكن حمزة لا بواكي له، فجئن نساء الأنصار فبكي على حمزة عنده فاستيقظ فقال: ويحهن أتين هاهنا يبكين حتى الآن! مُرُوهنَّ فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم»[3] رواه الإمام

---

(١) رواه أبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٥)، وضعَّفه الألباني في «أحكام الجنائز» (٣٩-٤٠) و«ضعيف الجامع» (٢٩٨٨).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٧)، وأبو داود (٣١٢٩)، والترمذي (١٠٠٢)، والنسائي (١٨٤٧)، وابن ماجه (١٥٩٣)، وأحمد (٥/٦١).

(٣) رواه ابن ماجه (١٥٩١)، وأحمد (٢/٤٠، ٨٤، ٩٢)، وأبو يعلى (٣٥٧٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/٢٩٣)، والبيهقي (٤/٧٠)، وابن أبي شيبة في «تصنيف المصنف» (٣/٦٣)، والطبراني في «الكبير» (٣/١٤٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/١٢٠): «رواه أبو يعلى بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح»أهـ. وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/٤٨): «إسناده ضعيف لضعف أسامة بن زيد»أهـ. قلت: أسامة بن زيد الليثي قال عنه الحافظ في «التقريب» (٣١٧): صدوق يهم. فهو حسن الحديث، وقد روى له مسلم في : المتابعات، وللحديث طريق أخرى بسند=

أحمد. وهذا صريح في نسخ الإباحة المتقدمة.

والفرق بين ما قبل الموت وبعده أنه قبل الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذرًا، فإذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء فلا ينفع البكاء.

قال المجوزون: قال جابر بن عبد الله: أصيب أبي يوم أحد فجعلت أبكى فجعلوا ينهونني ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكى فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعوه»(1) متفق عليه.

وفي الصحيحين - أيضًا - عن ابن عمر قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه وجده في غشية فقال: «قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله. فبكى رسول الله ﷺ فلما رأى القوم بكاءه بكوا فقال: ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم»(2).

وفي الصحيحين - أيضًا - من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبى في الموت فرفع إليه الصبى ونفسه تقعقع كأنها في شنة ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(3).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال: ماتت رقية ابنة رسول الله فبكت

=مرسل عند عبد الرزاق (٦٦٩٤) عن معمر عن أيوب عن عكرمة، وقال الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٦١): ورجاله ثقات»اهـ. فالحديث حسن إنشاء الله.

(١) رواه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (٢٤٧١)، والنسائي (١٨٤١)، وأحمد (٣/٢٩٨، ٣٠٧)، والطيالسي (١٧١١)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/٣٦٤)، وابن الجعد في «مسنده» (١١٦٦).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤)، وابن حبان (٣١٥٩)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/٢٩٢)، والبيهقي (٤/٦٩).

(٣) سبق تخريجه.

النسـاء، فجعـل عمر يضربهن بسوطه، فقال النبي ﷺ: «دعهن يا عمر يبكين وإياكُنَّ ونعيق الشـيطان، ثـم قـال: إنـه مهما كان من العين ومن القلب فمن الله ومن الرحمة، وما كان من اليـد ومـن اللسـان فمـن الشـيطان»[1] وفي المسـند - أيضًا - عن عائشة أن سعد بن معاذ لما مـات حضـره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: «فوالذى نفسى بيده إني لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر وأنا في حجرتى»[2] وفي المسند - أيضًا - عن أبى هريرة قال: مرَّ على النبي ﷺ بجنازة يبكى عليها وأنا معه ومعه عمر بن الخطاب، فانتهر عمر اللاتى يبكين عليها، فقـال الـنبي ﷺ: «دعهـن يـا ابـن الخطـاب، فـإن الـنفس مصـابة وإن العين دامعـة، والعهد قريب»[3].

وفي جامع الترمذى عن جابر بن عبد الله قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف فـانطلق إلى ابـنه إبراهـيم فوجده يجود بنفسه، فأخذه النبي ﷺ فوضعه في حجره فبكى، فقال لـه: أتـبكى؟ أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: «لا ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صـوت عـند مصـيبة: خمـش الوجـه وشـق الجـيوب، ورنَّـة الشيطان»[4]. قال الترمذى: هذا حديـث حسـن. وقـد صح عنه ﷺ أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله[5]، وقد صح عنه

---

(1) رواه أحمد (١/٢٣٧، ٣٣٥)، وابن سعد في الطبقات (٨/٣٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/١٧): وفيه عليّ بن زيد وفيه كلام.أهـ. وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٩٨٩).

(2) رواه أحمد (٦/١٤٢)، وابـن حبان (٧٠٢٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف»(٣/٦٣)، والطبراني في «الكـبير» (٦/٩)، وقـال الهيـثمي في «المجمـع» (٦/١٣٨): رواه أحمـد وفيه محمد بن عمر بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات. أهـ. وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٦٧).

(3) رواه النسـائي (١٨٥٨)، وابـن ماجـه (١٥٨٧)، وأحمـد (٢/١١٠، ٢٧٣، ٤٠٨)، والبـيهقي (٤/٧٠) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٧/٢٩٨).

(4) رواه الترمذي (١٠٠٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/٦٣)، والبيهقي (٤/٦٩)، والطحاوي في «شـرح معاني الآثار» (٤/٢٩٣)، وابن سعد في «الطبقات» (١/١٣٨)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١٠٠٦)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٨٠٤).

(5) رواه مسـلم (٩٧٦)، وأبـو داود (٣٢٣٤)، والنسائي (٢٠٣٣)، وابن ماجه (١٥٧٢)، وأحمد (٢/٤٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ

ﷺ أنه قبَّل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه[1]، وصح عنه أنه نعى جعفر وأصحابه وعيناه تذرفان[2]، وصح عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قبَّل النبي ﷺ وهو ميت وبكى[3].

فهذه اثنتا عشرة حجة تدل على عدم كراهة البكاء، فتعين حمل أحاديث النهى على البكاء الذى معه ندب ونياحة؛ ولهذا جاء في بعض ألفاظ حديث عمر: «الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه» وفي بعضها: «يعذب بما نيح عليه»[4]. وقال البخارى في صحيحه: قال عمر: «دعهن يبكين على أبى سليمان، يعنى خالد بن الوليد، ما لم يكن نقع أو لقلقة»[5]. والنقع: حث التراب، واللقلقة: الصوت.

وأما دعوى النسخ في حديث حمزة فلا يصح، إذ معناه: لا يبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد.

ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد منها حديث أبى هريرة إذ إسلامه وصحبته كانا في السنة السابعة، ومنها البكاء على جعفر وأصحابه وكان استشهادهم في السنة الثامنة، ومنها البكاء على زينب وكان موتها في السنة الثامنة أيضًا، ومنها البكاء على سعد بن معاذ وكان موته في الخامسة، ومنها البكاء عند قبر أمه ﷺ وكان عام الفتح في الثامنة.

وقولهم: إنما جاز قبل الموت حذرًا بخلاف ما بعد الموت. جوابه أن الباكى قبل الموت

---

(١) رواه أبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٩٨٩)، وابن ماجه (١٤٥٦)، وأحمد (٤٣٥/٦)، والبيهقي (٤٠٧/٣)، من حديث عائشة رضى الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٧٨٨).

(٢) رواه البخاري (١٢٤٦)، وأحمد (١١٣/٣) من حديث أنس.

(٣) رواه البخاري (٤٤٥٢)، والنسائي (١٨٤٠)، وأحمد (١٧/٦)، من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه البخاري تعليقًا في «الجنائز» باب: ما يكره من النياحة على الميت» ووصله عبد الرزاق (٦٦٨٥)، وابن المبارك في «الجهاد» (٥٢)، والبيهقي (٧١/٤).

يبكي حزنًا، وحزنه بعد الموت أشد؛ فهو أولى برخصة البكاء من الحالة التي يرجى فيها. وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»[1].

(فصــــــل) وأما الندب والنياحة فنص أحمد على تحريمها. قال في رواية: النياحة معصية. وقال أصحاب الشافعي وغيرهم: النوح حرام. وقال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء. وقال بعض المتأخرين من أصحاب أحمد: يكره تنزيهًا. وهذا لفظ أبي الخطاب في الهداية، قال: ويكره الندب والنياحة وخمش الوجوه وشق الجيوب والتحفي. والصواب القول بالتحريم لما في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[2] وفي الصحيحين - أيضًا - عن أبي بردة قال: وجع أبو موسى وجعًا فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله فصاحت امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا، فلما أفاق قال: أنا بريء مما برئ منه رسول الله ﷺ فإن رسول الله برئ من الصالقة والحالقة والشاقة[3]. وفي الصحيحين - أيضًا - عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من يُنَحْ عليه يعذب بما نيح عليه»[4] وفي الصحيحين - أيضًا - عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة ألا ننوح، فما وفت منا امرأة إلا خمس نسوة[5].

وفي صحيح البخارى عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «الميت يعذب في قبره بما نيح

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، وأبو داود (٣١٢٦)، وأحمد (٣/١٦٤)، وابن حبان (٢٩٠٢)، وأبو يعلى (٣٢٨٨)، والبيهقي (٤/٦٩)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١٢٨٧).

(٢) رواه البخاري (١٢٩٨)، ومسلم (١٠٣)، والترمذي (٩٩٩)، والنسائي (١٨٦١)، وابن ماجه (١٥٨٤).

(٣) رواه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤)، والنسائي (١٨٦٢)، وابن ماجه (١٥٨٦).

(٤) رواه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٢٧)، والترمذي (١٠٠٠).

(٥) رواه البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦)، وأبو داود (٣١٢٧).

عليه»(١) وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعرى أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»(٢).

وفي سنن أبي داود عن أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات قالت: «كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذى أخذ علينا أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجها ولا ندعو ويلاً ولا نشق جيبًا ولا ننفش شعرًا»(٣) وفي المسند عن أنس قال: «أخذ النبي ﷺ على النساء حين بايعهن أن لا ينحن فقلن: يا رسول الله، إن نساء أسعدتنا في الجاهلية أفنسعدهن في الإسلام؟ فقال: لا إسعاد في الإسلام»(٤) وقد تقدم قوله: «ما كان من اليد واللسان فمن الشيطان» . وقوله: «نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب، ورنة شيطان» .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «الميت يعذب ببكاء الحى، إذا قالت النائحة: واعضداه واناصراه واكاسَياه، جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها أنت ناصرها أنت كاسيها؟»(٥) وفي صحيح البخارى عن النعمان بن بشير قال:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٣٨٥٠)، من حديث ابن عباس ، ورواه مسلم واللفظ له (٩٣٤)، من حديث أبي مالك الأشعري.

(٣) رواه أبو داود (٣١٣١)، والطبراني في «الكبير» (١٨٤/٢٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦٤/٤).

(٤) رواه النسائي (١٨٥١)، وأحمد (١٩٧٣)، وابن حبان (٣١٤٦)، وعبد الرزاق (٦٦٩٠)، والبيهقي (٦٢/٤)، والضياء في «المختارة» (١٧٨٥)، وعبد بن حميد في«مسنده» (١٢٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

(٥) رواه أحمد (٤١٤/٤)، وابن ماجه (١٥٩٤)، والروياني في «مسنده» (٥٢١)، وقال البوصيري في «الزوائد» (٤٨/٢): هذا إسناد حسن.أهـ. وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٩٣).

أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي وتقول: واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه فقال حين أفاق: ما قلت لي شيئًا إلا قيل لي: أنت كذا؟ فلما مات لم تبك عليه[1].

وكيف لا تكون هذه الخصال محرمة وهي مشتملة على التسخط على الرب وفعل ما يناقض الصبر، والإضرار بالنفس، من لطم الوجه وحلق الشعر ونتفه والدعاء عليها بالويل والثبور، والتظلم من الله سبحانه وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه، ولا ريب أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا.

وقال المبيحون لمجرد الندب والنياحة مع كراهتهم له: قد روى حرب عن واثلة بن الأسقع وأبي وائل أنهما كانا يسمعان النوح ويسكتان.

قالوا: وفي الصحيحين عن أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾(الممتحنة : ٦٠) كان منه النياحة، فقلت: يا رسول الله، إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بد لي من أن أسعدهم. فقال: «إلا آل فلان» وفي رواية لهما أنها قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت منا امرأة يدها فقالت: فلانة أسعدتني فأنا أريد أن أجزيها. قالت: فما قال لها شيئًا فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبايعها»[2]. قالوا: وهذا الإذن لبعضهن في فعله يدل على أن النهي عنه تنزيه لا تحريم، ويتعين حمله على المجرد من تلك المفاسد جمعًا بين الأدلة.

قال المحرمون: لا تُعارَض سنة رسول الله ﷺ بأحد من الناس كائنًا من كان، ولا نضرب سننه بعضها ببعض، وما ذكرنا من النصوص صحيحة صريحة لا تحتمل تأويلاً ، وقد انعقد عليها الإجماع، وأما المرأة التي قال لها: «إلا آل فلان» والمرأة التي سكت عنها فذلك خاص بهما لوجهين:

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٧).

(٢) رواه البخاري (٤٨٩٢)، ومسلم (٩٣٧)، وأحمد (٥/٨٤-٦/٤٠٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٥/٥٨)، والبيهقي (٤/٦٢) من حديث أم عطية.

أحدهما: أنه قال لغيرهما لما سألته ذلك: «لا إسعاد في الإسلام».

والثاني أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثا عهد بالإسلام، وهما لم يميزا بين الجائز من ذلك وبين المحرم، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فعلم أن الحكم لا يعدوهما إلى غيرهما.

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقًا لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد في مسنده من حديث أنس أن أبا بكر ﷺ دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه وقال: «وانبياه، واخليلاه، واصفياه!» (١).

وفي صحيح البخارى عن أنس - أيضًا- قال: لما ثقل على النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة: «واكرب أبتاه! فقال: ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلما مات قالت: يا أبتاه! أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه! جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريل أنعاه. فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟ (٢). وقال النبي ﷺ: «وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» (٣) وهذا ونحوه من القول الذى ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا إسخاط له، فهو كمجرد البكاء.

(فصـــــل) وأما قول النبي ﷺ: «إن الميت ليعذب بالنياحة عليه» فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبد الله والمغيرة بن شعبة، وروى نحوه عن عمران بن حصين وأبي موسى ﷺ فاختلفت طرق الناس في ذلك، فقالت فرقة: يتصرف الله في خلقه بما يشاء، وأفعال الله لا تعلَّل، ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب إليه، لأن

---

(١) رواه أحمد (٣١/٦، ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤٦٢)، وابن ماجه (١٦٢٩)، وابن حبان (٦٦٢٢)، والبيهقي (٤٠٩/٣)، وعبد ابن حميد (١٣٦٤).

(٣) سبق تخريجه.

الله خالق الجميع، والله تعالى يؤلم الأطفال والبهائم والمجانين بغير عمل.

وقالت فرقة: هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ وقد أنكرتها عائشة أم المؤمنين واحتجت بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(الإسراء: ١٥) ولما بلغها رواية عمر وابنه قالت: إنكم لتحدثون عن غير كاذبين ولا متهمين، ولكن السمع يخطئ، وقالت: إنما مر النبي ﷺ على قبر يهودى فقال: «إن صاحب هذا القبر يعذب وأهله يبكون عليه»(١).

وفي رواية متفق عليها عنها: إنما قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه»(٢) وقالت: حسبكم القرآن: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

وقالت فرقة أخرى منهم المزني وغيره: إن ذلك محمول على من أوصى به إذا كانت عادتهم ذلك، وهو كثير في أشعارهم كقول طرفة:

وشُقِّى علَىَّ الجيبَ يا ابنةَ معبدِ ... إذا مـــتُّ فانعينى بما أنا أهلُهُ

وقول لبيد:

ولا تخمشا وجهًا ولا تحلقا شعرْ ... فقومـــا فقـــولا بالذى قد علمتما
أضـــاع ولا خان الأمينَ ولا غدرْ ... وقـــولا هو المرءُ الذى لا صديقَهُ
وَمَـــنْ يَبْكِ حوْلاً كاملاً فقد اعتذرْ ... إلى الحَوْلِ ثم اسمُ السلامِ عليكما

وقالت طائفة: هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك إذا لم ينههم عنه، لأن ترك نهيه دليل على رضاه به، وهذا قول ابن المبارك وغيره، قال أبو البركات ابن تيمية: وهو أصح الأقوال كلها لأنه متى غلب على ظنه فعلهم ولم يوصهم بتركه فقد رضى به وصار كمن ترك النهى عن المنكر مع القدرة عليه، فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه فالله أكرم من

(١) رواه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (١٩٣١)، وأبو داود (٣١٢٩).
(٢) رواه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٩)، والنسائي (١٨٥٦)، وأحمد (٣٨/٢)، والحميدي (٢٢٠)، والبيهقي (٧٣/٤).

أن يعذبه بذلك، وقد حصل بذلك العمل بالآية مع اجراء الخير على عمومه في كثير من الموارد، وإنكار عائشة لذلك بعد رواية الثقات لا يُعَوَّل عليه، فإنهم قد يحضرون ما لا تحضره ويشهدون ما تغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد خصوصًا في حق خمسة من أكابر الصحابة.

وقوله في اليهود لا يمنع أن يكون قد قال ما رواه عنه هؤلاء الخمسة في أوقات أخر، ثم هي محجوجة بروايتها عنه أنه قال: «إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه»[1] فإذا لم يمنع زيادة الكافر عذابًا بفعل غيره مع كونه مخالفًا لظاهر الآية، لم يمنع ذلك في حق المسلم، إن الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر والله أعلم.

(فصل) ولا تحتاج هذه الأحاديث إلى شيء من هذه التكلفات، وليس فيها بحمد الله إشكال ولا مخالفة لظاهر القرآن ولا لقاعدة من قواعد الشرع، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره، فإن النبي ﷺ لم يقل إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ونوحهم، وإنما قال: «يعذب بذلك» ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه. والعذاب هو الألم الذى يحصل له، وهو أعم من العقاب، والأعم لا يستلزم الأخص، وقد قال النبي ﷺ : «السفر قطعة من العذاب»[2] وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر، حتى إن الميت ليتألم بمن يعاقب في قبره في جواره ويتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره، فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم، وهو البكاء الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك وهو معروف في نظمهم ونثرهم، تألم الميت بذلك في قبره، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه، وهذه طريقة شيخنا في هذه الأحاديث وبالله التوفيق.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٧٨٣)، وابن ماجه (٢١٨٣)، وابن ماجه (٢٨٨٢)، وأحمد (٢/٢٣٦، ٤٤٥، ٤٩٦)، وابن حبان (٢٧٠٨، والدارمي (٢٦٧٠)، ومالك في «الموطأ» (٢/٩٨٠)،والطبراني في «الأوسط»(٤٤٥١)، والبيهقي (٥/٢٥٩).

الباب التاسع عشر
في أن الصبر نصف الإيمان

والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر. قال غير واحد من السلف: «الصبر نصف الإيمان» وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر»[1] ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في سورة إبراهيم وفي سورة حمعسق وفي سورة سبأ وفي سورة لقمان، وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات:

أحدها: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهى ترجع إلى شطرين: فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين: فعل المأمور وترك المحظور.

الاعتبار الثاني: أن الإيمان مبنى على ركنين: يقين وصبر، وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهى والثواب والعقاب، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهى أنه من عند الله وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر، فصار الصبر

(١) بهذا اللفظ رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٥٩)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢٢١/٢)، والديلمي في «الفردوس» (٧٣٨)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٦٢٥)، و«ضعيف الجامع» (٢٣١٠)، من حديث أنس مرفوعًا.
أما أثر ابن مسعود فلفظه: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» رواه البخاري تعليقًا في «الإيمان» باب الإيمان وقول النبيﷺ «بني الإسلام على خمس» وصححه الحاكم، وابن حجر في «تعليق التعليق» (٢٢/٢) وقال في «الفتح» (٤٨/١): سنده صحيح.

نصف الإيمان، والنصف الثاني الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه.

الاعتبار الثالث: أن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح، وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنًا كما قال عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾(النمل: ١٤) وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾(العنكبوت: ٣٨) وقال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾(الإسراء: ١٠٢) فهؤلاء حصل قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنًا، بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنًا حتى يأتى بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة، فيحب الله ورسوله ويوالى أولياء الله ويعادى أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهرًا وباطنًا، وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به.

فهذه الأركان الأربعة هى أركان الإيمان التى قام عليها بناؤه، وهى ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كف النفس الذى هو متعلق النهى، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر، فصار الإيمان نصفين: أحدهما الصبر والثانى متولد عنه من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع: أن النفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، وهى دائمًا تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحجم عما تكرهه، والدين كله إقدام وإحجام: إقدام على طاعة وإحجام عن معاصى الله، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس: أن الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾(الأنبياء: ٩٠) وفي الدعاء عند النوم الذى رواه البخارى في صحيحه: «اللهم إنى أسلمت نفسى إليك،

ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك»[1] فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر.

الاعتبار السادس: أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في إحدى الدارين ويضره في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها، وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضره هو الصبر

الاعتبار السابع: أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله، ونهي يتركه، وقدر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر، ففعل المأمور هو الشكر، وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

الاعتبار الثامن: أن العبد فيه داعيان: داعٍ يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

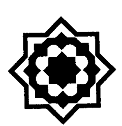
الاعتبار التاسع: أن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»[2] وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق.

الاعتبار العاشر: أن الدين مبني على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق

(١) رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠)، وأبو داود (٥٠٤٦)، والترمذي (٣٣٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٦٠٩)، وابن ماجه (٣٨٧٦)، وأحمد (٢٨٥/٤، ٢٩٠، ٢٩٩)، من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) رواه الترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (١٢٣/٤)، وابن حبان (٩٣٥)، من حديث شداد بن أوس، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٩٠).

في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان، والله ﷻ أعلم.



الباب العشرون
في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج ابن الجوزى في ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الصبر أفضل.

والثاني: أن الشكر أفضل.

والثالث: أنهما سواء كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت».

ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة وما لها وعليها في احتجاجها، بعون الله وتوفيقه. قال الصابرون: قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله ومدحه وأمر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد ذكره الله في كتابه في نحو تسعين موضعًا، وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفي فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر، ويكفي في فضله قوله ﷺ : **«الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»**[1] فذكر ذلك في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه، وهذا

---

(١) رواه البخاري تعليقًا في «الأطعمة» باب: الصائم الشاكر، وقال: فيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ووصله الترمذي (٢٤٨٦)، وابن ماجه (١٧٦٤)، وأحمد (٢٨٣/٢)، وابن خزيمة (١٨٩٨)، وابن حبان (٣١٥)، وأبو يعلى (٦٥٨٢)، والبيهقي (٣٠٦/٤)، والطبراني في «الكبير» (١١٨/٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٨٠/١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٤٢/١١).
ورواه ابن ماجه (١٧٦٥)، وأحمد (٣٤٣/٤)، والدارمي (٢٠٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ١٠٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٦٤)، من حديث سنان بن سنة ﷺ ، وقال البوصيري «الزوائد»(٨٣/٢): إسناده صحيح، رجاله موثقون. وصححه الألباني في «صحيح الجامع»(٣٨٣٧، ٣٨٣٨)، و«الصحيحة» (٦٥٥).

كقوله: «مدمن الخمر كعابد وثن»[1] ونظائر ذلك. قالوا: وإذا وازنّا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها، ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما في سائر الأبواب، فلا تجد الأحاديث النبوية في باب أكثر منها في باب الصلاة والجهاد. قالوا: وأيضًا فالصبر يدخل في كل باب بل في كل مسئلة من مسائل الدين، ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . قالوا: وأيضًا فالله ﷺ علق على الشكر الزيادة فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(ابراهيم: ٧) وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب. وأيضًا فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين فقال: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(آل عمران: ١٤٤) وقيَّد جزاء الصابرين بالإحسان فقال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(النحل:٩٦). قالوا: وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزى به»[2]، وفي لفظ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزى به»[3] وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها كما في الحديث نفسه: «يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلي» ولهذا قال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الأعمال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له»[4] ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع، فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أنه الصوم، وسمي رمضان شهر الصبر، وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر. وذلك أن الصبر حبس

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٧٥)، وأحمد (١/٢٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٣٧)، و«الصحيحة» (٢١٧٧).

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، والنسائي (٢٢١٥)، وأحمد (٢/٢٧٣، ٤٦٥)، وابن خزمية (١٨٩٦)، وابن حبان (٣٤٢٢)، والبيهقي (٤/٣٠٤).

(٣) رواه مسلم (١١٥١) (١٦٤).

(٤) رواه النسائي(٢٢١٩)، وأحمد(٥/٢٤٩)، والحاكم(١/٤٢١)، وابن حبان (٣٤١٧)، والبيهقي(٤/ ٣٠١)، من حديث أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٣٢).

النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين. وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح وهو قوله: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب، فإن أحد سابه أو شاتمه فليقل إني صائم»[1]. فأرشد إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغي له أن يحتمي من إفسادهما لصومه، فهذه تفسد صومه، وهذه تحبط أجره كما قال في الحديث الآخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[2]. قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(المؤمنون: ١١١) فجعل فوزهم جزاء صبرهم، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(البقرة: ٢٤٩) لا شيء يعدل معيته لعبده كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله. وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(الطور:٤٨) وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمه.

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهي صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(البقرة: ١٥٧) وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم. وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه، وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك.

قالوا: وقد دل الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما أمكن من الاستكثار

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٣)، وأحمد (٢/٤٥٢، ٥٠٥)، والترمذي (٧٠٧)، وابن حبان (٣٤٨٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/٢٧٠)، و«الشعب» (٣٦٤٠).

منها، والزهد فيها حال الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر . قالوا: وقد سئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين مرا بكنز فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه وأخذه الآخر وأنفقه في طاعة الله تعالى: أيهما أفضل؟ فقال: الذى لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبيﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها وقال: «بل أجوع يومًا وأشبع يومًا» [1] ولو أخذها لأنفقها في مرضاة الله وطاعته، فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها، قالوا: وقد علم أن الكمال الإنسانى في ثلاثة أمور: علوم يعرفها، وأعمال يعمل بها، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله، وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة، وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها، وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة، وإلا فهو في الدنيا وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التى عليه، والمحن التى امتحن بها، وإلا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها، وتفاوت العلوم في فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة، وبعدها فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه، وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذى خلق له فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره؛ ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب إفضائها إلى المقصود، وهكذا يجب أن يكون، فإن كل ما

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٧)، من حديث أبي أمامة، وفي سنده علي بن يزيد وهو ضعيف، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٧٠٤)، ضعيف جدًا.

كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها، فالعمل المعد للقلب المهيئ له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك، وإذا اشتركت عدة أعمال في هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضى، ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله، واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهيًّا عنها، وتأثير الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها.

وها هنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره، فالغني الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة، والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع، والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح، وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده جلوسه ساعة للنظر في المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره، ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته. وتأمل تولية النبي ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله وترك تولية أبى ذر، بل قال له: «إنى أراك ضعيفًا وإنى أحب لك ما أحب لنفسي: لا تؤمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»[1] وأمره وغيره بالصيام وقال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له»[2] وأمر آخر بأن لا يغضب[3]، وأمر ثالثًا بأن «لا يزال لسانه رطبا من ذكر الله»[4] ومتى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لاستفراغ

---

(١) رواه مسلم(١٨٢٦)، وأبو داود (٢٨٢٨)، والنسائي (٣٦٦٦)، و«البيهقي» (١٢٩/٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٦١١٦) والترمذي (٢٠٢٠)، وأحمد (١٧٥/٢، ٣٦٢)، وأبو يعلى (١٥٩٣).

(٤) رواه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وأحمد (١٨٨/٤)، وابن حبان (٨١٤)، والضياء في «المختارة» (٤٣)، من حديث عبد الله بن بسر ﷺ ،وصححه الألباني في«صحيح الجامع»(٧٥٧٧).

وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هيئ له، فإذا استفرغ وسعه برَّ على غيره وفاق الناس فيه كما قيل:

هذا طريق إلى العلياء مختَصَرُ ما زال يَسبقُ حتى قال حاسدُهُ

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه، فالشح المطاع مثلا من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها. وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد، وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده، ولو قيل: أيما أفضل، الخبز أو الماء؟ لكان الجواب أن هذا في موضعه أفضل، وهذا في موضعه أفضل.

وإذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه، فتهيأ لمعرفة الله ومحبته، فهو دواء للداء الذى في القلب يمنعه من المقصود، وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفرت قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا: فإن قيل: فقد حث الشرع على الأعمال، وانفصلوا عنه بأن قالوا: الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبًا، فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك.

قالوا: وإذا عرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة، وحال الشاكر حال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

(فصـــــــل) قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم وفضلتم مقامًا غيره أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه، والعمل الكامل على

الأكمل والفاضل على الأفضل، ولم تعرفوا للشكر حقه، ولا وفيتموه مرتبته، وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعونا عليهما، قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(البقرة: ١٥٢)

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾(النساء: ١٤٧) أى إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(الأنعام: ٥٣) وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(الإنسان: ٣).

وقال نبيه سليمان: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾(النمل: ٤٠) وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾(ابراهيم: ٧) وقال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾(الزمر: ٧) وهذا كثير في القرآن. يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(آل عمران: ١٤٤) والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم، وعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره. وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ (التوبة: ٢٨) وقوله في الإجابة: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾(الأنعام: ٤١) وقوله

في الرزق: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾(الشورى: ١٩) وفي المغفرة: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾(الفتح: ١٤) والتوبة: ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾(التوبة: ١٥) وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا حيث ذُكِر كقوله: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(آل عمران: ١٤٤)، ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (هود: ٤٠) ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾(الأعراف: ١٧) ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾(سبأ: ١٣)

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين، فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قال: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هود : ٤٠) وقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ وقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾(سورة ص : ٢٤) فقال عمر: صدقت. وقد أثنى الله ﷻ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال:﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾(الإسراء: ٣) وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني، فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾(الصافات: ٧٧) فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبدًا شكورًا.

وقد أخبر سبحانه إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(البقرة: ١٧٢) وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(الأعراف: ١٤٤)
وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾(لقمان: ١٤).

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾(الزمر: ٧) وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢١) فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أى قدوة يؤتـمُّ به في الخير، وأنه قانت لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التى خلق عبيده لأجـــــلها﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(النحل: ٧٨):: فهـــذه غايـــــة الخلـــق وغايـــة الأمــــر، فقـــال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(آل عمران: ١٢٣) ويجوز أن يكون قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تعليلاً لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معًا وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قولـه تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(البقرة: ١٥١-١٥٢) . قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ «أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»[1] وثبت في المسند والترمذى أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «والله إنى لأحبك فلا تنْسَ أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[2] وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا

(١)رواه البخاري(١١٣٠)، ومسلم(٢٨١٩)،والترمذي(٤١٢)، والنسائي(٣/٢١٩)، وابن ماجه(١٤١٩).
(٢) رواه أبو داود(١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٢)، والبخاري في «الأدب»(٦٩٠)، والحاكم(١/٢٧٣)، وابن خزيمة (٧٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٤١)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٦٠)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي،وصححه الألباني في«صحيح الجامع»(٧٨٤٦).

إسحاق بن إسماعيل حدثنا أبو معاوية وجعفر ابن عون عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1].

قال: وحدثنا محمود بن غيلان حدثنا المؤمل بن إسماعيل حدثنا حماد بن سلمة حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وبدنًا على البلاء صابرًا وزوجة لا تبغيه خونًا في نفسها ولا في ماله»[2]. وذكر - أيضًا - من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره، وإن الرجل يشترى الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له»[3].

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[4] فكان هذا الجزاء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(التوبة: ٧٢) في مقابلة شكره بالحمد.

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرزق الله عبدًا الشكر فيحرمه الزيادة»[5]

(١) لم أجده بهذا اللفظ، بل علمه النبي ﷺ لأصحابه كما في الحديث السابق، وروى أحمد (٢/٢٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ «أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٧٢): «ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن طارق وهو ثقة».أهـ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة(٧/١٨٢)، والطبراني في «الأوسط»(٧٢١٢) و«الكبير»(١١/١٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٦٥) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٧٥٦).

(٣) رواه الحاكم (١/٥١٤)، وإسناده ضعيف.

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٦٨٩٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/١٣٨)، وابو يعلى (٤٣٣٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٠٤٦)، والضياء في «المختارة» (٢٧٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٩٨)، من حديث أنس ﷺ.

(٥) رواه البيهقي في «الشعب» (٤٥٢٦).

لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(إبراهيم: ٧) وقال الحسن البصرى: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابًا» ولهذا كانوا يسمون الشكر «الحافظ» لأنه يحفظ النعم الموجودة، و«الجالب» لأنه يجلب النعم المفقودة. وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب ﷺ أنه قال لرجل من همذان: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد».

وقال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا نعم الله بشكر الله» وكان يقال: «الشكر قيد النعم» وقال مطرف بن عبد الله: «لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر» وقال الحسن: «أكثروا من ذكر هذه النعم؛ فإن ذكرها شكر» وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(الضحى: ١١) والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته؛ فإن ذلك شكرها بلسان الحال. وقال على بن الجعدى: سمعت سفيان الثورى يقول: «إن داود عليه الصلاة والسلام قال: الحمد لله حمدًا كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة».

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة عن أبى رجاء العطاردى قال: خرج علينا عمران ابن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» [(١)] وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سَرَف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» [(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٤/٤٣٨) من حديث عمران بن حصين، ورواه أحمد (٢/٣١١)، والطبراني في «الكبير» (١٨/١٣٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/٢٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٢٩٠).

(٢) رواه البخاري «تعليقًا» بصيغة الجزم في «اللباس» باب ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾، والنسائي (٢٥٥٨)، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وأحمد (٢/١٨١) مقتصرين على الشطر الأول من الحديث، والشطر الثاني رواه الترمذي (٢٨١٩)، ورواه بتمامه أحمد (٢/١٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٧١)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٨١).

وذكر شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة فقال: هل لك من مال؟ قال: قلت: نعم. قال: من أي المال؟ قلت: من كل المال، قد آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم. قال: فإذا آتاك الله مالا فلْيُرَ عليك»(١)

وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه»(٢) وروى عبد الله بن يزيد المقرى عن أبي معمر عن بكير بن عبد الله رفعه: «من أُعطِيَ خيرًا فرؤى عليه سُمِّيَ حبيبَ الله محدِّثًا بنعمة الله، ومن أُعطِيَ خيرًا ولم يُرَ عليه سُمِّيَ بغيض الله معاديًا لنعمة الله» وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة، لقول الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(إبراهيم: ٧) وقال: «من شكر النعمة أن يحدث بها» وقد قال تعالى: «يا ابن آدم، إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرني لأصرعك بين معاصي، يا ابن آدم اتَّقِني ونَمْ حيث شئت».

وقال الشعبي: «الشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» «لا تضركم دنيا شكرتموها» وقال الحسن: «إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادرًا على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادرًا على أن يبعث نعمته عليهم عذابًا» وقد ذم الله سبحانه الكنود وهو الذى لا يشكر نعمه. قال الحسن:«﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾(العاديات: ٦) يعد المصائب وينسى النعم» وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب، قال: «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قطّ» (٣) فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهي في الحقيقة من الله،

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٦٣)، والنسائي (٥٢٣٩)، وأحمد (١٣٧/٤)، وابن حبان (٥٤١٦)، والحاكم (٢٤/١)، والطبراني في «الكبير»(٢٧٨/١٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب»(١١٠٠)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤).

(٢) عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» لابن أبي الدنيا في «قرى الضيف» وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧١٥).

(٣) رواه البخاري (١٥٠٢)، ومسلم (٩٠٧)، وأبو داود (١١٨١)، والنسائي (١٤٩٢)، وأحمد (١/ ٢٩٨، ٣٥/٦)، وابن حبان (٢٨٣٢)، وابن خزيمة (١٣٧٧)، والضياء في «المختارة» (٢٤٨)، والبيهقي (٣٢١/٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٤٩٢٥).

فكيف بمن ترك شكر نعمة الله:

يا أيُّها الظالمُ في فعله والظلمُ مردودٌ علَى مَنْ ظَلَمْ
إلى متى أنتَ وحتّى متى تشكو المصيباتِ وتنسى النِّعَمْ؟

ذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «التحدث بالنعمة شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة عذاب»[1] وقال مطرف بن عبد الله: «نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة، ولأن أُعافَى فأشكر أحب إلي من أن أُبتلَى فأصبر» ورأى بكر بن عبد الله المزني حمالاً عليه حمله وهو يقول: الحمد الله أستغفر الله، قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيرًا كثيرًا، أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمة وذنب؛ فأحمد الله على نعمه السابغة، وأستغفره لذنوبي، فقلت: الحمال أفقه من بكر».

وذكر الترمذي من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردًّا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[2]. وقال مسعر: لما قيل لآل داود: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾(سبأ: ١٣) لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلٍّ.

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٧٨)، والبزار (٣٢٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩٧) من حديث النعمان بن بشير، وله شواهد من حديث أبي هريرة وأبي سعيد ﷺ، ولذلك صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠١١)، و«الصحيحة» (٦٦٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٢/٤٧٣)، وابن عدي في«الكامل» (٣/٢١٩)،والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٧)،وصححه الحاكم ووافقه الذهبي،وحسنه الألباني في«صحيح الجامع»(٥٠١٤)، و«الصحيحة» (٢١٥٠).

وقال عون بن عبد الله: قال بعض الفقهاء: «إني رأيت في أمري، لم أرَ خيرًا إلا شر معه إلا المعافاة والشكر، فرُبَّ شاكر في بلائه وربَّ معافى غير شاكر، فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعًا» وقال أبو معاوية: «لبس عمر بن الخطاب قميصًا فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به في حياتى، ثم مد يديه فنظر شيئًا يزيد على يديه فقطعه ثم أنشأ يحدث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من لبس ثوبا (أحسبه بديدًا) فقال حين يبلغ ترقوته، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك، ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسا به مسكينًا لم يزل في جوار الله وفي ذمة الله وفي كنف الله حيًّا وميتًا ما بقى من ذلك الثوب سلك»[1].

وقال عون بن عبد الله: «لبس رجل قميصًا جديدًا فحمد الله فغفر له، فقال رجل: ارجع حتى أشترى قميصًا فألبسه وأحمد الله» وقال شريح: «ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألاَّ تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت».

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: «ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: «اللهم إنى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرًا، وأن أكفرها بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثنى بها». وقال روح بن القاسم: «تنسك رجل فقال: لا آكل الخبيص، لا أقوم بشكره» فقال الحسن: «هذا أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد؟».

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله عزوجل: «ابن آدم، خيرى إليك نازل، وشرك إلى صاعد، أتحبَّب إليك بالنعم وتتبغض إلى بالمعاصى، ولا يزال مَلَكٌ كريم قد عرج إلَيَّ منك بعمل قبيح»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٦٠)، وابن ماجه (٣٥٥٧)، وأحمد (٤٤/١)، والبيهقي في «الشعب»(٦٢٨٦)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٢٧) و«الضعيفة» (٤٦٤٩).

(٢) ذكره المناوى فى «فيض القدير» (٤٩٤/٤) عن معاذ بن أنس بن مالك، وقال: قال الهيثمي: إسناده حسن. أهـ.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو على قال: كنت أسمع جارًا لي يقول في الليل: يا إلهي خيرك على نازل وشرى إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك منى بعمل قبيح، وأنت مع غناك عنى تتحبَّب إليَّ بالنعم، وأنا مع فقرى إليك وفاقتى أتَمَقَّت إليك بالمعاصى، وأنت في ذلك تجبرنى وتسترنى وترزقنى!». وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: «أصبحنا مغرقين في النعم عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غنى عنا ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون». وقال عبد الله بن ثعلبة: «إلهي، من كرمك أنك تطاع ولا تعصى، ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى، وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد» وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوبًا جديدًا قال: «بسم الله والحمد لله» وقال أنس بن مالك: «ما من عبد توكَّل بعبادة الله إلا عزم الله السموات والأرض تعبر رزقه فجعله في أيدى بنى آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه، فإن قَبِلَه العبدُ أوجب عليه الشكر، وإن أباه وجد الغنيُّ الحميد عبادًا فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له».

وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبى تميمة: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت بين نعمتين لا أدرى أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يُعَيِّرنى بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملى».

وروى ابن أبى الدنيا عن سعيد المقبرى عن أبيه عن عبد الله بن سلام أن موسى ﷺ قال: «يارب ما الشكر الذى ينبغى لك؟ قال: لا يزال لسانك رطبًا من ذكرى»[1] وروى سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة ﷺ قال: «دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه قال: الحمد لله الذى يُطعِم ولا يُطعَم، مَنَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكلَّ بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودَّع ربى ولا مكافأً ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذى أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسا من العُرْى، وهدى من الضلالة، وبصَّر من العمى، وفضَّل على كثير من خلقه تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين»[2].

---

(١) رواه ابن المبارك فى «الزهد» (٩٤٢)، وابن أبى شيبة فى «المصنف» (٧٣/٧)، والطبرانى فى «الأوسط» (٢٩٢)، والبيهقى فى «الشعب» (٦٧٩).

(٢) رواه النسائى فى «الكبرى» (١٠١٣٣)، وابن حبان «موارد -١٣٥٢»، وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/ ٢٤٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٧٧)، والحاكم (٥٤٦/١) وصححه ووافقه الذهبي.

وفي مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت» (١) ويذكر عن عائشة - رضى الله عنها - ﷺ دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها وقال: يا عائشة أحسنى جوار نعم الله، فإنها قلّما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم»(٢) ذكره ابن أبى الدنيا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا صالح عن أبى عمران الجونى عن أبى الخلد قال: قرأت في مسألة داود أنه قال: «يا ربِّ كيف لى أن أشكر وأنا لا أَصِلُ إلى شكرك إلا بنعمك؟ قال: فأتاه الوحى: يا داود، أليس تعلم أن الذى بك من النعم مِنِّى؟ قال: بلى يا رب. قال: فإنى أرضى بذلك منك شكرًا»(٣).

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبو موسى الأنصارى حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان من دعاء داود: «سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء» (٤) وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنى الأعمش عن المنهال عن عبد الله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود: «أحِبَّنى وأَحِبَّ عبادتى وحبِّبْنى إلى عبادى. قال: يا رب، هذا حبك وحب عبادتك فكيف أُحَبِّبك إلى عبادك؟ قال: تذكرنى عندهم فإنهم لا يذكرون منِّى إلا الحسن»(٥) فجلَّ جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جَدُّه وتقدست أسماؤه وجل ثناؤه ولا إله غيره.

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بن عمران قال: سمعت وهبًا يقول: وجدت في كتاب

---

(١) رواه الطبراني في الصغير(١/٣٥٢) والأوسط (٥٩٩٥) والبيهقي في «الشعب»(٤٣٦٩)، والخطيب في «الموضح» (٤٣٢) من حديث أنس وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٠٢٦).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٥١) والبيهقي في «الشعب» (٤٥٥٧) وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٢) والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/٢٢٨) وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٤).

(٣) رواه أحمد في «الزهد» (ص٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٥٦).

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» (٤٤٣٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/١٢٥).

(٥)رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف(٧/٦٨) عن عبدالله بن الحارث، ورواه البيهقي في «الشعب»(٧٦٦٨)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٤٥٤٣) عن ابن عباس مرفوعًا وإسناده ضعيف، عبد الله بن صالح كاتب الليث صدوق يخطئ كثيرًا، وعليّ بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس.

آل داود: «بعزتى إن من اعتصم بى فإنْ كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بى فإنى أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء ثم أَكِلُه إلى نفسه، كفى بى لعبدى مالاً، إذا كان عبدى في طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى، وأجبته قبل أن يدعونى، وإنى أعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه».

وقال أحمد: حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعةٌ من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فيها. قال: فعمَّهم تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ (سبأ: ١٣).

قال أحمد: وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عيينة، قال داود: يا ربِّ، هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكرًا لك منّى؟ فأوحى الله إليه: نعم الضفدع. وأنـــزل الله عليه: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ قال: يا ربِّ، كيف أطيق شكرك وأنت الذى تنعم علَيَّ ثم ترزقنى على النعمة الشكر ثم تزيدنى نعمة بعد نعمة، فالنعم منك والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ قال: الآن عرفتنى يا داود»[١] قال أحمد: وحدثنا الربيع بن صبيح عن الحسن، قال نبى الله داود: «إلهى لو أن لكل شعرة منى لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة»[٢].

وذكر ابن أبى الدنيا عن أبى عمران الجونى عن أبى الخلد قال: قال موسى: «يا رب كيف لى أن أشكرك وأصغرُ نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى كلُّه؟ قال: فأتاه الوحى: يا موسى الآن شكرتنى»[٣].

قال بكر بن عبد الله: ما قال عبدٌ قَطُّ: الحمد لله، إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص ٦٩)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٤١٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢/٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٧٩).

(٣) حلية الأولياء (٥٦/٦) والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٥).

لله، فجزاء تلك النعمة أن يقول: الحمد لله، فجاءت نعمة أخرى، فلا تنفد نعم الله» وقال الحسن: سمع نبى الله رجلاً يقول: «الحمد لله بالإسلام، فقال: إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة»[1] وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: ما قال عبدٌ كلمةً أحب إلى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا للإسلام».

وقال سليمان التيمى: إن الله سبحانه أنعم على عبده على قدره وكلفهم الشكر على قدرتهم. وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: الحمد لله، اللهُمَّ ربَّنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كَبَتَّ عدونا وبسطْتَ رزقنا، وأظهرت أَمْنَنا وجمعت فرقتنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سرٍّ أو علانية أو خاصة أو عامة، أو حيٍّ أو ميت أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت».

وقال الحسن: قال موسى: يا ربِّ كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت إليه، خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسكنته جنتك وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى علم أن ذلك منى فحمدنى عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه». وقال سعد بن مسعود الثقفي: «إنما سُمِّيَ نوح عبدًا شكورًا لأنه لم يلبس جديدًا ولم يأكل طعامًا إلا حمد الله». وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها.

قال مخلد بن الحسين: كان يقال: «الشكر ترك المعاصى» وقال أبو حازم: «كل نعمة لا تقرِّب من الله فهى بلية» وقال سليمان: ذكر النعم يورث الحب لله. وقال حماد بن زيد: حدثنا ليث عن أبى بردة قال: قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لى: ألا تدخل بيتًا

(١) أخرجه الضياء في «المختارة» (١٨٧٣) من حديث أنس ﷺ مرفوعًا.

دخله النبي ﷺ ونطعمك سويقًا وتمرًا؟[1] ثم قال: إن الله إذا جمع الناس غدًا ذكرهم بما أنعم عليهم، فيقول العبد: ما آية ذلك؟ فيقول: آية ذلك أنك كنت في كربة كذا وكذا قد دعوتنى فكشفتها، وآية ذلك أنك كنت في سفر كذا وكذا فاستصحبتنى فصحبتك. قال: يذكّره حتى يذكر. فيقول: آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم. يقف عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فبكى ثم بكى ثم قال: إنى لأرجو الله أن لا يُقْعِدَ الله عبدًا بين يديه فيعذبه»[2].

وروى ليث بن أبى سليم عن عثمان عن ابن سيرين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «يُؤتَى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عزوجل لنعمة من نعمه: خذى حقك من حسناته فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها»[3].

وقال بكر بن عبد الله المزنى: ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله فيصرف عنه، فيأتيه الشيطان فيضعف شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه، قال: أو لا يقول العبد: كان الأمر أشد مما أذهب إليه ولكن الله صرفه عنى» وذكر ابن أبى الدنيا عن صدقة بن يسار قال: بينا داود عليه السلام في محرابه إذ مرت به ذَرَّةٌ فنظر إليها وفكر في خلقها وعجب منها وقال: «ما يعبؤ الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك؟ فو الذى نفسى بيده لأنا على ما آتانى الله من فضله أَشْكَرُ منك على ما آتاك الله من فضله».

وقال أيوب: «إن من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأمونًا على ماجاء به النبي ﷺ ». وقال سفيان الثورى: «كان يقال: ليس بفقيه من لم يَعُدَّ البلاء نعمة والرخاء مصيبة» وقال زازان: «مما يجب لله على ذى النعمة بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية». قال ابن

(١) إلى هنا رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب: مناقب عبد الله بن سلام برقم (٣٨١٤).
(٢) إسناده ضعيف من أجل ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.
(٣) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٧٦٣)، وعزاه ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (الحديث السادس والعشرون) لابن أبي الدنيا، وضعّفه. وفي سنده أيضًا ليث بن أبي سليم وهو ضعيف مختلط.

أبى الدنيا: أنشدنى محمود الوراق:

إذا كــان شكرى نعمةَ اللهِ نعمةً	علــيَّ له في مثْلها يَجبُ الشكرُ
فكــيف وقوعُ الشكرِ إلا بفضلهِ	وإنْ طالت الأيامُ واتَّصلَ العُمْرُ
إذا مــسَّ بالسرَّاءِ عمَّ سرورُها	وإنْ مسَّ بالضرَّاءِ أعقبها الأجْرُ
ومــا مــنهما إلا له فــيه مِنَّةٌ	تضيقُ بها الأوهامُ والبَرُّ والبحرُ

وقد روى الدَّراوَرْدِيُّ عن عمرو بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ - يعنى قال الله ﷻ - : «**إن المؤمن عندى بمنزلة كل خير، يحمدنى وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه**»[1] ومر محمد بن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال: يا فتى، ما هذا جزاء نعم الله عليك» وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال: قال أبو العالية: «إنى لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين: نعمةٍ يحمد الله عليها وذنبٍ يستغفر منه».

وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخَفِ الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعم حجة وفيها تبعة، فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق» ومر الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة[2] فجلس يحمد الله ويبكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء، فذلك الذى أبكانى».

وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : «**إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوقه**» [3] قال عبد الله بن المبارك: أخبرنى يحيى بن

(١) رواه أحمد (٣٤١/٢، ٣٦١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩٦/١٠): ورجاله رجال الصحيح. أهـ.
(٢) الزمانة: مرض يدوم طويلاً.
(٣) رواه البخاري(٦٤٩٠) ومسلم(٢٩٦٣) والترمذي(١٧٨٠) وأحمد (٣١٤/٢) وابن حبان (٧١١) والطبراني في الأوسط (٥٧٨).

عبد الله قال: سمعت أبى هريرة، فذكره.

وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: «من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ عمله وحضر عذابه»[1] قال ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس ﷺ قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ سلم على رجل فرد عليه السلام، فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله. قال: هذا أردت منك[2]. قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرثد عن ابن عمر - رضي الله عنهما- قال: «**لعلنا نلتقي في اليوم مرارًا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله ﷻ**» [3]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(لقمان: ٢٠) قال: «لا إله إلا الله» وقال ابن عيينة: «ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال: وإن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا».

وقال بعض السلف في خطبته يوم عيد: «أصبحتم زُهرًا وأصبح الناس غُبْرًا، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون، فبكى وأبكاهم»[4].

وقال عبد الله بن قرط الأزدى - وكان من الصحابة - على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب: يا لها من نعمة ما أشبعها، ومن كرامة ما أظهرها، ما زال عن قوم شيءٌ أشدُّ من نعمة لا يستطيعون ردَّها، وإنما تثبت النعمة بشكر المنعَم عليه للمنعِم».

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص ١٣٤) والديلمي في «مسند الفردوس»(٥٩٥٦).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٣٢) وابن المبارك في «الزهد» (٢٠٥) وإسناده صحيح رجال الستة.

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢٠٧)، والبيهقي (٤٤٥١).

(٤) القائل هو: عبد الله بن مخمر، ذكره ابن حجر في الصحابة «الإصابة (٦٣٥٤)» وابن قانع في «معجم الصحابة» (٥٩٣)، والأثر رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢٥١/٧).

وقـال سـلمان الفارسـى ﷺ : «إن رجلاً بُسِطَ له من الدنيا فانتزع ما في يديه، فجعل يحمـد الله ويثـنى علـيه حـتى لم يكـن له فـراش إلا باريـة، قـال: فجعـل يحمد الله ويثني عليه، وبسـط لآخـر مـن الدنـيا فقـال لصاحب البارية[1]: أرأيتك أنت علامَ تحمد الله؟ قال: أحمده عـلى مـا لـو أُعْطِيتُ بـه ما أُعْطِيَ الخَلْقُ لم أُعْطِهم إيَّاه. قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك، أرأيتك لسـانك، أرأيتك يديـك، أرايتك رجلـيك؟» وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضـيق حالـه فقـال له يونـس: أيَسُرُّك ببصـرك هـذه مائـة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبـيديك مائـة ألـف؟ قـال: لا، فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكَّره نعم الله عليه فقال يونـس: أرى عـندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة!». وكان أبو الدرداء يقول: «الصحة الملك».

وقـال جعفـر بـن محمـد ﷺ : فقد أبي بغلةً له فقال: إنْ ردَّها الله عليَّ لأحمدنه بمحامد يرضـاها، فمـا لبث أن أتي بسرجها ولجامها، فركبها فلما استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسـه إلى السـماء فقال: الحمد لله، لم يزد عليها، فقيل له في ذلك فقال: هل تركت وأبقيت شيئًا؟ جعلت الحمد كله لله».

وروى ابـن أبـى الدنـيا مـن حديـث سـعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جـده قـال: بعث رسول الله بعثًا من الأنصار وقال: «إن سلَّمهم الله وغنَّمهم فإن لله عليَّ في ذلـك شـكرًا، قـال فـلم يلبـثوا أن غـنموا وسـلموا، فقـال بعض أصحابه: سمعناك تقول: إن سـلمهم الله وغـنمهم فـإن لله عـلى في ذلـك شكرًا؟ قال: قد فعلت، اللهم لك الحمد شكرًا ولك المنُّ فضلاً»[2] .

---

(١) البارية: الحصير، فارسي معرب.

(٢) رواه الطـبراني في «الكـبير» (١٤٤/١٩) والبـيهقي في «الشـعب» (٤٣٩١)، وقـال الهيـثمي في «المجمـع» (١٨٥/٤): وفـيه سـليمان بـن سـالم المدني وهـو ضـعيف.أهـ. وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢١٣): ضعيف جدًا.أهـ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال محمد بن المنكدر لأبى حازم: يا أبا حازم، ما أكثر من يلقانى فيدعو لى بالخير ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرًا قط؟ فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قِبَلِك، ولكن انظر إلى الذى ذلك من قبله فاشكره. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾(مريم: ٩٦) وقال على بن الجعد: حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون حدثنى من أصدقه أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يقول في دعائه: «أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها يا كريم».

وقال الحسن: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ». قال ابن أبى الدنيا: وبلغنى عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا خطأ، لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله، ثم قال: وقال بعض أهل العلم: إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرَّفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغى له أن يشكره، فكان الحمد له أفضل».

قلت: لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة، فإن قوله: «الحمد لله» نعمة من نعم الله، والنعمة التى حمد الله عليها - أيضًا - نعمة من نعم الله، وبعض النعم أجَلُّ من بعض، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها، والله أعلم، وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله، وفعل العبد هو مفعول الله. ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

وقال بعض أهل العلم: «لَنِعَمُ اللهِ علينا فيما زُوِىَ عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بُسِطَ لنا منها، وذلك أن الله لم يَرْضَ لنبيه الدنيا، فإن أَكُنْ فيما رضى الله لنبيه وأحب له أَحَبُّ إلىَّ من أن أكون فيما كره له وسخطه».

وقال ابن أبى الدنيا: بلغنى عن بعض العلماء أنه قال: ينبغى للعالم أن يحمد الله على ما

زوى عنه من شهوات الدنيا كما يحمده على ما أعطاه، وأين يقع ما أعطاه الله والحساب يأتي عليه، إلى ما عافاه الله ولم يَبْتَلِهِ به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه.

وحدث عن ابن أبى الحوارى قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم فجعل سفيان يقول: «أنعم الله علينا في كذا وكذا، أنعم الله علينا في كذا، فعل بنا كذا» وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان في قوله:﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(الأعراف: ١٨٢) . قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر. وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة. وسئل ثابت البنانى عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين. وقال يونس في تفسيرها: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقى عليها ثم شكر الله بما أعطاه، أعطاه أشرف منها، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله وكان تضييعه الشكر استدراجًا. وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها، إنى رأيته أعطاها أقوامًا فهلكوا، وكل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

وذكر كاتب الليث عن هقل عن الأوزاعى أنه وعظهم فقال في موعظته: «أيها الناس تقَوَّوا بهذه النعم التى أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة، فإنكم في دارِ الثوى[1] فيها قليل، وأنتم فيها مُرْجَوْن خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارًا وأمد أجسامًا وأعظم آثارًا، فقطعوا الجبال وجابوا الصخور ونقَّبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم، فما تحسُّ منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزًا، كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتًا من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في

(١) الثوى: البقاء والإقامة.

دارهـم جـاثمين، وأصبـح الباقون ينظرون في آثارهم نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آيـة للذيـن يخـافون العـذاب الألـيم، وعبرة لمن يخشى، وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنـيا مقبوضـة وزمـان قـد ولى عفـوه وذهب رخاؤه، فلم يبق منه إلا حماة شر وصبابة كدر وأهاويل عبر، وعقوبات غِيَر، وإرسال فتن، وتتابع زلازل، ورذلة خلف، بهم ظهر الفساد في الـبر والـبحر، ولا تكونـوا أشـباهًا لمن خدعه الأمل وغرَّه طول الأجل، وتبلَّغ بطول الأماني، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره وعقل بشراه فمهَّد لنفسه.

وكـان يقـال: «الشكر ترك المعصية» وقال ابن المبارك: قال سفيان: ليس بفقيه فمن لم يعـد الـبلاء نعمـةً والرخاء مصيبة. وكان مروان بن الحكم إذا ذكر الإسلام قال: بنعمة ربى وصلت إليه لا بما قدمت يدى ولا بإرادتى، إنى كنت خاطئًا:

لكنــت بـــه نَكـــالاً في العشيرةْ — وكـــم من مدخلٍ لو متُّ فيهِ
ظَفــرْتُ بـــنعمةٍ منـــــهُ كبيرةْ — وُقيــتُ السوءَ والمكروهَ فيهِ
وتُصبِحُ في العيانِ وفي السريرةْ — وكـــم مـــن نعمة لله تُمْسِـــى

ودُعِيَ عثمان بن عفان ﷺ إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم، فتفرقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق رقبة شكرًا لله أن لا يكون جرى على يديه خزى مسلم. قال يزيد بن هارون: أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحًا ؈ كان إذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذى أذاقنى لذته وأبقى منفته في جسدى، وأذهب عنى أذاه فسمى عبدًا شكورًا». وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى العباس بن جعفر عن الحارث بن شبل قال: حدثتنا أم النعمان أن عائشة حدثتها عن النبي ﷺ أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله[1]. وقال رجل لأبى حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيت بهما شرًّا سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرًا وعيته وإن سمعت بهما شرًّا دفعته، قال: فما شكر اليدين؟ قـال:

(١) ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٨٨)، و«الضعيفة» (٤١٨٧).

لا تأخذ بهما ما ليس لهما ولا تمنع حقا لله هو فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا وأعلاه علمًا. قال: فما شكر الفرج؟ قال: قال الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾(المؤمنون: ٥-٧) قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن علمت ميتًا تغبطه استعملت بهما عمله، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله»[1].

وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر؟

وذكر عبد الله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم، إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان، التقوا بوادٍ يقال له بدر، كثير الأراك كأني أنظر إليه، كنت أرعى به لسيدي رجل من بني ضمرة، فقال له جعفر: ما بالك جالسا على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق؟ قال: إنَّا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام «إن حقًّا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعًا عندما أحدث الله لهم من نعمه، فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع»[2].

وقال حبيب بن عبيد: «ما ابتلى الله عبدًا ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة، إلا يكون أشد منه» وقال عبد الملك بن إسحاق: «ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره».

وقال سفيان الثوري: «لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها»

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٦٤).
(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٩٢)، وإسناده ضعيف.

وكان رسول الله ﷺ «إذا جاءه أمر يَسُرُّه خَرَّ لله ساجدًا شكرًا له ﷻ»[1] ذكره أحمد. وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: خرج علينا النبي ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخرَّ ساجدًا فأطال السجود، فقلت: يا رسول الله، سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها، فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله ﷻ يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله شكرًا»[2] ذكره أحمد.

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريبا من عزورا نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة ثم خر ساجدًا فمكث طويلا ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر ساجدًا، فعله ثلاثًا وقال: إني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجدًا شكرًا لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجدًا لربي، ثم رفعت رأسي فسألت ربي ربي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجدًا لربي»[3] رواه أبو داود.

وذكر محمد بن إسحاق في كتاب الفتوح قال: لما جاء المبشر يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه رسول الله ﷺ ثلاثة إيمان بالله الذي لا اله إلا هو لقد رأيته قتيلاً، فحلف له فخَرَّ رسول الله ﷺ ساجدًا.

وذكر سعيد بن منصور أن أبا بكر الصديق ﷺ سجد حين جاءه قتل مسيلمة[4]. وذكر أحمد أن عليًا ﷺ سجد حين وجد ذا الثُّدية في الخوارج[5] وسجد كعب بن مالك في

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٢٨٢)، وابن ماجه (١٣٩٤)، وقال الترمذي: «حسن غريب» وحسّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٢٨٢).

(٢) رواه أحمد (١/١٩١)، والحاكم (١/٥٥٠)، والمروزي في «الصلاة» (٢٣٦)، والضياء في «المختارة» (٩٢٨)، والبيهقي (٢/٢٧١)، وضعّفه الألباني.

(٣) رواه أبو داود (٢٧٧٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/٣٧٠)، وضعّفه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٨٩)، «الإرواء» (٤٧٤).

(٤) ضعّفه الألباني في «الإرواء» (٤٧٥).

(٥) رواه أحمد (١/١٠٧)، وحسّنه الألباني في «الإرواء» (٤٧٦).

عهد النبي ﷺ لما بُشِّر بتوبة الله عليه، والقصة في الصحيحين[1].

فإن قيل: فنعم الله دائما مستمرة على العبد، فما الذى اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة، وقد تكون المستدامة أعظم؟ قيل: الجواب من وجوه:

أحدها: أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة، والإنسان موكَّل بالأدنى.

الثاني: أن هذه النعمة المتجددة تستدعي عبودية مجددة، وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكرًا له.

الثالث: أن المتجددة لها وقع في النفوس، والقلوب بها أعلق؛ ولهذا يُهَنَّى بها ويُعَزَّى بفقدها.

الرابع: أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها، وكثيرًا ما يجرُّ ذلك إلى الأَشَر والبَطَر، والسجود ذل لله وعبودية وخضوع، فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديرًا بدوام تلك النعمة، وإذا تلقاها بالفرح الذى لا يحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال وانقلبت نقمة وعادت استدراجًا، وقد تقدم أمر النجاشى، فإن الله إذا أحدث لعبده نعمة أحب أن يحدث لها تواضعًا. وقال العلاء بن المغيرة: بشرت الحسن بموت الحجاج وهو مُخْتَفٍ فخر لله ساجدًا.

(فصـــــل) ومن دقيق نعم الله على العبد التى لا يكاد يفطن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القوت ليعرِّفه نعمته عليه.

وقال سلام بن أبي مطيع: «دخلت على مريض أعوده فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكرى المطروحين في الطريق، اذكرى من لا مأوى له ولا له من يخدمه».

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٩)، ومسلم (٢٧٦٩)، وأبو داود (٣٣١٧، ٤٦٠٠)، والترمذي (٣١٠٢)، والنسائي (٧٣٠).

وقال عبد الله بن أبي نوح: «قال لى رجل على بعض السواحل: كم عاملتَه تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أحصى ذلك كثرة. قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت: لا والله، ولكنه أحسن إليَّ وأعانني. قال: فهل سألته شيئا فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعنى شيئا سألته؟ ما سألته شيئا قط إلا أعطانى ولا استعنت به إلا أعاننى. قال: أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال، ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء. قال: فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره، وهو المحسن قديمًا وحديثًا إليك، واللهِ لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضى من العباد بالحمد شكرًا» وقال سفيان الثورى: «ما كان الله لينعم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه».

وقال ابن أبى الحوارى: قلت لأبى معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد، نسأل الله أن لا يسلبنا إياه. قال: «يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قَبِلَه» وقال ابن أبى الحوارى: قالت لى امرأة: أنا في بيتى قد شغل قلبى. قلت: وما هو؟ قالت: أريد أن أعرف نعم الله عليَّ في طرفة عين، أو أعرف تقصيرى عن شكر النعمة عليَّ في طرفة عين. قلت: تريدين ما لا تهتدى إليه عقولنا.

وقال ابن زيد: إنه لَيَكونُ في المجلس الرجل الواحد يحمد الله ﷻ فيقضى لذلك المجلس حوائجهم كلهم، قال: وفي بعض الكتب التى أنزلها الله تعالى أنه قال: سُرُّوا عبدى المؤمن، فكان لا يأتيه شيء إلا قال: الحمد لله ما شاء الله، قال: رَوِّعوا عبدى المؤمن، فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال: الحمد لله، الحمد لله، فقال الله تبارك وتعالى: «إن عبدى يحمدنى حين روَّعته كما يحمدنى حين سررته، أدخلوا عبدى دار عِزّى كما يحمدنى على كل حالاته».

وقال وهب: عَبَدَ اللهَ عابدٌ خمسين عامًا فأوحى الله إليه: إنى قد غفرت لك، قال: أى رَبِّ، وما تغفر لى ولم أذنب؟ فأذن الله لعرق في عنقه يضرب عليه فلم يَنَمْ ولم يُصَلِّ ثم سكن فنام، ثم أتاه مَلَكٌ فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول:

إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق.

وذكر ابن أبي الدنيا أن داود قال: «يارب، أخبرني ما أدنى نعمك عليَّ؟ فأوحى الله إليه: يا داود تَنَفَّس، فتنفس. قال: هذا أدنى نعمي عليك».

(فصـــــل) وبهذا يتبين معنى الحديث الذى رواه أبو داود من حديث زيد بن ثابت وابن عباس: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم»[1]. والحديث الذى في الصحيح: «لن يُنْجِيَ أحدًا منكم عملُه . قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»[2] فإن أعمال العبد لا توافي نعمة من نعم الله عليه.

وأما قول بعض الفقهاء إن من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد كان بر يمينه أن يقول: الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، فهذا ليس بحديث عن رسول الله ولا عن أحد من الصحابة، وإنما هو إسرائيلى عن آدم، وأصح منه: «الحمد لله غير مكفي ولا مودَّع ولا مستغنى عنه ربُّنا»[3]، ولا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله فضلاً عن موافاته جميع نعمه، ولا يكون فعل العبد وحمده مكافئًا للمزيد، ولكن يحمل على وجه يصح، وهو أن الذى يستحقه الله سبحانه من الحمد حمدًا يكون موافيًا لنعمه ومكافئًا لمزيده وإن لم يقدر العبد أن يأتي به كما إذا قال: «الحمد لله ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، وعدد الرمال والتراب والحصى والقطر، وعدد أنفاس الخلائق، وعدد ما خلق الله وما هو خالق» فهذا إخبار عما يستحقه من الحمد لا عما يقع من العبد من الحمد.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (١٨٢/٥، ١٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٢٠).

(٢) رواه البخاري(٦٤٦٤)، ومسلم(٢٨١٨) من حديث عائشة رضى الله عنها، ورواه مسلم(٢٨١٦) عن أبي هريرة ﷺ، وبرقم (٢٨١٧) عن جابر ﷺنحوه.

(٣) رواه البخاري (٥٤٥٨) وأبو داود (٣٨٤٩)، والترمذي (٣٤٥٦)، وابن ماجه (٣٢٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١١٥)، وأحمد (٢٥٢/٥) من حديث أبي أمامة ﷺ

(فصـــــــل) وقـال أبـو المليـح: قـال موسـى: «يـا رب مـا أفضل الشكر؟ قال: أن تشكرني علىأي حال» وقـال بكر بن عبد الله: قلت لأخ لي: أوصني، فقال: ما أدرى ما أقـول غـير أنـه ينبغي لهـذا العبـد أن لا يفـتر مـن الحمـد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنب، ولا تصـلح الـنعمة إلا بـالحمد والشـكر، ولا يصـلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار، فأوسعني علمًا ما شئت.

وقـال عـبد العزيـز بن أبي داود: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة فكأنه رأى ما شق عليَّ منها فقال لي: أتدرى ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي ولا طرف لساني ولا على طرف ذكرتي؟ فهانت عليَّ قرحته.

وروى الجُرَيْـريُّ عـن أبـي الوَرْد عن اللَّجلاج عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ أتـى على رجل وهو يقول: «اللهُمَّ إنِّي أسألك تمام النعمة، فقال: ابن آدم، هل تدرى ما تمام الـنعمة؟ قـال: يارسـول الله دعوت دعْوة أرجو بها الخير، فقال: إن تمام النعمة فوزٌ من النار ودخولٌ في الجنة»[1].

وقال سهم بن سلمة: حُدِّثْتُ أن الرجل إذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام.

(فصـــــــل) ويـدل عـلى فضـل الشـكر عـلى الصبر أن الله سبحانه يحب أن يسأل العافية، وما يسأل شيئا أحب إليه من العافية كما في المسند عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ قـال: قـام أبو بكر ﷺعلى المنبر ثم قال: «سلوا الله العافية فإنه لم يُعْطِ عبدًا بعد اليقين خيرًا من العافية»[2].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد»(٧٢٥)، والترمذي(٣٥٢٧)، وأحمد(٥/٢٣١)، وابن أبي شيبة في «تصنيف المصنف» (٤٦/٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٢٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٠٤)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٤٨١).

(٢) رواه الترمذي(٣٥٥٨)، والنسائي في«الكبرى»(١٠٧١٥، ١٠٧١٩)، والبخاري في«الأدب»(٧٢٣ -٧٢٥)، وابن حبان (موارد - ٢٤٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٢٦) من حديث أبي بكر ﷺمرفوعًا.

وفي حديث آخر: «**إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئا أفضل من العفو والعافية فسلوهما الله ﷻ**» [1] وقال لعمه العباس: «**يا عمّ، أكثر من الدعاء بالعافية**» [2] وفي الترمذى قلت: «**يا رسول الله، علّمنى شيئًا أسأله الله. قال: سَل الله العافية. فمكثت أيامًا ثم جئت فقلت: علمنى شيئا أسأله الله. فقال لى: يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة**» [3] وقال في دعائه يوم الطائف: «**إن لم يكن بك علَيَّ غضب فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسع لى**» [4] فلاذ بعافيته، كما استعاذ بها في قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**» [5].

وفي حديث آخر: «**سلوا الله العفو والعافية والمعافاة**» [6] وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى، والعافية في الحال، والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها. وكان عبد الأعلى التيمى يقول: «أكثروا من سؤال الله العافية فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجرُّ إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنه رُبَّ بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة، ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذى إن نَعُدَّ نعمه لا نحصيها، وإن ندأب له عملا لا

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٢)، وأحمد (١/٨١).

(٢) رواه الحاكم (١/٥٢٩)، والضياء في «المختارة» (٤٦٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٧٠): رواه الطبراني، وفيه هلال بن خباب، وهو ثقة وقد ضعَّفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.أهـ. والحديث صحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٥٢٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٥١٤)، والبخاري في «الأدب» (٧٢٦)، وأحمد (١/٢٠٩). وصححه الألباني، وانظر «الصحيحة» (١٥٢٣).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، والنسائي (١٦٩)، وابن ماجه (٣٨٤١)، وأحمد (٦/٢٠١)، وابن خزيمة (٦٥٥).

(٦) لم أجده بهذا اللفظ. وقد سبقت بعض ألفاظه قبل حديثين.

نجزيها، وإن نعمَّر فيها لا نبليها» ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر فقال: «**لقد سألت البلاء فاسأل العافية**»[1] وفي صحيح مسلم أنه ﷺ عاد رجلاً قد هَفُتَ - أي هزل - فصار مثل الفرخ، فقال: هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «**سبحانه، لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟ فدعا الله له فشفاه**»[2]. وفي الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: دعاء حفظته من رسول الله ﷺ لا أَدَعُه: «**اللهم اجعلني أعظم شكرك وأكثر ذكرك وأتبع نصيحتك وأحفظ وصيتك**»[3].

وقال شيبان كان الحسن إذا جلس مجلسًا يقول: «لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال، بسَطْتَ رزقنا وأظهرت أمننا وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيرًا كما تنعم كثيرًا، أعطيت خيرًا كثيرًا وصرفت شرًّا كثيرًا، فلوجهك الجليل الباقي الدايم الحمد». وكان بعض السلف يقول: اللهم ما أصبح بنا من نعمة أو عافية أو كرامة في دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهي جارية علينا فيما بقي فإنها منك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد بذلك علينا، ولك المَنُّ ولك الفضل، ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك، لا اله إلا أنت.

وقال مجاهد: إذا كان ابن عمر في سفر فطلع الفجر رفع صوته ونادى: «سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا، ثلاثًا، اللهم صاحِبْنا فأَفْضِلْ علينا، عائذ بالله من النار

(١) سبق تخريجه بلفظ: «تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة».

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٤٨٧)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٩٢)، والبخاري في «الأدب» (٧٢٧)، وأحمد (٣/١٠٧)، وابن حبان (٩٣٦)، وابن المبارك في «الزهد» (٩٧٣) وأبو نعيم في الحلية» (٢/٣٢٩)، وأبو يعلى (٣٨٠٢) من حديث أنس ﷺ.

(٣) رواه أحمد (٢/٣١١، ٤٧٧)، والديلمي في «الفردوس» (١٩٢٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٧٢): رواه أحمد من طريق أبي يزيد المدني، وفي رواية أبي سعيد الحمصي، ولم أعرفهما، وبقية رجالهما ثقات.أهـ. وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٦٦).

ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثلاثًا».

وذكر الإمام أحمد أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران ؛ «يا موسى، كن يقظان مرتادًا لنفسك أخدانًا، وكل خِدْن لا يواتيك على مسرتى فلا تصحبه فإنه عدو لك، وهو يقسي قلبك، وأكثر من ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد». وقال الحسن: «خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فدبُّوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى، فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدى؟ قال: يا آدم إني أريد أن أشكر».

وفي السنن عنه ﷺ : «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، إلا أدى شكر ذلك اليوم، ومن قال ذلك حين يُمسى فقد أدى شكر ليلته»[1] ويذكر عن النبي ﷺ : «من ابتُلِيَ فصبر وأُعْطِيَ فشكر وظُلم فغفر وظَلم فاستغفر﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾»[2] ويذكر عنه ﷺ أنه أوصى رجلاً بثلاث، فقال: «أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه، وعليك بالدعاء فإنك لا تدرى متى يستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة»[3].

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا أكل قال: «الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى، وكُلَّ بلاء حسن أبلانى، الحمد لله الرازق ذى القوة المتين، اللهم لا تنزع منا صالحاً أعطيتنا ولا صالحا رزقتنا، واجعلنا لك من الشاكرين».

ويذكر عنه ﷺ أنه إذا أكل قال: «الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوَّغه وجعل له

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٣٥)، وابن حبان (٨٦١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢١٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣١٨) والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣٦٣٦) من حديث عبد الله بن غنام البياضي ، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٣٠).
(٢) ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٣٢٣) وقال: ضعيف جدًا.
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٠٥/٧)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٩٩).

مخرجًا»[1] وكان عروة بن الزبير إذا أتى بطعام لم يزل مخمرًا حتى يقول هذه الكلمات: «الحمد لله الذى هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا، الله أكبر، اللهم ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير نسألك تمامها وشكرها، لا خير إلا خيرك ولا إله غيرك، إله الصالحين ورب العالمين، الحمد لله لا إله إلا الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار».

وقال وهب بن منبه: «رءوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التى لا تتم نعمه إلا بها، والثانية نعمة العافية التى لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا به».

وقدم سعيد الجريرى من الحج فجعل يقول: «أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا، ثم قال: تعداد النعم من الشكر» ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهو يقول: الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: «أى شيء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها؟! فقال له المبتلى: ارْمِ ببصرك إلى أهل المدينة فانظر إلى كثرة أهلها، أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى؟»».

ويذكر عن النبيﷺ أنه قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها»[2]. وذكر على بن أبى طالبﷺ أن بختنصر أتى بدانيال فأمر به فحبس في جُبٍّ وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائمًا يصلى والأسدان في ناحية الجب لم يعرضا له، فقال له: ما قلت حين دفع عنك؟ قال: قلت: الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره، والحمد الله الذى لا يخيب من رجاه، والحمد لله الذى لا يَكِلُ من توكل عليه إلى غيره، والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، والحمد لله الذى

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٥١) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٨٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٠٥).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٠٧/١)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٠٢)، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٠٢٤) من حديث جابرﷺ.

هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذى يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانًا، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة»؛

ويذكر عنهﷺ أنه كان إذا نظر في المرآة قال: «**الحمد لله الذى أحسن خَلْقى وخُلُقى وزَانَ منِّى ما شَانَ من غيرى**»[1]. وقال ابن سيرين: «كان ابن عمر يكثر النظر في المرآة وتكون معه في الأسفار فقلت له: ولِمَ؟ قال: أنظر فما كان في وجهى زين فهو في وجه غيرى شين أحمد الله عليه» وسئل أبو بكر بن أبى مريم: ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رِجْلاً على الصراط ورجلاً في الجنة. وقال بكر بن عبد الله: «يا ابن آدم، إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك». وقال مقاتل في قوله: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(لقمان: ٢٠) قال: «أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصى». وقال ابن شوذب: قال عبدالله، يعنى ابن مسعود ﷺ : «إن لله على أهل النار منَّة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم».

وقال أبو سليمان الدارانى جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالاً: الكرم والسخاء والحلم والرأفة والرحمة والشكر والبر والصبر» وقال أبو هريرةﷺ : «من رأى صاحب بلاء فقال: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى عليك وعلى جميع خلقه تفضيلاً، فقد أدى شكر تلك النعمة» وقال عبد الله بن وهب: سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: «الشكر يأخذ بجِذْمِ الحمد وأصله وفرعه، قال: ينظر في نعم الله في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك، ليس من هذا شيء إلا فيه نعمة من الله، حق على العبد أن يعمل في النعمة التى هى في بدنه لله في طاعته، ونعمة أخرى في الرزق وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته، فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه».

وقال كعب: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا

(١) ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٤٥٢).

أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الأخرى، وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه».

وقال الحسن: «من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو لباس فقد قصر علمه وحضر عذابه» وقال الحسن يومًا لبكر المزني: هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال: «والله ما أدرى أى النعمتين أفضل عليَّ وعليكم: أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا. قال الحسن: إنها لمن نعمة الطعام».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما من عبد يشرب الماء القراح[1] فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى إلا وجب عليه الشكر». قال الحسن: «يا لها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرحًا، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتي الحب فيكتال منه ثم يجرجر قائمًا فيقول: يا ليتني مثلك! ما يشرب حتى يقطع عنه العطش، فإذا شرب كان له في تلك الشربة موتات، يا لها من نعمة!».

وكتب بعض العلماء إلى أخ له: «أما بعد، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندرى أيهما نشكر: أجميل ما يَسَّر أم قبيح ما سَتَر؟» وقيل للحسن: هاهنا رجل لا يجالس الناس، فجاء إليه فسأله عن ذلك فقال: إني أمسى وأصبح بين ذنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسي عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة. فقال له الحسن: أنت عندى يا عبد الله أفقه من الحسن، فالزم ما أنت عليه. وقال ابن المبارك: سمعت عليَّ بن صالح يقول في قوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(إبراهيم: ٧) قال: أى من طاعتي. والتحقيق أن الزيادة من النعم، وطاعته من أجَلِّ نعمه. وذكر أبن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانًا: «أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد، وأنا

(١) الماء القراح: الخالص الذي لم يخالطه شيء.

الصعلوك الذى موَّلته فلك الحمد، وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد، وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد، وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذى صاحبته فلك الحمد، وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد، وأنا المريض الذى شفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد. ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا».

وكان بعض الخطباء يقول في خطبته: «اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه، ثم أدار منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة وبأشفار معلقة، ونقلك من طبقة إلى طبقة، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة، فنعمه عليك مورقة وأياديه بك محدقة».

وكان بعض العلماء يقول في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم : ٣٤) : سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما، لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرًا، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيمانا، علمًا منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك».

وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو موقوفًا عليه:

وإنا إليه راجعون، وإذا أعطى شيئًا قال: الحمد لله، وإذا أذنب قال: أستغفر الله»[1].

وقال ابن المبارك عن شبل عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾(الإسراء: ٣) قال: لم يأكل شيئا إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه؛ فأثنى الله عليه أنه كان عبدًا شكورًا»[2] وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله؛ فسماه الله عبدًا شكورًا»[3] وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض الحكماء قال: «لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته».

(فصــــــل) ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما: أحدهما أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه. والثاني شكر نعمه التي أنعم بها عليه، فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يدركه بذلك هلك، وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم. وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحه لله ورسوله وعباده، ونصرة

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٢)، وابن المبارك في «الزهد» (١٨٠) وسنده ضعيف، مثني بن الصباح ضعيف مختلط (التقريب - ٦٤٧١)، «الضعفاء» للعقيلي (١٨٤٤)، والحديث ضعَّفه الألباني في «الضعيف الجامع» (٢٨٣٢).

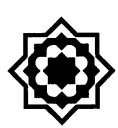
(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد»(٩٤٢) والطبري في«التفسير»(٢٠/١٥)، والبيهقي في«الشعب»(٤٤٧٢).

(٣) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٥٠)، وابن المبارك في «الزهد» (٩٤٠) والبيهقي في «الشعب» (٤٤٧٣).

الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها وفضلاً عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها. وقلَّ أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه. وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء. وقد ذكر أبو عمر وغيره أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا رب إن فيهم فلانًا العابد الزاهد، قال: به فابدأ وأسمعني صوته إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط.

(فصـــــل) وأما شهود النعمة فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلاً. ولو عمل أعمال الثقلين فإن نعم الله سبحانه أكثر من أعماله، وأدنى نعمة من نعمه تستنفد عمله، فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال: «بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب ارحمه فإني قد رحمته، فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه».



الباب الحادي والعشرون
في الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين

فنقول: كل أمرين طلبت الموازنة بينهما ومعرفة الراجح منهما على المرجوح فإن ذلك لا يمكن إلا بعد معرفة كل منهما، وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامه وأنواعه، ونذكر حقيقة الشكر وماهيته.

قال فى الصحاح: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، يقال: شكرته وشكرت له، واللام أفصح، وقوله تعالى: ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾(الإنسان: ٩) يحتمل أن يكون مصدرًا كالقعود، وأن يكون جمعًا كالبرود والكفور، والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء: اشتد وقع مطرها، واشتكر الضرع: امتلأ لبنًا، تقول منه: شكِرت الناقة بالكسر تشكَر شكرًا فهى شكِرة، وشكرت الشجرة تشكر شكرًا إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به، وبين الشكر الذى هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد فى الجميع معنى الزيادة والنماء، ويقال أيضًا: دابة شكور، إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورًا إلا بمجموعها: أحدها اعترافه بنعمة الله عليه، والثانى الثناء عليه بها، والثالث الاستعانة بها على مرضاته.

وأما قول الناس فى الشكر، فقالت طائفة: هو الاعتراف بنعمة المنعِم على وجه الخضوع، وقيل: الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه، فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه. وقيل: شكر النعمة مشاهدة المِنَّة وحفظ الحرمة والقيام بالخدمة. وقيل:

شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليًا. وقيل: الشكر معرفه العجز عن الشكر، ويقال: الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه، وذلك التوفيق من أجل النعم عليك، تشكر على الشكر ثم تشكره على الشكر، ألا ترى نفسك للنعمة أهلاً. وقيل: الشكر استفراغ الطاقة فى الطاعة. وقيل: الشاكر الذى يشكر على الموجود، والشكور الذى يشكر على المفقود، وقيل: الشاكر الذى يشكر على الرفد، والشكور الذى يشكر على الرد، وقيل: الشاكر الذى يشكر على النفع، والشكور الذى يشكر على المنع، وقيل: الشاكر الذى يشكر على العطاء، والشكور الذى يشكر على البلاء.

وقال الجنيد: كنت بين يدى السرى ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبيننا جماعة يتكلمون فى الشكر، فقال لى: ياغلام، ما الشكر؟ فقلت: ألا تعصى الله بنعمه. فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك. فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى. وقال الشبلى: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم» وهذا ليس بجيد، بل من تمام الشكر أن تشهد النعمة من المنعم. وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقال أبو عثمان: «شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى».

وحبس السلطان رجلاً فأرسل إليه صاحبه: اشكر الله، فضُرِب، فأرسل إليه: اشكر الله فجيء بمحبوس مجوسى مبطون فقِيدَ وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى الرجل المذكور، فكان المجوسى يقوم بالليل مرات فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ، فكتب إليه صاحبه: اشكر الله. فقال له: إلى متى تقول: اشكر الله، وأى بلاء فوق هذا؟ فقال: ولو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك كما وضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ماذا كنت تصنع؟ فاشكر الله. ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال: اللص دخل داري وأخذ متاعى، فقال: اشكر الله ؛ فلو دخل اللص قلبك - وهو الشيطان - وأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع؟

وقيل: الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه. وقيل: إذا قصرت يدك عن

المكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقيل: أربعة لا ثمرة لهم: مشاورة الأصم، ووضع النعمة عند من لا يشكرها، والبذر في السباخ، والسراج في الشمس.

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه، وقال الشاعر:

أفـادتْكُمُ الـنعماءَ منِّى ثلاثةٌ　　　يدى ولسانى والضمير المُحَجَّبا

والشكر أخص بالأفعال، والحمد أخص بالأقوال، وسبب الحمد أعم من سبب الشكر، ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد، فما يحمد الرب تعالى عليه أعمُّ مما يشكر عليه، فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، ويشكر على نعمه، وما يحمد به أخص مما يشكر به، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح، ويحمد بالقلب واللسان.

(فصـــل) إذا عرف هذا فكلٌّ من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته، والصبر أصل ذلك؛ فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأمورًا به فأداؤه هو الشكر.

فإن قيل: فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر وأنهما اسمان لمسمّى واحد، وهذا محال عقلاً ولغة وعرفًا، وقد فرق الله سبحانه بينهما.

قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بيَّنَّا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما في وجود ماهيته إلى الآخر، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكرًا، وإذا تجرد الصبر عن الشكر بطل كونه صبرًا. أما الأول فظاهر، وأما الثاني إذا تجرد عن الشكر كان كُفورًا، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط.

فإن قيل: بل ها هنا قسم آخر وهو ألاَّ يكون كفورًا ولا شكورًا بل صابرًا على

مضض وكراهة شديدة، فلم يأت بحقيقة الشكر ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل: كلامنا فى الصبر المأمور به الذى هو طاعة لا فى الصبر الذى هو تجلد كصبر البهائم، وصبر الطاعة لا يأتي به إلا شاكر، ولكن اندرج شكره في صبره فكان الحكم للصبر كما اندرج صبر الشكور فى شكره فكان الحكم للشكر، فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها بل تندرج وينطوى الأدنى فى الأعلى كما يندرج الإيمان فى الإحسان، وكما يندرج الصبر فى مقامات الرضا لا أن الصبر يزول، ويندرج الرضا فى التفويض، ويندرج الخوف والرجاء فى الحب لا أنهما يزولان، فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر سواء كان محبوبًا أو مكروهًا، فالفقر مثلاً يتعلق به الصبر وهو أخص به لما فيه من الكراهة، ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة، فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عدَّه نعمة يشكر عليها، ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عدَّه بلية يصبر عليها، وعكسه الغنى.

على أن الله سبحانه ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب، وعدَّ ذلك كله ابتلاء فقال: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾(الأنبياء: ٣٥) وقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴾(الفجر: ١٥-١٦) وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(الكهف: ٧) وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(الملك: ٢) وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(هود: ٧) فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وقدَّر أجل الخلق وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار. وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة، وتأتى الأسباب أعظم الابتلاءين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين كما قال الصحابة ﷺ: «ابتلينا بالضرَّاء فصبرنا، وابتلينا بالسرَّاء فلم نصبر» والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى

الخلق قد يكون أعظم النعمتين وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها، فالرب تعالى يبتلى بنعمه وينعم بابتلائه، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد فى أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغنى عنهما طرفة عين، والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل، فالمأمور لا يُؤَدَّى إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يُتْرَك إلا بصبر وشكر، وأما المقدور الذى يقدر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره فى صبره كما يندرج صبر الشاكر فى شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه، وأوجب عليه جهادهما فى الله، فهو فى كل وقت فى مجاهدة نفسه حتى تأتى بالشكر المأمور به ويصبر عن الهوى المنهى عن طاعته، فلا ينفك العبد عنهما غنيًّا كان أو فقيرًا، معافًى أو مبتلًى، وهذه هى مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل، وللناس فيها ثلاثة أقوال **وهى التى حكاها أبو** الفرج بن الجوزى وغيره فى عموم الصبر والشكر أيهما أفضل؟ **وقد احتجت كل فرقة** بحجج وأدلة على قولها.

والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فُرِضَ **استواؤهما فى التقوى** استويا فى الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى، كما لم **يفضل بالعافيه والبلاء**، وإنما فضل بالتقوى كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(الحجرات: ١٣) وقد قال ﷺ: «**لا فضل لعربى على عجمى ولا فضل لعجمى على عربى إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب**»[(١)] والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر، **وكل من الغنى والفقير** لا بد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

---

(١) لم أجده بتمامه هكذا، فقد روى شطره الأول أحمد (٥/٤١١)، والبيهقي في «الشعب» **(٥١٣٧)**، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/٢٦٦): ورجاله رجال الصحيح.أهـ. والشطر **الثاني رواه أبو داود** (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وأحمد (١/٣٦١)، والبيهقي (١٠/٢٣٢) من حديث **أبي هريرة**، ورواه الترمذي (٣٢٧٠) من حديث ابن عمر، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة»(١٠٠٩).

فإن قيل: فإذا كان صبر الفقير أتم وشكر الغنى أتم، فأيهما أفضل؟

قيل: أتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حاله. ولا يصح التفضيل بغير هذا ألبتة؛ فإن الغنى قد يكون أتقى لله فى شكره من الفقير فى صبره، وقد يكون الفقير أتقى لله فى صبره من الغنى فى شكره؛ فلا يصح أن يقال: هذا بغناه أفضل، ولا هذا بفقره أفضل. ولا يصح أن يقال: هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر، ولا بالعكس؛ لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما. بل الواجب أن يقال: أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل، فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين كما قال تعالى فى الأثر الإلهى: «ما تقرب إلى عبدى بمثل مداومة ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه»(1) فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل.

فإن قيل: فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وذلك خمسمائة عام»(2) قيل: هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء فى الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم بالدخول، فقد يتأخر الغنى والسلطان العادل فى الدخول لحسابه، فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع كسبق الفقير القفل فى المضائق وغيرها، ويتأخر صاحب الأحمال بعده.

فإن قيل: فقد قال النبى ﷺ للفقراء لما شكوا إليه زيادة عمل الأغنياء عليهم بالعتق والصدقة: «ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم؟» فدلهم على التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة، فلما سمع الأغنياء ذلك عملوا به فذكروا ذلك للنبى

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ..
(٢) رواه الترمذي (٢٣٥١) وابن ماجه (٤١٢٣) والطبراني في «الأوسط» (٨٤) عن أبي سعيد ، ورواه الترمذي (٢٣٥٣) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٤٨) وابن ماجه (٤١٢٢) وابن حبان (٦٧٦) وأحمد (٢/٢٩٦، ٣٤٣) وأبو يعلى (٦٠١٨) عن أبي هريرة. ورواه ابن ماجه (٤١٢٤) وعبد بن حميد في مسنده (٧٩٠٧) عن ابن عمر. والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٣٢).

ﷺ فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[1] وهذا يدل على ترجيح حال الغنى الشاكر، قيل: هذا حجة للقول الذى نصرناه، وهو أن أفضلهما أكثرهما نوافل، فإن استويا استويا، وها هنا قد ساوى الأغنياء الفقراء فى أعمالهم المفروضة والنافلة، وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة وفضلوهم بذلك، فساووهم فى صبرهم على الجهاد والأذى فى الله، والصبر على المقدور، وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال، فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافل الأغنياء لفضلوهم بها.

فإن قيل: إن النبى ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردَّها وقال: «بل أشبع يومًا وأجوع يومًا»[2] وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضى الله عنهما - قالت: «خرج رسول الله من الدنيا ولم يشبع من خبز البُرّ[3]، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله»[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن عبادة بن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»[5] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد حدثنا عباد بن عباد حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبى عن مسروق عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «دخلت عليَّ امرأةٌ من الأنصار فرأت فراش النبى عباءةً مثنيَّةً، فرجعت إلى منزلها فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: ما هذا؟ قلت: فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأت فراشك فبعثت إليَّ بهذا، فقال: ردِّيه، فلم أرده وأعجبنى أن يكون فى بيتى حتى قال لى ذلك ثلاث مرات فقال: ياعائشة ردِّيه، فوالله لو شئتُ لأجْرَى اللهُ معى جبال الذهب والفضة، فرددته»[6]، ولم

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٦٤٥٤) ومسلم (٢٩٧٠) وابن ماجه (٣٣٤٤) من حديث عائشة ﷺ.

(٤) رواه البخاري (٢٥١٣) ومسلم (١٦٠٣) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٥) رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) والترمذي (٣٢٦٠)، وابن ماجه (٤١٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٤)، وإسناده ضعيف، مجالد بن سعيد ليس بالقوي كما في «التقريب» (٥٢٠/١).

يكن الله سبحانه ليختار لرسوله إلا الأفضل، هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها فى مرضاة الله ولكان شكره بها فوق شكر جميع العالمين.

قيل: احتج بحال رسول الله كل واحدة من الطائفتين، والتحقيق أن الله ﷺ جمع له بين المقامين كليهما على أتم الوجوه، وكان سيد الأغنياء الشاكرين وسيد الفقراء الصابرين، فحصل له من الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغنى سواه. فمن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك، فكان أصبر الخلق فى مواطن الصبر وأشكر الخلق فى مواطن الشكر، وربه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله فى أعلى رتب الأغنياء الشاكرين وفى أعلى مراتب الفقراء الصابرين، قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى: ٨) وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر، وأعال يعيل إذا صار ذا عيال، مثل لبن وأثمر وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة، وعال يعول إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾(النساء: ٣) وقيل: المعنى ألا تكثر عيالكم، والقول هو الأول لوجوه:

أحدها: أنه لا يعرف فى اللغة عال يعول إذا كثر عياله، وإنما المعروف فى ذلك عال يعيل، وأما عال يعول فهو بمعنى الجور ليس إلاَّ، هذا الذى ذكره أهل اللغة قاطبة.

الثانى: أنه سبحانه قابل ذلك بالعدل الذى نقلهم عند خوفهم من فقده إلى الواحدة والتسرى بما شاءوا من ملك إيمانهم، ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال. يوضحه الوجه الثالث: أنه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط فى نكاح اليتامى إلى من سواهن من النساء لئلا يقعوا فى ظلم أزواجهم اليتامى وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل فى القسمة إلى الواحدة أو النوع الذى لا قسمة عليهم فى الاستمتاع بهن - وهن الإماء - فانتظمت الآية ببيان الجائز من نكاح اليتامى والبوالغ، والأولى من ذينك القسمين عند خوف العدل، فما لكثرة العيال مدخل ها هنا ألبتة.

يوضحه الوجه الرابع: أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاءوا من كثرة الإماء بلا عدد، فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماء ولا فرق، فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش. يوضحه الوجه الخامس: أن كثرة العيال ليس أمرًا محذورًا مكروهًا للرب تعالى، كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساءً؟ وقد قال النبى ﷺ : «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم»[1] فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة.

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنيًّا شاكرًا بعد أن كان فقيرًا صابرًا، فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به - أيضًا - لحالها.

فإن قيل: فقد كان عبد الرحمن بن عوف ﷺ من الشاكرين، وقد قال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمارة عن ثابت عن أنس ﷺ قال: «بينما عائشة فى بيتها سمعت صوتا فى المدينة فقالت: ما هذا؟ فقالوا: عِيرٌ لعبد الرحمن قدمت من الشام تحمل من كل شيء. قال: وقد كانت سبعمائة بعير، فارتجت المدينة من الصوت فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوًا، فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: إن استطعتُ لأدخلنَّها قائمًا، فجعلها بأحمالها وأقتابها كلها فى سبيل الله»[2].

قيل: قد قال الإمام أحمد: هذا الحديث كذب منكر . قالوا: وعمارة يروى أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم الرازى: عمارة بن زاذان لا يحتج به.

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧)، وأحمد (١٥٨/٣، ٢٤٥)، وابن حبان (٤٠٢٨)، والحاكم (١٦٢/٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨٢/٧)، والطبراني في «الأوسط» (٥٠٩٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٧٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧) عن معقل بن يسار.

(٢) رواه أحمد (١١٥/٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢٩/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٨/١)، وعبد ابن حميد في مسنده (١٣٨٣)، وضعفه ابن القيم في «المنار المنيف» (٣٠٦). وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٣/٢)، وقال ابن حجر في «القول المسدد» (٢٤/١): ويكفينا قول الإمام أحمد بأنه كذب، وأولى بمحاملة أن نقول: هو من الأحاديث التي أمر الإمام أحمد أن يضرب عليها.أهـ.

قال أبو الفرج: وقد روى الجراح بن منهال بإسناده عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال له: «**يا ابن عوف إنك من الأغنياء، وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفًا، فأقرض ربك يطلق قدميك**»[1] قال أبو عبد الرحمن النسائي: هذا حديث موضوع، والجراح متروك الحديث. وقال يحيى: ليس حديث الجراح بشيء. وقال ابن المديني: لا يكتب حديثه. وقال ابن حبان: كان يكذب. وقال الدارقطني: متروك.

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذى رواه البيهقى من حديث أحمد بن على بن إسماعيل بن محمد: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أخبرنى خالد بن يزيد بن أبى مالك عن أبيه عن عطاء بن أبى رباح عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفًا، فأقرض الله يطلق قدميك. قال: وما الذى أقرض يا رسول الله؟ قال: تتبرأ مما أمسيت فيه. قال: أمن كله أجمع يا رسول الله؟ قال: نعم. فخرج وهو يهتمُّ بذلك، فأتاه جبريل فقال: مر ابن عوف فليضف الضيف وليطعم المساكين وليبدأ بمن يعول وليعطِ السائل، فإذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه**»[2].

قيل: هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله، فإن أحد رواته خالد بن يزيد بن أبى مالك، قال الإمام أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: واهٍ، وقال النسائى: غير ثقة، وقال الدارقطنى: ضعيف، وقال يحيى بن معين: لم يرض أن يكذب على أبيه حتى كذب على الصحابة[3].

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذى قاله الإمام أحمد: حدثنا الهذيل بن ميمون عن مطرح بن يزيد عن عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : «دخلتُ الجنةَ فسمعتُ خشفةً بين يدى، قلت: ما هذا؟ قال: بلال.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٣٤/٨)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٦١٦)، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٣/٢).

(٢) رواه الحاكم (٣١١/٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٧٣) وانظر «الضعيفة» (١٧٧٢).

(٣) انظر في ترجمة خالد بن يزيد : التقريب (١٩١/١)، وتهذيب التهذيب (١٠٩/٣).

فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارى المسلمين، ولم أر فيها أحدًا أقل من الأغنياء والنساء، قيل لى: أما الأغنياء فهم فى الباب يحاسبون ويمحصون، وأما النساء فألهاهُنَّ الأحمران الذهب والحرير. ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية، فلما كنت عند الباب أُتيتُ بكفة فوُضِعْتُ فيها ووُضِعَتْ أمتى فى كفة فرجحت بها، ثم أُتى بأبى بكر فوضع فى كفة وجيء بجميع أمتى فوضعوا فى كفة فرجح أبو بكر، ثم أُتى بعمر فوضع فى كفة ووضع أمتى فى كفة فرجح عمر، وعُرِضَتْ علىَّ أمتى رجلاً رجلاً فجعلوا يمرُّون واستبطأتُ عبد الرحمن بن عوف ثم جاء بعد الإياس فقلت: عبد الرحمن، فقال: بأبى وأمى يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما خلصت إليك حتى ظننت أنى لا أصل إليك إلا بعد المشيبات، قلت: وما ذاك؟ قال: من كثرة مالى أحاسب فأمَحَّص»[1].

قيل: هذا حديث لا يحتج بإسناده، وقد أدخله أبو الفرج هو والذى قبله فى كتاب الموضوعات وقال: أما عبيد بن زحر فقال يحيى: ليس بشيء، وعلى بن يزيد متروك. وقال ابن حبان: عبيد الله يروى الموضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامَّات، وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لم يكن متن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم.

قال أبو الفرج: وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جملة المتزهدين، ويرون أن المال مانع من السبق إلى الخير، ويقولون: إذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفًا لأجل ماله، كفى ذلك فى ذم المال، والحديث لا يصحُّ وحاشا عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله من السبق لأن جمع المال مباح، وإنما المذموم كسبه من غير وجهه ومنع الحق الواجب فيه، وعبد الرحمن منزه عن الحالين، وقد خلف طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب وخلف الزبير وغيره، ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل. وكم قاص يتسوف بمثل هذا الحديث يحث على الفقر ويذم

(١) رواه أحمد (٥/٢٥٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/٧٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/٥٩)، رواه أحمد والطبراني بنحوه، وفيهما مطرح بن يزيد وعليّ بن يزيد وهما مجمعٌ على ضعفهما.أهـ.

الغنى، فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفهمون الأصول أهـ[1].

قلت: وقد بالغ فى رد هذا الحديث وتجاوز الحد فى إدخاله فى الأحاديث الموضوعة المختلقة على رسول الله ﷺ وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم عن السبق إليها، ودخول الجنة حبوًا، ورأى ذلك مناقضًا لسبقه ومنزلته التى أعدها الله له فى الجنة، وهذا وهم منه رحمه الله.

وهب أنه وجد السبيل إلى الطعن فى هذين الخبرين، أفيجد سبيلاً إلى القدح فى حديث أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام»**[2] قال الترمذى: حديث حسن صحيح. وفى حديث ابن عمر الذى رواه مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ: **«إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا»**[3].

وفى مسند الإمام أحمد عنه عن النبى ﷺ: **«هل تدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء»**[4].

وفى جامع الترمذى من حديث جابر ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: **«يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا»**[5] فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح فى سبق فقراء

---

(١) الموضوعات لابن الجوزي (٢/١٣، ١٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٩)، وأحمد (٢/١٦٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/١٣٧)، من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما..

(٤) رواه أحمد (٢/١٦٨، ١٧٧)، وابن حبان (٧٤٢١)، وابن المبارك في «الزهد» (٧٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٣٤٧)، وعبد بن حميد في مسنده (٣٥٢)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٥٨): رواه أحمد والبزار والطبراني ، ورجالهم ثقات.أهـ.

(٥) رواه الترمذي (٢٣٥٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٤٢٢).

الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم، وهم في السبق متفاوتون، فمنهم من يسبق بخمسمائة عام، ومنهم من يسبق بأربعين عامًا، ولا يقدح ذلك في منزلة المتأخرين في الدخول، فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم إلى الدخول وإن تأخروا بعدهم للحساب، فإن الإمام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يَلِ شيئًا من أمور المسلمين إلى الجنة، فإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير، بل يكون أقرب الناس من الله منزلة كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**» (١) وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ : «**إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جائر**» (٢).

فالإمام العادل والغني قد يتأخر دخول كل منهم للحساب، ويكون بعد الدخول أرفع منزلة من الفقير السابق، ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه ثم يلحق برسول الله ﷺ وأصحابه غضاضة عليه ولا نقص من مرتبته، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهودًا له بالجنة، وأما حديث دخوله الجنة زحفًا فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد - رحمه الله - إنه كذب منكر، وكما قال النسائي إنه موضوع. ومقامات عبد الرحمن وجهاده ونفقاته العظيمة وصدقاته تقتضي دخوله مع المارِّين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يدعه يدخلها زحفًا.

الغنى والفقر ابتلاء للعبد

(فصـــــل) والله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق ما به غناهم وفقرهم، فخلق

(١) رواه مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٨/٢٢١)، وأحمد (٢/٢٦٨)، والحميدي (٥٨٨).

(٢) رواه الترمذي (١٣٢٩)، وأحمد (٣/٢٢)، وإسناده ضعيف، فيه عطية بن سعد العوفي، قال أحمد: ضعيف الحديث، وقال أبو زرعة : لين، وقال أبو حاتم: ضعيف يكتب حديثه، وقال أبو داود: ليس بالذي يعتمد عليه، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٣٦٣)، و«الضعيفة» (١١٥٦).

الغنى والفقر ليبتلى بهما عباده أيهم أحسن عملاً، وجعلهما سببًا للطاعة والمعصية والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾(الأنبياء: ٣٥).

قال ابن عباس رضى الله عنهما: بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، وكلها بلاء.

وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون. وقال الكلبى: بالشر: بالفقر والبلاء، والخير: بالمال والولد. فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان. وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾(الفجر: ١٥-١٧) فأخبر سبحانه أنه يبتلى عبده بإكرامه له وبتنعيمه له وبسط الرزق عليه كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان، ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده، وأن تضييقه عليه إهانة منه له، فقال: كلا، أى: ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل قد أبتلى بنعمتى وأنعم ببلائى.

وإذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهرًا للمتأمل. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(الأنعام: ١٦٥) وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(الكهف: ٧) فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضًا.

فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما وأجل العالم وأجل أهله وأسباب معائشهم التى جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى فهو الأحسن عملا.

وهذا هو الحق الذى خلق به وله السموات والأرض وما بينهما، وغايته الثواب والعقاب، وفواته وتعطيله هو العبث الذى نزه نفسه عنه وأخبر أنه يتعالى عنه، وأن ملكه الحق. وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء ينفى هذا الظن الباطل والحساب الكاذب كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(المؤمنون: ١١٥-١١٦) فنزه سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السِّنَة والنوم واللغوب والحاجة، واكتراثه بحفظ السموات والأرض وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه كما يظنه أعداؤه المشركون، يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئًا منها، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه، فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثًا وتركهم سُدًى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم، فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق، وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه، كما قال المؤمن لصاحبه الذى حاوره فى المعاد وأنكره: ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾(الكهف:٣٧) فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه. وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾(الرعد: ٥) وذلك أن إنكار المعاد يتضمن إنكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته وإلهيته، كما أن تكذيب رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك - أيضًا - فمن كذب رسله وجحد المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ونفى أن يكون رب العالمين.

والمقصود أنه ﷺ خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به، كما فى المسند عنه ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إنَّا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له ثانٍ لابتغى له

ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»[1] فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة وإقامة حق عباده بالزكاة، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام، فإذا زاد المال عن حده أو خرج عن هذين المقصودين فإن الغرض والحكمة التى أنزل لها كان التراب أولى به فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره، وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك، فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له وملأه بمحبة المال الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس وجمعه والاستكثار منه، ومع ذلك فلم يمتلىء بل ازداد فقرًا وحرصًا إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو وماله، ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده، فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولا بد، وكذلك العلم والملك والقدرة، كل ذلك إن لم ينفعه ضره، فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها فى الخير والشر، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها. فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة، وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخرة، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ولو جعلها كذلك لكان خاسرًا، لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها.

فالأقسام أربعة لا خامس لها: أحدها معطل الأسباب معرض عنها. الثانى: مُكِبٌّ عليها واقف مع جمعها وتحصيلها. الثالث: متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده.

---

(١) رواه أحمد (٢١٣/٥، ٢١٧)، وأبو يعلى (٤٤٦٠) من حديث عائشة ﷺ وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٤٤/١٠): وفيه مجالد بن سعيد، وقد اختلط، ولكن يحيى بن سعيد القطان لا يروى عنه ما حدث به في اختلاطه.أهـ. ورواه الطبراني في «الكبير» (٢٤٧/٣) و«الأوسط» (٢٤٤٦) والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٧٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٤٢) عن أبي واقد الليثي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٨١) و«الصحيحة» (١٦٣٩).

فهؤلاء الثلاثة فى الخسران. الرابع متوصل بها إلى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابح، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(هود: ١٥-١٦).

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها أن من كان له إرادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد، ثم اختلفوا فى معناها فقالت طائفة منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب. قالوا: والآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: «من كانت الدنيا همه وسدمه[1] ونيَّته وطلبه جازاه الله فى الدنيا بحسناته ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته ويثاب عليها فى الآخرة» قال هؤلاء: فالآية فى الكفار بدليل قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - فى رواية أبى صالح عنه: نزلت فى أهل القِبْلة. قال مجاهد: هم أهل الرياء. وقال الضحاك: من عمل صالحًا من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله فى الدنيا. واختار الفراء هذا القول وقال: «من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس» وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهذا لا يكون مؤمنًا، فإن العاصى والفاسق ولو بالغا فى المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته.

(١) سَدِمَ فلانٌ سَدَمًا: أصابه همٌّ وغيظٌ مع حزن، فهو سادم وسدمان، ويقال: هو سادمٌ نادمٌ، وسدمان وندمان.

فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل فى دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذى فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم فى صحيحه فى الثلاثة الذين هم أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة: «القارئ الذى قرأ القرآن ليقال فلان قارئ، والمتصدق الذى أنفق أمواله ليقال فلان جواد، والغازى الذى قتل فى الجهاد ليقال هو جريء»[1].

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مُرَاءٍ كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى محمد بن إدريس قال: أخبرنى عبد الحميد بن صالح حدثنا قطن بن الحباب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتى ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله ﷻ للدنيا، وفرقة يعبدون رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا، فيقول: إنى لم أقبل من ذلك شيئًا، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك رياء وسمعة. فيقول: إنى لم أقبل من ذلك شيئًا، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتى وجلالى ومكانى ما أردتم بعبادتى؟ فيقولون: بعزتك وجلالك وجهك ودارك. فيقول: صدقتم، اذهبوا بهم إلى الجنة»[2] هذا حديث غنى عن الإسناد، والقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على صحة هذا القول فى الآية قوله تعالى: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ وذلك على أنها فى قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) والنسائي (٣١٣٧) وأحمد (٣٢٢/٢)، والبيهقي (١٦٨/٩).

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (٣٥١/١٠): رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه عبيد بن إسحق وقد ضعَّفه الجمهور ، ورضيه أبو حاتم الرازي، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات.

فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعًا عارضًا يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنبارى: فعلى هذا القول المعنى فى قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين فى الآخرة وما ينقلبون إليه، فهؤلاء يجعل لهم جزاء حسناتهم فى الدنيا فإذا جاءت الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالاً. قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا فى النار، وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة فلا يوافى ربه بالإيمان . قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضى الخلود الأبدى فى النار، وإنما تقتضى أن الذى يستحقونه فى الآخرة النار وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد فإنه يخرج به من النار مع مَنْ يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنبارى وغيره.

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبقَ معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان فى العمل الذى حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود فى النار وإن دخلها بحبوط عمله الذى به النجاة المطلقة. والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغى بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود فى النار وإن كان مع المرائى شىء منه إلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد والله

الموفق. وذلك قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾(الشورى: ٢٠) ومنه قوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(الإسراء: ١٨-١٩):

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضًا ويصدق بعضها بعضا وتجتمع على معنى واحد، وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل فى غاية سعيه لم يكن له فى الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهى غاية سعيه فهى له.

بقى أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة فإنه داخل تحت حكم الإرادتين فبأيهما يلحق؟ قيل: من ها هنا نشأ الإشكال وظن من ظن من المفسرين أن الآية فى حق الكافر فإنه هو الذى يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طردًا ولا عكسًا، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور والطاعة والمعصية والإيمان والشرك فى العبد.

وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾(آل عمران: ١٥٢) وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة، ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله ابن مسعود ﷺ : «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية» والذين أريدوا فى هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله بحفظه وهم من خيار المسلمين. ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون وإرادة هؤلاء لون.

وهـا هـنا أمـر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخـرة مـع الإيمـان بـالله ورسـوله ولقائـه أبدًا، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لـرحمة الله والـدار الآخـرة بأعمالـه، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبـدًا وإن جـامع الإقرار والعلم، فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سـبحانه له بالكفـر مـع هـذه المعـرفة كفـرعون وثمـود واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعـرفوه كمـا عـرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق بإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هـذه المعـرفة والعـلم، ولكـن الإيمـان الـذى هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة، والله المستعان.

۞ فصـــــــل ۞

والمقصـود أنـه سـبحانه جعـل الغـنى والفقر ابتلاءً وامتحانًا للشكر والصبر، والصدق والكـذب، والإخـلاص والشـرك، قال تعالى: ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(الأنعام: ١٦٥)وقال تعـــالى: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾(العنكـبوت: ١-٣)وقـال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(التغابن :١٥) فجعـل الدنـيا عرضًـا عـاجلاً ومـتاع غـرور، وجعـل الآخرة دار جزاء وثواب، وحفَّ الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾(آل عمـــران: ١٤) فأخـــبر سبحانه أن هذا الذى زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها وما هو غاية أمانى طلابها ومؤثريها عـلى الآخـرة، وهـو سـبعة أشـياء: النسـاء اللاتى هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، والبـنين الذيـن بهـم كمـال الـرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذين هما مادة الشـهوات عـلى اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التى هى عز أصحابها وفخرهم وحصـونهم وآلـة قهرهم لأعدائهم فى طلبهم وهربهم، والأنعام التى منها ركوبهم وطعامهم

ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم، والحرث الذى هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوّق عباده إلى متاع الآخرة وأعْلَمَهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(آل عمران: ١٥).

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به، فقال: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾(آل عمران: ١٦-١٧) فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا، وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه وهو رضوانه عليهم قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾(الحديد: ٢٠) فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهدًا لأولى البصائر، وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان، واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطعه بها الجاهلون فيذهب ضائعًا فى غير شىء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحسانًا ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الأجل الدائم الذى هو خير وأبقى.

قال الإمام: حدثنا وكيع حدثنا المسعودى عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله ﷺعن النبى ﷺ قال: «ما لى وللدنيا، إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال

في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها»[1].

وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[2]. قال الترمذي: حديث صحيح. وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد، قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع. وأشار بالسبابة»[3].

وفي الترمذي من حديثه قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها . قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله. قال: فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[4]. وفي الترمذي - أيضًا - من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالمًا أو متعلمًا»[5]. والحديثان حسنان. قال الإمام أحمد: حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبد الله بن دينار النهراني قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين: «بحق أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين، بحق أقول لكم إن شركم عملاً عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة، إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله».

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (١/٣٩١، ٤٤١)، وأبو يعلى (٥٢٩٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٠٢)، والحاكم (٤/٣١٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٤٥)، «الصحيحة» (٤٣٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والطبراني في «الكبير» (٦/١٥٧)، والروياني في مسنده» (١٥٩)، وفي الباب من حديث ابن عمر وأبي هريرة ﷺ. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٠)، و«صحيح الجامع» (٥١٦٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤٠٨)، وأحمد (٤/٢٣٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٣٠٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٨٥).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢١)، وابن ماجه (٤١١١)، والضياء في «المختارة» (٢٥٣٣)، وقال الترمذي: حديث حسن. وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٨٩٠).

(٥) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩١).

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحق، قال: أخبرني سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: قال عيسى بن مريم ﷺ : «يا معشر الحواريين، أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر دارًا؟ قالوا: يا روح الله، ومن يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارًا». وفي كتاب «الزهد» لأحمد أن عيسى بن مريم ﷺ كان يقول: «بحق أقول لكم إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونومًا على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس».

وفي المسند عنه ﷺ : «**إن الله ضربَ طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وإن قزحه وملحه، فلينظر إلى ماذا يصير**»[1].

۞ فصــل (الناس والدنيا) ۞

ثم أخبر ﷺ عنها أنها يفاخر بعضنا بعضا بها فيطلبها ليفخر بها على صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئًا للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد. والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها، والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وهي أن الرجل ينفس على غيره بالشيء ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك ويحمى أنفه له، يقال: نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك، والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة: الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس.

(فصــــــل) ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد، فيحب كل واحد أن يكاثر بني جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالاً وولدًا، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة كما قال تعالى:

---

(١) رواه أحمد (٥/١٣٦)، وابن حبان (٧٠٢)، وابن المبارك في «الزهد» (٢٩٤)، والطبراني في «الكبير» (١/١٩٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٥٤)، والطيالسي في مسنده (١٥٤٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٢).

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(التكاثر: ١-٤) والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا، وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه؛ فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

(فصـــل) ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح - إن شاء الله - أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عُرْف القرآن حيث ذُكِروا بهذا النعت في كل موضع، ولو أراد الزُّرَّاع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ وإنما خص الكفار به لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا فإنها دارهم التي لها يعملون ويكدحون، فهم أشد إعجابًا بزينتها وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك، فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه كما قال علي بن أبي طالب ﷺ : «الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ومطلب نجح لمن سالم، فيها مساجد أنبياء الله ومهبط وحيه ومُصَلَّى ملائكته ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمها وقد آذنت بينها ونَعَتْ نفسها وأهلها، فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفًا وتحذيرًا وترغيبًا، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكَّرتهم فذكروا، ووعظتهم فاتعظوا، فيا أيها الذامُّ للدنيا المغتر بتغريرها، متى استذمت إليك؟ بل متى غرتك؟ أبمنازل آبائك في الثرى؟ أم بمضاجع أمهاتك في البِلَى؟ كم رأيت موروثًا؟ كم عللت بكفيك عليلاً؟ كم مرضت مريضًا بيديك تبتغي له الشفاء وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك؟ مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك، ومضجعه مضجعك. ثم التفت إلى المقابر فقال: يا أهل الغربة، ويا أهل التربة، أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت، وأما الأزواج فنكحت، فهذا خبر ما

عندنا فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت إلينا فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى».

فالدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحًا وفضلاً لأولياء الله فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته، والتوكل عليه والإنابة إليه، والأنس به والفرح بقربه، والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه، والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه، وروحه الذي ألقاه من أمره فأخبر به من شاء من عباده. ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة وقالوا: هذا حق الله عليهم، وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من حقهم . قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه.

والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفين، ولو أمكن اجتماعهما في دار واحدة لأمكن طلب التفضيل، والإيمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله ﷻ وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة. فهذا أفضل ما في هذه الدار، وهذا أفضل ما في الدار الأخرى، ولا يصح أن يقال: فأي الأمرين أفضل؟ فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق .

(فصــــل) ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبين غايتها ونهايتها وانقلابها في الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب، أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثروه على الفاني المنقطع المشوب بالأنكاد والتنغيص، ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وقال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ

أنزلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾(الكهف: ٤٥)

ثم ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات - وهى الأعمال والأقوال الصالحة التى يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها - خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(يونس: ٢٤).

ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار، دعا عباده إلى دار السلام التى سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعمَّ عباده بالدعوة إليها عدلاً، وخصَّ من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً.

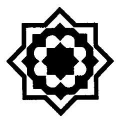
وأخبر سبحانه أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم، وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، وأخبر أن من ذلك فعل فهو الخاسر حقيقة لا من قل ماله وولده فى الدنيا، ونهى نبيه أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختبارًا، وأخبر أن رزقه الذى أعده له فى الآخرة خير وأبقى من هذا الذى متعوا به.

وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا فى دنياهم وجعل ما آتاه مانعا له من مد عينيه إلى ذلك فهذا العطاء فى الدنيا وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا فلا تمدن عينيك.

(فصـــــل) وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده تمتحن بها صبره وشكره، علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما، ولا بد لكل مؤمن منهما، وكل منهما فى موضعه أفضل، فالصبر فى مواطن الصبر أفضل، والشكر

فى مواضع الشكر أفضل، هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر، وأما إذا كان الصبر جزء مسمى الشكر، والشكر جزء مسمى الصبر، وكل منهما حقيقة مركبة من الأمرين معًا كما تقدم بيانه، فالتفضيل بينهما لا يصح إلا إذا جرد أحدهما عن الآخر، وذلك فرض ذهنى يقدره الذهن ولا يوجد فى الخارج، ولكن يصح على وجه وهو أن العبد قد يغلب صبره على شكره الذى هو قدر زائد على مجرد الصبر من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فلا يبقى فيه اتساع لغير صبر النفس على ما هو فيه؛ لقوة الوارد وضيق المحل، فتنصرف قواه كلها إلى كف النفس وحبسها لله، وقد يغلب شكره بالأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة على قوة كفه لنفسه وحبسها لله، فتكون قوة إرادته وعمله أقوى من قوة امتناعه وحبس نفسه.

واعتبر هذا بشخصين: أحدهما حاكم على نفسه متمكن من حبسها عن الشهوات، قليل التشكى للمصيبات وذلك جل عمله، وآخر كثير الإعطاء لفعل الخير القاصر والمتعدى، سمح النفس ببذل المعروف، وآخر ضعيف النفس عن قوة الصبر. فللنفس قوتان: قوة الصبر والكف وإمساك النفس، وقوة البذل وفعل الخير والإقدام على فعل ما تكمل به، وكمالها باجتماع هاتين القوتين فيها. والناس فى ذلك أربع طبقات: فأعلاهم من اجتمعت له القوتان، وسفلتهم من عدم القوتين، ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة فعله وبذله، ومنهم من هو بالعكس فى ذلك. فإذا فضل الشكر على الصبر فإما أن يكون باعتبار ترجيح مقام على مقام، وإما أن يكون باعتبار تجريد كل من الأمرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره، وتمام إيضاح هذا بمسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر، فلنذكر لها بابًا يخصها ويكشف عن الصواب فيها.



الباب الثاني والعشرون

في اختلاف الناس في الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل؟ وما هو الصواب في ذلك

هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الأغنياء والفقراء، واحتجت كل طائفة على الأخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار، ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين، فإن كلاً منهما أدلت بحجج لا تدفع، والحق لا يعارض بعضه بعضًا، بل يجب اتباع موجب الدليل أين كان. وقد أكثر الناس في المسألة من الجانبين وصنفوا فيها من الطرفين، وتكلم الفقهاء والفقراء والأغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير، لشمول معناها وحقيقتها للناس كلهم، وحكوا عن الإمام أحمد فيها روايتان، ذكرهما أبو الحسين في كتاب التمام فقال: مسألة الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر في أصح الروايتين، وفيه رواية ثانية: الغني الشاكر أفضل، وبها قال جماعة منهم ابن قتيبة، ووجَّه الأولى واختارها أبو إسحاق بن شاقلا والوالد السعيد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾(الفرقان: ٧٥).

قال محمد بن علي بن الحسين: الغرفة: الجنة. بما صبروا، قال: على الفقر في الدنيا. وروى أنس عن النبي ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة. فقالت عائشة: وَلِمَ يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا، يا عائشة، لا تَرُدِّي المسكين ولو بشقِّ تمرة. يا عائشة أحبي المساكين وقرِّبيهم فإن الله يقربك يوم القيامة»[١].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٥٢) من حديث أنس ﷺ. ورواه ابن ماجه (٤١٢٦)، والحاكم (٤/٣٢٢)، وعبد بن حميد في مسنده (١٠٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ . ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٢)، والضياء في «المختارة» (٣٣٢)، من حديث عبادة بن الصامت، وصححه الألباني بمجموع طرقه في «الصحيحة» (٣٠٨).

قلت: لا حجة له في واحدة من الحجتين، أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته وصبره عن مصيبته وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه. ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر، فإن القرآن كما دل على جزاء الصابرين دل على جزاء الشاكرين أيضًا كما قال تعالى: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٥) ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(آل عمران: ١٤٤ . بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها. وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزى الشاكرين الغرفة بما شكروا. وأما الحديث فلا حجة فيه لوجهين: أحدهما أنه لا يحتج بإسناده فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث بن النعمان، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح بل قال فيه البخاري: منكر الحديث، ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنه ولا سكت عنه بل حكم بغرابته.

الجواب الثاني: أن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم، فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده ليست مسكنة فقر المال، بل مسكنة القلب، وهي انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر، فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعًا واختيارًا وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز، وقد آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا الجريري عن أبي السليل قال: كان داود النبي ﷺ يدخل فينظر أغمص[1] حلقة من بني إسرائيل فيجلس إليهم ثم يقول: «مسكين بين ظهراني مساكين» هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة.

قال أبو الحسين: وروى أبو برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ : «إن فقراء المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفًا حتى يتمنى أغنياء المسلمين يوم

(١) أغمص: أقل وأحقر.

القيامة أنهم كانوا فقراء فى الدنيا»[1].

قلت: هذا الحديث ثابت عن النبى ﷺ من رواية جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله، وروى عن أبى سعيد وأنس بن مالك، ولا يدل ذلك على علو درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء، بل إنما يدل على السبق لعدم ما يحاسبون عليه، ولا ريب أن ولي الأمر العادل يتأخر دخوله للحساب وكذلك الغنى الشاكر، ولا يلزهم من تأخر دخولهما نزول درجتهما عن درجة الفقير كما تقدم، وإنما تمنى الأغنياء أنهم كانوا فى الدنيا فقراء، فإن صحت هذه اللفظة لم تدل على انحطاط درجتهم كما يتمنى القاضى العادل فى بعض المواطن يوم القيامة أن لم يقض بين اثنين فى تمرة لما يرى من شدة الأمر فمنزلة الفقر والخمول، ومنزلة السلامة، ومنزلة الغنى والولاية، ومنزلة الغنيمة أو العطب، قال أبو الحسن: وروى ابن عمر أن النبى ﷺ قام فى أصحابه فقال:«أى الناس خير؟ فقال بعضهم: غنى يعطى حق نفسه وماله. فقال: نِعْمَ الرجلُ هذا، وليس به، ولكن خير الناس مؤمنٌ فقيرٌ يعطى على جهد»[2].

قلت: لم يذكر لهذا الحديث إسناد فينظر فيه، وحديث لا يعلم حاله لا يحتج به، ولو صح لم يكن فيه دليل لأنه تضمن تفضيل فقير يتصدق من جهد، فمعه فقر الصابرين وغنى الشاكرين، فقد جمع بين موجب التفضيل وسببه، ولا ريب أن هذا أفضل الأقسام الثلاثة ودرهمه الواحد يسبق مائة ألف درهم من غيره كما قال النبى ﷺ : «سبق درهمٌ مائةَ ألف درهم. قالوا: يا رسول الله، كيف سبق درهم مائة ألف درهم؟ قال: رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به، وآخر له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها»[3] رواه

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ورواه مسلم (٢٩٧٩) إلى قوله: «أربعين خريفًا» دون الزيادة.

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٢٣٨/٤)، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٨٩٩): موضوع.

(٣) رواه النسائي (٢٥٢٦)، وأحمد (٣٧٩/٢)، وابن حبان (٣٣٤٧)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، والحاكم (٤١٦/١)، والبيهقي (١٨١/٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠٠).

النسائى من حديث صفوان بن عيسى حدثنا بن عجلان عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة ﷺ.

وذكر البيهقى من حديث الثورى عن أبى إسحاق عن الحارث عن على ﷺ قال: «جاء ثلاثة نفر إلى النبى ﷺ فقال أحدهم: كانت لى مائة أوقية فتصدقت منها بعشر أواق، وقال الآخر: كانت لى مائة دينار فتصدقت منها بعشر دنانير، وقال الآخر: كان لى عشرة دنانير فتصدقت منها بدينار، فقال: **كُلكم فى الأجر سواءٌ، كلكم قد تصدق بعُشر ماله**»[1].

وقال أبو سعيد بن الأعرابى: حدثنا ابن أبى العوام حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رجل لعثمان بن عفان ﷺ: «ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير، تتصدقون وتعتقون وتحجون وتنفقون. فقال عثمان: وإنكم لتغبطوننا وإنَّا لنغبطكم، قال: فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيض من فيض»[2].

وفى سنن أبى داود من حديث الليث عن أبى الزبير عن يحيى بن جعدة عن أبى هريرة أنه قال: «**يا رسول الله، أى الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل، وابدأ بمن تعول**»[3]. وفى المسند وصحيح ابن حبان من حديث أبى ذر ﷺ قال: «**قلت: يا رسول الله، أى الصدقة أفضل؟ قال: جهدٌ من مُقِلّ**»[4] وفى سنن النسائى من حديث على الأزدى عن عبيد بن عمير عن عبد الله بن حُبْشِىٍّ أن النبى ﷺ سئل: «**أى الأعمال أفضل؟ قال: إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة. قيل: فأى الصلاة أفضل؟ قال: طول القيام. قيل: فأى**

---

(١) رواه أحمد (١/١١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١٣٥)، والطيالسي في «مسنده» (١١٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٤٥٥)، وإسناده ضعيف، وانظر «السلسلة الضعيفة» (٣٤٤٩).

(٢) رواه ابن المبارك (٧٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٣٤٥٦)، وإسناده ضعيف.

(٣) رواه أبو داود (١٦٧٧)، وأحمد (٢/٣٥٨)، وابن خزيمة (٢٤٤٤)، والحاكم (١/٤١٤)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٨٦٨٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» و«الصحيحة» (٥٥٦).

(٤) رواه أحمد (٥/١٧٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٧٣): وفيه أبو عمرو الدمشقي، وهو متروك.اهـ. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠١٨).

الصدقة أفضل؟ قال: جهدٌ من مُقِلّ. قيل: فأى الهجرة أفضل؟ قال: من هجر ما حرم الله عليه. قيل: فأى الجهاد أفضل؟ قال: من أُهْرِيقَ دَمُه وعُقِرَ جَوَادُه»[1].

وهذه الأحاديث كلها تدل على أن صدقة جهد المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذى لا يتبين أثر نقصانه عليه، وإن كان كثيرًا، لأن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما فى القلوب لا بكثرتها وصورها، بل بقوة الداعى وصدق الفاعل وإخلاصه وإيثاره الله على نفسه، فأين صدقة من آثر الله على نفسه برغيف هو قوته إلى صدقة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضًا من فيض؟ فرغيف هذا درهمه فى الميزان أثقل من مائة ألف هذا، والله المستعان.

۞ فصـــــل ۞

واحتجوا بما رواه ابن عدى من حديث سليمان بن عبد الرحمن حدثنا خالد بن يزيد عن أبيه عن عطاء سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم توفَّنى فقيرًا ولا تَوَفَّنى غنيًّا»[2] وهذا الحديث لا يصح، فإن خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مالك الدمشقى أجمعوا على ضعفه وعدم الاحتجاج بحديثه، قال أحمد: ليس بشىء. وقال ابن معين: واهٍ. ونسبه يحيى إلى الكذب وقد تقدم فيه. وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة فقال: قد تنازع كثير من المتأخرين فى الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل، فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد، ورجح هذا طائفة أخرى من العلماء والعباد، وحكى فى ذلك عن الإمام أحمد روايتان، وأما الصحابة والتابعون ﷺفلم ينقل عن أحد منهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر. وقد قالت طائفة ثالثة: ليس لأحدهما على الأخرى فضيلة إلا بالتقوى، فأيهما أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل، فإن استويا فى ذلك استويا فى الفضيلة.

---

(١) رواه أبو داود (١٤٤٩)، والنسائي (٢٥٢٥)، وأحمد (٣/٤١١)، والدارمي (١٤٢٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٠٤).

(٢) ذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢٤٧٨) في ترجمة خالد بن يزيد بن عبد الرحمن.

قال: وهذا أصح الأقوال لأن نصوص الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى، وقد قال تعالى: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ ﴾ (النساء: ١٣٥)وقد كان فى الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء، والكاملون يقومون بالمقامين، فيقومون بالشكر والصبر على التمام كحال نبيِّنا وحال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع والغنى لآخرين أنفع، كما تكون الصحة لبعضهم أنفع والمرض لبعضهم أنفع، كما فى الحديث الذى رواه البغوى وغيره عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى: «إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، إنى أدبر عبادى إنى بهم خبيرٌ بصيرٌ»(١).

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء»(٢). وفى الحديث الآخر لَمّا علّم الفقراء الذكر عقب الصلاة سمع بذلك الأغنياء فقالوا مثل ما قالوا. فذكر ذلك الفقراء للنبى ﷺ فقال:﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾(الحديد:٢١ . فالفقراء يتقدمون فى دخول الجنة لخفة الحساب عليهم، والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب عليهم، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة فوقه وإن تأخر فى الدخول، كما أن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب

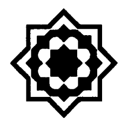
---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣١٨/٨، ٣١٩)، وابن أبي الدنيا في الدعاء (١)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢٣٢/٢)، والديلمي في «الفردوس» (٨٠٩٨)، وأورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٧)، وقال: هذا حديث لا يصح، أما الطريق الأولى ففيه يحيى بن عيسى الرملي، قال يحيى: ما هو بشيء ، وقال ابن حبان: ساء حفظه فكثر وهمه فبطل الاحتجاج به، وأما الطريق الثانية ففيه الخشني، قال يحيى بن معين: ليس بشيء. وقال الدارقطني: متروك، وصدقة مجروح. أهـ. والحديث ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٧٥) و«الضعيفة» (١٧٧٤).

(٢) سبق تخريجه.

ومنهم عكاشة بن محصن، قد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم فى الدرجات، لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب، فهذا فى الفقر المذكور فى الكتاب والسنة، وهو ضد الغنى الذى يبيح أخذ الزكاة أو الذى لا يوجب الزكاة.

ثم قد صار فى اصطلاح كثير من الناس الفقر عبارة عن الزهد والعبادة والأخلاق، ويسمون من اتصف بذلك فقيرًا وإن كان ذا مال، ومن لم يتصف بذلك قالوا: ليس بفقير وإن لم يكن له مال. وقد يسمى هذا المعنى تصوفًا، ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير والصوفى، ثم من هؤلاء من يجعل مسمى الفقير أفضل ومنهم من يجعل مسمى الصوفى أفضل. والتحقيق فى هذا الباب أنه لا ينظر إلى الألفاظ المحدثة بل ينظر إلى ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والمعانى، والله قد جعل وصف أوليائه الإيمان والتقوى، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل، والأغنياء بما سوى ذلك، والله أعلم.



الباب الثالث والعشرون
فى ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الفقراء: لم يذكر الله سبحانه الغنى والمال فى القرآن إلا على أحد وجوه:

الأول: على وجه الذم كقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ (العلق: ٦-٧) وقوله:﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (الشورى: ٢٧) وقوله: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝ وَزُخۡرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ۚ وَٱلۡأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾(الزخرف:٣٣-٣٥) وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾(التوبة: ٥٥) وقال تعالى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾(الكهف: ٤٦) وقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ ﴾(آل عمران: ١٤).. الآية، ونظائر ذلك كثيرة.

الوجه الثانى أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾(التغابن: ١٥) وقال تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِى ٱلۡخَيۡرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾(المؤمنون: ٥٥-٥٦) وقال تعالى مخبرًا عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكۡرَمَنِ ﴾(الفجر: ١٥).. الآية وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً ۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾(الأنبياء: ٣٥).

الوجه الثالث: إخباره ﷺ أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه شيئًا، وإنما يقرب إليه

الإيمان والعمل الصالح كما قال: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ: ٣٧).

الوجـــه الرابـــع: إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لانصيب له فى الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾(طه: ١٣١) وقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا ﴾(الأحقاف: ٢٠) وإلى هذا المعنى أشار النبى ﷺ بقوله لعمر «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» وسيأتى الحديث.

الوجـــه الخامس: أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴾(الواقعة: ٤٥)وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾(الإسراء: ١٦) وقوله تعالى: ﴿ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴾(الأنبياء: ١٣):

الوجه السادس أنه سبحانه ذم محب المال فقال: ﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾(الفجر: ١٩-٢٠) فذمهم بحب المال وعيرهم به.

الوجـــــه السابع: أنه سبحانه ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾(القصص: ٧٩-٨٠) فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحًا، ولا يلقى هذه الوصية وهى الكلمة التى تكلم بها الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة التى دل عليها قولـــه: ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ ﴾والسيرة والطريقة التى دل عليها قوله:

﴿ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء. وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

الوجه الثامـــــن: أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذى يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى:﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾(البقرة: ٢٤٧) فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه، وأن الفضل بالعلم لا بالمال، وقال سبحانه:﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(يونس: ٥٨) ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن، والذى يجمعونه هو المال وأسبابه، ومثله قوله تعالى:﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(الزخرف: ٣٢)..

الوجه التاسع: أنه سبحانه أخبر أن التكاثر فى جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها، وتوعدهم على ذلك فقال تعالى:﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(التكاثر: ١-٤) فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين فى القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون[1] عنها كما كانوا فى الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هى الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره، إمَّا لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به كما يقال: شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق وهو كل

---

(١) يظعنون: يرحلون.

ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغى به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة.

وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: «انتهيت إلى النبى ﷺ وهو يقرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ قال: يقول ابن آدم: مالى مالى! وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟»[1] ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثره هباءً منثورًا، وعلم دنياه التى كاثر بها إنما كانت خدعًا وغرورًا، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن فى حسابه، وصار تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره فى دنياه، ثم عذب به فى البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ به من علوه به فى الدنيا بأن حصل مع الأسفلين، فيا له تكاثرًا ما أقله! ورزءًا ما أجله! ومن غنى جالبا لكل فقر، وخيرًا توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: يا ليتنى قدَّمتُ لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتى ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾(المؤمنون: ٩٩- ١٠٠) تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: ﴿ رَبِّ ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدى ربه تبارك وتعالى فقال: ﴿ ٱرْجِعُونِ ﴾ ثم ذكر سبب سؤال الرجعة وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: كلا، لا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٣٣٥٤)، والنسائي (٣٦١٢)، وأحمد (٢٤/٤، ٢٦)، وابن حبان (٧٠١) والبيهقي (٦/٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨١/٦) وابن المبارك في «الزهد» (٤٩٧) والطيالسي (١١٤٨)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٥١٣).

سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له فى المهلة ليتذكر ما فاته؛ أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة «كلمة هو قائلها» لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحًا لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لو رد لعاد لما نهى عنه، وأنه من الكاذبين. فحكمه أحكم الحاكمين، وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل؛ فإنه لا فائدة فى ذلك، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾(الأنعام: ٢٧-٢٨). .

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا، فراجع أقوالهم تجدها لا تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً، ومعناها أجَلُّ وأعظم مما فسروها به، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذى بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذى بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئمًا مع قوله: ﴿ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ قدَّروا مضافًا محذوفًا وهو خبر «ما كانوا يخفون من قبل» فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه، وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه، ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم فى بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذى أخفوه. قال الواحدى: وعلى هذا أهل التفسير. ولم يصنع أرباب هذا القول شيئًا، فإن السياق والإضراب ببل والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقولهم:﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ لا يلتئم بهذا الذى ذكروه، فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخافٍ، وأجود من هذا ما فهمه المبرد

من الآية، قال: كأن كفرهم لم يكن باديًا لهم إذ خفيت عليهم مضرته. ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيًّا عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينو العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره، قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته فى أمر قبل: وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك، وقد كان ظاهرًا له قبل هذا. ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذى كانوا ينادون به على رءوس الأشهاد ويدعون إليه كل حاضر وباد، بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم،. ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعى فى الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها؛ تمنوا أنهم يُرَدُّون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يُكَذّبون رسله. فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله، وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الإضراب ببل، وتبين معنى الذى بدا لهم والذى كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم: ﴿ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا ﴾ فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل، وأن الرسل صَدَقوهم فيما بلغوهم عن الله، وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم، بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل، وأن الرسل على الحق، فعاينوا ذلك عيانًا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله، وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد فى عدوله عنه، فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته

هى الصواب، فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رُدَّ لعاد لما نهى عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفى قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أى ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلومًا وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه، والله أعلم.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض فى أثناء هذه المسألة، فلعله أهم منها وأنفع، وبالله التوفيق. فلنرجع إلى تمام الكلام فيها.

وقوله: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾(التكاثر: ٥) جوابه محذوف دل عليه ما تقدم، أى لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لَّما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذى يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه ويرتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء، وفى هذا المعنى قال حسان بن ثابت ﷺ فى أهل بدر:

سرْنا وساروا إلى بَدْرٍ لِحَتْفِهِمُ　　　لَوْ يعلمونَ يقينَ العلمِ ما ساروا

وقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(التكاثر:٣-٤) قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾(النبأ: ٤-٥) وقيل: ليس تأكيدًا بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثانى فى القبر، هذا قول الحسن ومقاتل. ورواه عطاء عن ابن عباس. ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه: أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم

الإخلال بالفصاحة. الثاني: توسط «ثم» بين العِلْمَيْن، وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زمانًا وخطرًا. الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع فإن المُحْتَضَر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علمًا هو فوق الأول. الرابع أن عليَّ بن أبى طالب وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر، قال الترمذى: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سلم الرازى عن عمرو بن أبى قيس عن الحجاج عن المنهال بن عمرو عن زر عن على قال: «ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾»[1].

قال الواحدى: يعنى أن معنى قوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فى القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها، ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟ فالأول سؤال عن سبب استخراجه، والثانى عن محل صرفه كما فى جامع الترمذى من حديث عطاء بن أبى رباح عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسْئَل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله: من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعماذا عمل فيما عمل»[2].

وفيه - أيضًا - عن أبى برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسْئَلَ عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما

(١) رواه الترمذي (٨٧٧)، والطبري في «التفسير» (٣٠/٢٨٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٧٧)، وأعله الترمذي بقوله: قال أبو كريب مرة: عن عمرو بن أبي قيس وهو رازي، ومرة: عن عمرة بن قيس الملائي، كوفي، عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو. أهـ. والحديث ضعَّفه الألباني في «ظلال الجنة» (٨٧٧).

(٢) رواه الترمذي(٢٤٦)، والمروزي في«الصلاة»(٨٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»(١٩٦٩).

أبلاه»[1] قال: هذا حديث صحيح.

وفيه - أيضًا - من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسْئَلُ عنه العبد يوم القيامة - يعنى من النعيم - أن يقال له: ألم نُصح جسمك ونرويك من الماء البارد؟»[2].

وفيه - أيضًا - من حديث الزبير بن العوام ﷺ لما نزلت ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال الزبير: «يا رسول الله، فأى النعيم نُسْئَل عنه وإنما هو الأسودان التمر والماء؟! قال: أما إنه سيكون»[3]. قال: هذا حديث حسن. وعن أبي هريرة نحوه وقال: «إنما هو الأسودان: العدو حاضر، سيوفنا على عواتقنا! قال: إن ذلك سيكون» وقوله: «إن ذلك سيكون» إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم، وإما أن يرجع إلى السؤال، أي أن السؤال يقع عن ذلك وإن كان تمرًا وماءً، فإنه من النعيم. ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا وشربوا من الماء البارد: «هذا من النعيم الذى تُسْئَلون عنه يوم القيامة»[4] فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفى الترمذى من حديث أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال: «يُجَاء بالعبد يوم القيامة كأنه بَذَج[5] فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول الله: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعتُهُ وثمرتُهُ فتركته أوفر ما كان فارجعنى آتِك به، فإذا عبد لم يقدم خيرًا، فيمضى به إلى النار»[6]. وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة - رضى الله عنهما -

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٧)، والدارمي (٥٣٧)، والطبراني في الأوسط (٢١٩١)، والروياني في مسنده (١٣١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٧٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٥٨)، وابن حبان (موارد - ٢٥٨٥)، والحاكم (١٣٨/٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٩).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٥٦) وقال: هذا حديث حسن.

(٤) رواه مسلم (٢٠٣٨) والترمذي (٢٣٦٩) وابن ماجه (٤١٥٨).

(٥) البَذَج: ولد الضأن، والجمع بُذْجان.

(٦) رواه الترمذي (٢٤٢٧)، وابن المبارك في «الزهد» (١٠٠٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٣١٠/٦)، وفيه إسماعيل ابن مسلم وهو ضعيف، والحديث ضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٤١٣).

قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالاً وولدًا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وترتع؟ أفكنت تظن أنك ملاقِ يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتنى**»[1] قال: هذا حديث صحيح.

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسؤلون عن النعيم، وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل، واختار الواحدى ذلك واحتج بحديث أبى بكر: «لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبى الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نُسْأَل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك للكفار، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾(سبأ: ١٧) قال الواحدى: والظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم، والمعنى - أيضًا - يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسئلوا عما أنعم به عليهم توبيخًا لهم، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم. قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن قال: لا يسئل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس فى اللفظ ولا فى السنة الصحيحة ولا فى أدلة العقل ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك. ويدل على ذلك قول النبى ﷺ عند قراءة هذه السورة: «**يقول ابن آدم: مالى مالى! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟**[2]...» الحديث، وهو فى صحيح مسلم. وقائل ذلك قد

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨) بنحوه مطولاً، ورواه بلفظه (٢٤٢٨)، وابن حبان (٤٦٤٢) والحميدي (١١٧٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٣٢)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٢٣) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٧٨).

(٢) سبق تخريجه.

يكون مسلمًا وقد يكون كافرًا، ويدل عليه - أيضًا - الأحاديث التى تقدمت، وسؤال الصحابة النبى ﷺ وفهمهم العموم حتى قالوا له: وأى نعيم نسئل عنه؟ إنما هو الأسودان! فلو كان الخطاب مختصًّا بالكفار لبيَّن لهم ذلك وقال: ما لكم ولها، إنما هى للكفار. فالصحابة فهموا التعميم، والأحاديث صريحة فى التعميم، والذى أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبى بكر الذى أحتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح، والحديث الصحيح فى تلك القصة يشهد ببطلانه، ونحن نسوقه بلفظه، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال: ما أخرجكما من بيوتكما فى هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما، قوما. فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبًا وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ : وأين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا منِّى. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذا. فأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ : إياك والحلوبة. فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: والذى نفسى بيده لتُسْئَلُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم!»[1]. فهذا الحديث الصحيح صريح فى تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضًا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرًا، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر، وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين وإن تنازع فيه من لا يعتد

(١) رواه مسلم (٢٠٣٨)، والترمذي (٢٣٦٩) وابن ماجه (٤١٥٨).

بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾(البقرة: ١٨٣) ونظائره كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين، فقوله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم فى الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر ولهذا لم يدخلوا فى الوعيد المذكور لمن ألهاه. قيل: هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به، وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان، على طريقة القرآن فى تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً ﴾(الإسراء: ١١)، ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾(الإسراء: ١٠٠)، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾(العاديات: ٦)، ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾(الأحزاب: ٧٢)، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾(الحج: ٦٦) ونظائره كثيرة، فالإنسان من حيث هو عارٍ عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذى يكمله بذلك ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التى هى له من نفسه ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلاَّ فهو مُلْتَهٍ بالتكاثر فى الدنيا ولا بد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال: الوعيد المذكور مشترك وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له فى الدنيا، وليس فى قوله: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما يقتضى دخول النار فضلاً عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا، وقد اقسم الرب تبارك وتعالى أنه لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم. فليس فى جملة هذه السورة ما ينفى عموم خطابها، وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يُسْأَل عن النعيم إلا أهل النار فباطل قطعًا إما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة

ترده وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير الملهى وانطباق معناها على أكثر الخلق، يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفى فى ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها، والله أعلم.

وتأمل ما فى هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو فى عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود، وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضًا فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولســـتُ بالأكثر منهم حصًى	وإنَّما العـــــزَّة للكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنسانًا فى دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة، فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها فى ذلك وينافسها فى هذه المكاثرة ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذى هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر مُلْهٍ عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان. والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال بذكر بالله ولقائه وعاقبته الكثرة الدائمة التى لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علمًا، وإذا رأى غيره أكثر منه فى خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على

المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذمومًا ولا قادحًا فى إخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج ﷺ فى تصاولهم بين يدى رسول الله ﷺ ومكاثرة بعضهم لبعض فى أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبى بكر - رضى الله عنهما - فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شىء أبدًا.

فصـــــــل

ومن تأمل حسن موقع ﴿كَلَّا﴾ فى هذا الموضع فإنها تضمنت ردعًا لهم وزجرًا عن التكاثر ونفيًا وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا. وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التى ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فلله ما أعظمها من سورة وأجلَّها وأعظمها فائدةً وأبلغها موعظةً وتحذيرًا وأشدها ترغيبًا فى الآخرة وتزهيدًا فى الدنيا، على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًّا وبلغها رسوله عنه وحيًا.

(فصـــــل) وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حى، زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون فى المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين فكيف بهم وهم فى الطريق فى هذه الدار؟ فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر. فهنا هنا ثلاثة أمور: عبور السبيل فى هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار.

۞ فصـــــل ۞

الله يرعى أولياءه

فلنرجع إلى تمام المناظرة. قالوا: فالله تعالى حمى أولياءه عن الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريمًا لهم وتطهيرًا عن أدناسها ورفعة عن دناءتها، وذمها لهم وأخبرهم بهوانها عليه وسقوط قدرها عنده، وأعلمهم أن بسطها فتنة وأنه سب الطغيان والفساد فى الأرض، وإلهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة وأنها متاع الغرور، وذم محبيها ومؤثريها، وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له فى الآخرة من نصيب، وأخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة، وإن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم فى الخيرات، وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه، وأنه لولا تتابع الناس فى الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم ووسعها عليهم أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسُررهم كلها من فضة، وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم فى الآخرة، ونهى رسوله عن مد عينيه إليها وإلى ما متع به أهلها، وذم من أذهب طيباتــه فيها واستمتع بها، وقال لنبيه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(الحجر: ٣) وفى هذا تعزية لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها، وتأديب لمن بســـط له فيها ألا يطــغى فيها ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها، ولام سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة فى سعتها وبسطها، فأكذبهم الله سبحانه.

وأخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه، ومثَّلها لعباده بالأمثلة التى تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون إليها، فأحضر صورتها وحقيقتها فى قلوبهم بما ضربه لها مثلاً كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبسًا هشيمًا تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء.

وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها، وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها

ساعة من نهار أو يومًا أو بعض يوم، ونهى سبحانه عباده أن يغترُّوا بها، وأخبرهم أنها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور، وطريق ومعبر إلى الآخرة، وأنها عرض عاجل لابقاء له، ولم يذكر مريدها بخير قط، بل حيث ذكره ذمه، وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى في إرادته، فالله يريد شيئًا ومريد الدنيا يريد خلافه، فهو مخالف لربه بنفس إرادته، وكفى بهذا بعدًا عنه سبحانه. وأخبر سبحانه عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم. قالوا: وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب في التقلل منها ما أمكن.

قالوا: وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ فلم يردها ولم يخترها، ولو آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذه منها وأنفقه كله في مرضاة الله وسبيله قطعًا، بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش فيها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد حدثنا عباد - يعني ابن عباد - حدثنا مجالد ابن سعيد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: «**دخلت عَلَيَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءةً مثنيَّةً، فرجعت إلى منزلها فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: ما هذا؟ فقلت: فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأت فراشك فبعثت إليَّ بهذا. فقال: رديه. فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال: يا عائشة رُدِّيه، واللهِ لو شئتُ لأجرَى الله معي جبال الذهب والفضة**»[1].

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها وقال:

[2]. وسأل ربه أن يجعل رزق

أهله قوتًا كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

اجعل رزق آل محمد قوتًا»[1] وفيهما عنه قال: «والذى نفس أبى هريرة بيده ما شبع نبى الله وأهله ثلاثة أيامٍ تباعًا من خبزِ حنطةٍ حتى فارق الدنيا»[2].

وفى صحيح البخارى عن أنس ﷺ: «ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مرققًا ولا شاةً سميطًا قَطُّ حتى لحق بربه»[3] وفى صحيحه - أيضًا - عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير»[4]. وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البُرِّ ثلاث ليالٍ تباعًا حتى قُبض»[5] وفى صحيح مسلم عن عمر ﷺ: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يَظَلُّ اليوم ما يجد دقلا يملأ بطنه»[6].

وفى المسند والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعات طاويًا وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير»[7] قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وفى الترمذى من حديث أبى أمامة: «ما كان يفضل أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير»[8] وفى المسند عن عائشة رضى الله عنها: «والذى بعث محمدًا بالحق ما رأى منخلاً ولا أكل خبزًا منخولاً منذ بعثه الله ﷻ إلى أن قبض. قال عروة: فقلت: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف - أى نفخه - فيطير ما طار ونعجن الباقى»[9]. وفى صحيح البخارى عن أنس قال: لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير،

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مسلم (٢٩٧٦)، والترمذى (٢٣٥٨)، وابن ماجه (٣٣٤٣).
(٣) رواه البخارى (٥٣٨٥)، وابن ماجه (٣٣٠٩)، وأحمد (١٢٨،١٣٤،١٤٩/٣).
(٤) رواه البخاري (٥٤١٤) من حديث أبي هريرة.
(٥) رواه البخاري (٦٤٥٤) ومسلم (٢٩٧٠) وابن ماجه (٣٣٤٤).
(٦) رواه مسلم (٢٩٧٧) والترمذي (٢٣٧٢).
(٧) رواه الترمذي (٢٣٦٠) وابن ماجه (٣٣٤٧) وأحمد (٢٥٥/١، ٣٧٣) وابن سعد في «الطبقات» (٤٠٠/١)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٢٣).
(٨) رواه الترمذي (٢٣٥٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٩) رواه البخاري (٥٤١٣) وابن ماجه (٣٣٣) وابن حبان (٦٣٤٧) والبيهقي في الشعب (٥٦٥٥) وعبد بن حميد في «مسنده» (٤٦١).

ولقد سمعته يقول: «ما أصبح لآل محمد صاعٌ ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات»[1].

وفى مسند الحارث عن أبى أسامة عن أنس أن فاطمة - رضى الله عنها - جاءت بكسرة خبز إلى النبى فقال: «ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت: قرص خبزته فلم تَطِبْ نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة. فقال: أما إنه أول طعام دخل فى فم أبيك منذ ثلاثة أيام»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر ﷺ قال: «لـمَّا حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهدٌ شديدٌ حتى ربط النبى ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع»[3].

وقد أسرف أبو حاتم بن حبان فى تقاسيمه فى ردِّ هذا الحديث وبالغ فى إنكاره، وقال: المصطفى أكرم على ربه من ذلك. وهذا من وهمه، وليس فى هذا ما ينقص مرتبته عند ربه، بل ذلك رفعة له وزيادة فى كرامته وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم. وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث فى معيشة النبى ﷺ وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه؟ فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب مُلْكٍ ودنيا لكان عيشه عيشَ الملوك وسيرتُه سيرتَهم، ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله، وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجُبِيَت إليه الأموال، ومات ولم يترك درهمًا واحدًا ولا دينارًا ولا شاةً ولا بعيرًا ولا عبدًا ولا أَمَة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن أبى حازم عن عروة أنه سمع

---

(١) رواه البخاري (٢٥٠٨) والنسائي (٧٢٨٨) وابن ماجه(٢٤٣٧) وأحمد(٣/١٠٢، ١٣٣، ٢٠٨).

(٢) رواه أحمد (٣/٢١٣) والطبراني في الكبير (١/٢٥٨) والضياء في «المختارة» (٢٥٩٧) والبيهقي في «الشعب» (١/٤٠٠) وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٣١٢): رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات.أهـ.

(٣) رواه البخاري (٤١٠١) وأحمد (٣/٣٠٠) والدارمي (٤٢) وابن أبي شيبة (٦/٣١٤) والطبراني في الأوسط (٣٢٧٦).

عائشة تقول: كان يمرُّ بنا هلالٌ وهلالٌ ما يُوقَد فى بيت من بيوت رسول الله ﷺ نارٌ. قلت: يا خالة، فعَلَى أى شىء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين التمر والماء»(1) وقد تقدم حديث أبى هريرة فى قصة أبى الهيثم بن التيهان وأنه خرج رسول الله من بيته فرأى أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - فقال: «ما أخرجكما؟ قالا: الجوع. قال: وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما» (2).

وذكر أحمد من حديث مسروق قال: «دخلت على عائشة فدعت لى بطعام وقالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت. قال: قلت: لِمَ؟ قالت: أذكر الحال التى فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما شبع فى يوم مرتين من خبز البُرِّ حتى قبض» (3) وفيه عنها: «ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض»(4). والحديثان صحيحان، وفيه - أيضًا - عنها: «ما شبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل»(5) وفى الصحيحين عن أبى هريرة: «ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثًا أتباعًا من خبز البر حتى فارق الدنيا» (6).

وفى الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «كان النبى ﷺ يبيت الليالى طاويًا وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير» (7) وفيه - أيضًا - عن أنس عنه ﷺ : «لقد أُخِفْتُ فى الله وما يخاف أحدٌ، ولقد أُوذيتُ فى الله وما يؤذَى أحدٌ، ولقد أتت علَىَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لى ولبلالٍ طعام يأكله ذو كبد إلا شىءٌ يواريه إبطُ

---

(1) رواه مسلم (٢٩٧٢) وأحمد (٦/٧١، ٨٦).
(2) سبق تخريجه.
(3) رواه الترمذي (٢٣٥٦) وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف.
(4) روه مسلم (٢٩٧٠) والترمذي (٢٣٥٧).
(5) رواه أحمد (٦/١٢٨، ١٨٧).
(6) سبق تخريجه.
(7) سبق تخريجه.

بلال»(١) والحديثان صحيحان، وفيه - أيضًا - عن أنس بن مالك ﷺ عن أبى طلحة ﷺ قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا حجرًا حجرًا، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين»(٢). وفيه - أيضًا - عن علقمة عن عبد الله ﷺ قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وِطاءً؟ فقال: ما لى وللدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٣) حديث صحيح. وفيه عن على ﷺ قال: «خرجت فى يوم شاتٍ من بيت رسول الله ﷺ وقد أخذت إهابًا معطوبًا فجَوَّبت وسطه وأدخلته فى عنقى فشددت به وسطى، فحزمته بخوص من النخل وإنى لشديد الجوع، ولو كان فى بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئًا فمررت بيهودى فى مالٍ له وهو يسقى ببكرة له فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط فقال: مالك يا أعرابى؟ وهل لك فى كل دلو بتمرة؟ قلت: نعم. فافتح الباب حتى أدخل ففتح فدخلت، فأعطانى دلوه فكلما نزعت دلوًا أعطانى تمرة حتى امتلأت كفى أرسلت دلوه وقلت: حسبى، فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت، ثم جئت المسجد فوجدت رسول الله ﷺ فيه»(٤) وقال سعد بن أبى وقاص ﷺ : «لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا الحُبْلة وهذا السَّمُر»(٥) والحبلة: ثمر العضاه ذات الشوك. وهو حديث صحيح.

وكان يصلى من الليل أحيانًا وعليه كساء صوف بعضه عليه وبعضه على عائشة، قال الحسن: أثمان ستة دراهم أو سبعة. وقال أحمد: حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو زائدة حدثنا عطاء عن أبيه عن على قال: «جهز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميل وقربة ووسادة من أدم حشوها

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه الترمذي (٢٣٧١) وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وضعّفه الألباني في «مختصر الشمائل» (١١٢).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه الترمذي (٢٤٧٣) وابن ماجه (٢٤٤٧) وقال الترمذي: حسن غريب. إهاب: جلد غير مدبوغ. معطوب: منتن قد تمزق شعره. جوّبت: قطعت وسطه.
(٥) رواه البخاري (٦٤٥٣) ومسلم (٢٩٦٦) والترمذي (٢٣٦٦) وابن ماجه (١٣١).

ليف»[1] والخميل: الكساء الذى خمل. قال: وحدثنا بهز بن أسد حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد قال: قال أبو بردة: «دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزارًا غليظًا مما يصنع باليمن، وكساء من هذه التى تدعونها الملبدة، فقالت: قُبِضَ رسول الله ﷺ في هذين الثوبين»[2].

قالوا: ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا، ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم، ولم يكن رسول الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له، ولم يكن الله ليختار له إلا الأفضل؛ إذ كان أفضل خلقه وأكملهم.

قالوا: وقد أخبر النبى ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد فلا يُعْوِزه ما يضره ولا يَفْضُل عنه ما يطغيه ويلهيه.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن مهدى حدثنا همام عن قتادة عن خليد العصرى عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طلعت شمسٌ قَطُّ إلاَّ بُعِثَ بجنبيها مَلَكان يناديان يُسمِعانِ أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خيرٌ مما كثر وألهى، ولا آبت شمسٌ قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى لبيبة عن سعد بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الرزق ما يكفى، وخير الذكر الخفى»[4].

وتأمل جمعه فى هذا الحديث بين رزق القلب والبدن، رزق الدنيا والآخرة، وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد، فيكفى من الذكر إخفاؤه، فإن زاد على الإخفاء خيف على

---

(١) رواه النسائي (٣٣٨٤) وابن ماجه (٤١٥٢) وأحمد (٨٤/١) والحاكم (١٨٥/٢) والحميدي(٤٤، ٦٤٣). وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٢) رواه البخاري (٥٨١٢) ومسلم (٢٠٨٠) وأبو داود (٤٠٦٠).
(٣) رواه أحمد (١٩٧/٥) وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٤٣).
(٤) رواه أحمد (١٧٢/١، ١٨٠، ١٨٧) وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٨٨٩).

صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين، وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

قالوا: وقد غبط رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغنى.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا على بن صالح عن أبى المهلب عن عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن أغبط أوليائى عندى مؤمنٌ خفيفُ الحاذ ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه وكان غامضًا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع فعجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه»(١) قال عبد الله بن أحمد: سألت أبى: ما تراثه؟ قال: ميراثه.

قالوا: وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا إنما هو من محبته له وكرامته. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال عن عمرو بن أبى عمرو عن عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم»(٢) قالوا: وقلَّ أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعتها إلا استدراجًا من الله لا إكرامًا ومحبة لمن أعطاه.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشد بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبى عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر ﷺ عن النبى ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب فإنما هو استدراجٌ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾(الأنعام: ٤٤)»(٣).. الآية. قالوا: وهوان

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٧) وابن ماجه (٥/٢٥٢، ٢٥٥) والحاكم (٤/١٢٣) وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٩٧٤، ١٣٩٧).

(٢) رواه أحمد (٥/٤٢٧) والحاكم (٤/٢٠٨) وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨١٤).

(٣) رواه أحمد (٤/١٤٥) والطبري في «التفسير» (٧/١٩٥) والطبراني في «الكبير» (١٧/٣٣٠) والأوسط (٩٢٧٢) والروياني في «مسنده» (٢٦٠) والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠). وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤١٣).

الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سالم بن أبى الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتى لو أتى باب أحدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ولو سأله فلسًا لم يعطه إياه، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه، ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه، وما يمنعها إياه، هوانه عليه ذو طمرين لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأَبَرَّه» [1] وهذا يدل على أنه إنما يمنعه إياها لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه؛ ولهذا يعطيه أفضل منها وأَجَلّ، فإن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الآخرة إلا من يحب.

قالوا: وقد أخبرهم النبى ﷺ أن أقربهم منه مجلسًا ذوو التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو قال: سمعت عراك بن مالك يقول: قال أبو ذر: «إنِّى لأقربكم مجلسًا من رسول الله ﷺ يوم القيامة، وذلك أنى سمعته يقول: إن أقربكم منِّى مجلسًا يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها، وإنه واللهِ ما منكم من أحد إلا وقد تشبَّث منها بشيء غيرى»[2] قالوا: وقد غبط النبى ﷺ من كان عيشه كفافاً وأخبر بفلاحه، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا حيوة قال: أخبرنى أبو هانئ أن أبا على الحبشى أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هُدِىَ إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع» [3].

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص ١٢) والطبراني في الأوسط (٧٥٤٨) وهناد في «الزهد» (٥٨٧). وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٦٤): ورجاله رجال الصحيح.أهـ. قلت: وهو كما قال، إلا أنه مرسل.

(٢) رواه أحمد (٥/١٦٥) وأبو نعيم في الحلية (١/٦١) والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٠٥) وابن سعد في «الطبقات» (٤/٢٢٩) وقال ابن حجر في «الإصابة» (٧/١٢٨): وأظنه منقطعًا لأن عراكًا لم يسمع من أبي ذر ﷺ أهـ.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٩) وأحمد في المسند (٦/١٩) وفي الزهد (ص ٩) وابن حبان (٧٠٥) والطبراني في «الكبير» (١٨/٣٠٦) والحاكم (٤/١٢٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦١٦) وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩١٥)، و«الصحيحة» (١٥٠٦).

وذكر - أيضًا - من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنّعه الله بما آتاه»[1] قالوا: ولو لم يكن فى التقلل إلا خفة الحساب لكفى به فضلاً على الغنى. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم قال: حدثنى بشر بن الحارث حدثنا عيسى بن يونس عن هشام عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يحاسب بهن العبد: ظلُّ خصٍّ يستظل به، وكسرة يشد بها صلبه، وثوب يُوارى عورته»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا ليث عن أبى عثمان قال: لما افتتح المسلمون جوجى دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال، وكان رجل يمشى إلى جنب سلمان فقال: «يا أبا عبد الله ألا ترى إلى ما فتح الله علينا؟ ألا ترى إلى ما أعطانا الله؟ فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى؟ إلى جنب كل حبة مما ترى حساب».

قالوا: وقد شهد النبى ﷺ لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خير منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد أبو الأشهب عن الحسن قال: قال نبى الله ﷺ :«يا أهل الصُّفَّة، كيف أنتم؟ قالوا: نحن بخير. قال: أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى، ويغدو فى حُلَّة ويروح فى أخرى، وتسترون فى بيوتكم مثل أستار الكعبة؟ قالوا: يا نبى الله نحن يومئذ خير، يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر. قال: بل أنتم اليوم خير»[3] فهذا صريح فى أنهم فى وقت صبرهم على فقرهم خير منهم فى وقت غناهم مع الشكر.

---

(١) رواه مسلم(١٠٥٤) والترمذي(٢٣٤٨) وابن ماجه(٤١٣٨) وأحمد(١٦٨/٢) والبيهقي(١٩٦/٤) وعبد بن حميد في «مسنده» (٣٤١/٣).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٥٦٤).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢٣/٢) والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٣) وقد روى بنحوه عن ابن مسعود مرفوعًا، ذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٢٣/١٠) والمنذري في «الترغيب والترهيب»(١٠٠/٣) وقالا: رواه البزار وإسناده جيد، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٢٣/١٠) من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير أبي جعفر الخطمي وهو ثقة. ورواه الطبراني في «الكبير» (١٠٨/٢٢) عن أبي جحيفة. وقال الهيثمي: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الجبار بن العباس الشيباني وهو ثقة. أهـ.

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبو ذر حدثنا حفص بن غياث عن داود بن أبى هند عن أبى حرب بن أبى الأسود عن طلحة البصرى قال: قدمت المدينة ولم يكن لى بها معرفة، فكان يُجْرَى علينا مُدٌّ من تمر بين اثنين، فصلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاةً فهتف به هاتف من خلفه فقال: «يا رسول الله، قد حرق بطوننا التمر وعزفت عنَّا الكنف. فخطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكموه، ولَيَأتينَّ عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتُراح، ولتُلبسُنَّ بيوتكم مثل أستار الكعبة. قالوا: يا رسول الله، نحن اليوم خيرٌ منَّا أو يومئذٍ؟ قال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذٍ، أنتم اليوم خير منكم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبى الله دخل على أهل الصفة، فذكر نحوه(٢).

قالوا: ولو لم يكن فى الغنى والمال إلا أنه فتنة وقل من سلم من إصابتها له وتأثيرها فى دينه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(التغابن : ١٥) وفى الترمذى من حديث كعب بن عياض قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتى المال»(٣) قال: هذا حديث حسن صحيح. قالوا: والمال يدعو إلى النار، والفقر يدعو إلى الجنة، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا أبو الأشهب حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور قال: بينا رسول الله ﷺ يُحدِّث أصحابه إذْ جاء رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء فكأنه قبض من ثيابه عنه، فقال رسول الله ﷺ : أخشيت يا فلان أن يغدو وغناك عليه أو

---

(١) رواه أحمد (٤٨٧/٣) والبيهقي (٤٢٥/٢) وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤٣٤) والخطيب في «الموضح» (٤٩٩/١) ويشهد له ما قبله.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٣٧) والطبري في «التفسير» (٢١/٢٦) عن قتادة مرسلاً.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٣٦) وأحمد (١٦٠/٤) وابن حبان (موارد- ٢٤٧٠) والحاكم (٣١٨/٤) والطبراني في «الكبير» (١٧٩/١٩) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٢٢) وابن سعد في الطبقات (٤١٤/٧) وابن قانع في «معجم الصحابة» (٩٢٠) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»(١٩٠٥) و«الصحيحة» (٥٩٤).

يغدو فقره عليك؟ قال: يا رسول الله، وشر الغنى؟ قال: نعم، إن غناك يدعوك إلى النار وإن فقره يدعوه إلى الجنة. قال: فما ينجيني منه؟ قال: تواسيه. قال: إذن أفعل. فقال الآخر: لا أرب لى فيه. قال: فاستغفر وادْعُ لأخيك»[1].

قالوا: وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره، وقد روى الترمذى فى جامعه من حديث عثمان بن عفان ﷺ أن النبى ﷺ قال: «ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى به عورته، وجلفُ الخبز والماء»[2]. قال: هذا حديث حسن صحيح. وفى صحيح مسلم عن أبى أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، إنك إنْ تبذل الفضل خيرٌ لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»[3].

وفى صحيحه - أيضًا - من حديث أبى نضرة عن أبى سعيد ﷺ قال: بينما نحن فى سفر مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يضرب يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان معه فضلٌ من ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضلٌ مِنْ زادٍ فليعد به على مَنْ لا زاد له». قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا فى فضل.

قالوا: فهذا موضع النظر فى تفضيل الغنى الشاكر ببذل الفضل كله، وإما غنى يمتع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض المستحب فكيف يفضل على فقيرٍ صابرٍ راضٍ عن الله فى فقره؟ قالوا: وقد أقسم رسول الله ﷺ لأصحابه، وهم أئمة الشاكرين، أنه لا يخاف عليهم الفقر وإنما يخاف عليهم الغنى، ففى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف - وكان شهد بدرًا - أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٣٨) وإسناده مرسل.
(٢) رواه الترمذي (٢٣٤١) والحاكم (٣١٢/٤) وذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٣٤) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٩١٤).
(٣) رواه مسلم (١٠٣٦) والترمذي (٢٣٤٣).

صالح أهل البحرين وأمَّرَ عليهم العلاء بن الحضرمى، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرَّضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين. فقالوا: أجل يا رسول الله. قال: أبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[1].

قال الإمام أحمد: حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن قال: قيل لأبى ثعلبة الخشنى: أين دنياكم التى كنتم تعدون يا أصحاب محمد؟ قال: ليبشر الآخر بدنيا قد ظلت تأكل - والله الذى لا إله إلا هو - الإيمانَ كما تأكل النار الحطب الجزل» وقال أحمد: حدثنا يزيد حدثنا هشام بن حسان قال: سمعت الحسن يقول: والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه فلم يَخَفْ أن يكون قد مُكِرَ به فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه»[2].

قالوا: وقد مر على النبى ﷺ فقير وغنى فقال عن الفقير: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» وروى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد ﷺ قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون فى هذا؟ فقالوا: حَرِىٌّ إنْ خَطَبَ أن يُنْكَح وإنْ شَفَعَ أنْ يُشَفَّع وإن قال أن يُسمع. قال: ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون فى هذا؟ قالوا: حَرِىٌّ إنْ خَطَبَ أنْ لا يُنْكَح وإنْ شَفَعَ أن لا يُشَفَّع وإن قال أنْ لا يسمعَ لقوله. فقال رسول الله ﷺ : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[3].

وقد بشر رسول الله ﷺ الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء، ففى الترمذى من

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٨) ومسلم (٢٩٦١) والترمذي (٢٤٦٢) وابن ماجه (٣٩٩٧).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٣٧) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٧٢).

(٣) رواه البخاري (٥٠٩١) وابن ماجه (٤١٢٠) والطبراني في «الكبير» (٦/١٦٩) والروياني في «مسنده» (١٠١٦).

حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم وقال: لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة» قال فضالة: «وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ»[1] وبشرهم بسبقهم الأغنياء إلى الجنة.

وقد اختلفت الروايات في مدة هذا السبق، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا: يا أبا محمد، والله ما نقدر على شيء لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يَسَّر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا»[2] قالوا: نصبر ولا نسأل شيئًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد بن بن سلمة عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام»[3] قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وفي الترمذي - أيضًا - من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة»[4] وهو حديث حسن. وفيه أيضًا من حديث جابر بن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا»[5] وهو حديث حسن، وهو موافق لحديث عبد الله بن عمر ولحديث أنس الذي في الترمذي: «إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفًا»[6].

فهؤلاء ثلاثة: جابر وأنس وعبد الله بن عمر، وقد اتفقوا على الأربعين، وهذا أبو هريرة

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٦٨) وأحمد (١٨/٦، ١٩) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٣٠).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه الترمذي (٢٣٥١) وابن ماجه (٤١٢٣) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩١٦).
(٥) سبق تخريجه.
(٦) سبق تخريجه، وأوله: «اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا» ... الحديث.

وأبو سعيد قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة، ولا تعارض بين هذه الأحاديث إذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى، فمنهم من يسبق بأربعين، ومنهم من يسبق بخمسمائة، ولا يتقيد السبق بهذا المقدار بل يزيد عليه وينقص.

وقد روى أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : «**إن أول الأمة** دخولاً إلى الجنة أبو بكر الصديق ﷺ »[1] ومعلوم أن المدة التى بينه وبين إخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول، وأنها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

سيادة الفقراء للجنة

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمر ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاءً، تقول الملائكة: يا ربنا، نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك، لا تدخلهم الجنة قبلنا. فيقول: عبادى لا يشركون بى شيئًا، يتقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاءً. فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(الرعد: ٢٤)»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد ثنا دويد عن مسلم بن بشير عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ : «التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا فى الدنيا، فأُدخِل الفقيرُ الجنةَ وحُبِسَ الغنىُّ ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة، فلقيه الفقير فيقول: أى أخى، ماذا حبسك؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك. فيقول: أى أخى، إنى حبست بعدك محبسًا فظيعًا كريهًا، ما وصلت إليك حتى سال

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٥٢) وأحمد في «فضائل الصحابة» (٢٥٨) والطبراني في «الأوسط» (٢٥٩٤) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٥) و«الضعيفة» (١٧٤٥).

(٢) سبق تخريجه.

منِّي من العرق ما لو ورده ألفُ بعيرٍ كلها أكلت حمضًا لصدرت عنه رِواءً»(1) وقال الطبراني في معجمه: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي وعلى بن سعيد الرازى قالا: حدثنا على بن بهرام العطار حدثنا عبد الملك ابن أبى كريمة عن الثورى عن محمد بن زيد عن أبى حازم عن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة. فقال رجل: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: إن تغدَّيتَ رجعتَ على عشاء وإذا تعشيتَ يبيت معك غداء؟ قال: نعم. قال: لست منهم. فقام رجل فقال: أمنهم أنا يارسول الله؟ قال: هل سمعت ما قلنا لهذا؟ قال: نعم ولستُ كذلك. قال: هل تجد ثوبًا ستيرًا سوى ما عليك؟ قال: نعم. قال: فلست منهم. فقام آخر فقال: أمنهم أنا يا رســـول الله؟ فقال: هل ســمعت ما قلت لهذين قبلك؟ قال: نعم. قال: هل تجد قرضًا كلما شئت أن تستقرض؟ قال: نعم. قال: فلست منهم. فقام آخر فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟ قال: نعم. قال: تقدر أن تكتسب؟ قال: نعم قال فلست منهم. قال: فقام خامس فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟ قال: نعم. قال: هل تمسى عن ربك راضيًا وتصبح كذلك؟ قال: نعم. قال: فأنت منهم. قال النبى ﷺ: إن سادات المؤمنين فى الجنة مَنْ إذا تغدَّى لم يَجِدْ عشاءً، وإذا تعشى لم يَبِتْ عنده غداءٌ، وإن استقرض لم يجد قرضًا، وليس له فَضْلُ كُسوةٌ إلا ما يوارى به ما لا يجد منه بُدًّا، ولا يقدر على أن يكتسب ما يعشيه ويمســـى عن الله راضيًا ويصبح راضيًا ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾(سورة النساء: ٦٩) (2) قال الطبرانى: هذا حديث غريب من حديث سفيان الثورى عن محمد بن زيد، يقال: هو العبدى، تفرد به عبد الملك. قلت: محمد هذا هو العبدى، وثقه قوم وضعفه آخرون، قال الداقطنى: ليس بالقوى. وقال أبو حاتم: صالح

(1) رواه أحمد (٣٠٤/١) وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٣/١٠): رواه أحمد، وفيه دويد، غير منسوب فإن كان هو الذي يروي عن سفيان فقد ذكره العجلي في الثقات، وإن كان غيره لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح غير مسلم بن بشير وهو ثقة. أهـ.

(2) حلية الأولياء (١٠٠/٧).

الحديث. وذكره ابن حبان فى الثقات، وروى له الترمذى وابن ماجه، وفى هذه الطبقة محمد ابن زيد الشامى يروى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وهو متروك ونخاف أن يكون هذا الثورى لم ينسبه وإنما يقال: هو العبدى، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائى عن يحيى بن أبى كثير عن عامر العقيلى عن أبيه عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُرِض عَلَيَّ أولُ ثلاثةٍ يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رِقُّ الدنيا عن طاعة ربه، وفقيرٌ متعففٌ ذو عيال. وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فأميرٌ مسلطٌ، وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله فى ماله، وفقيرٌ فخور**»[1] وروى الترمذى منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط[2].

قالوا: ويكفى فى فضل الفقير أن عامة أهل الجنة الفقراء، وعامة أهل النار الأغنياء، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد بن أبى شيبة حدثنا شريك عن أبى إسحاق عن السائب بن مالك عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**اطَّلعتُ فى الجنة فرأيت أكثرَ أهلها الفقراء، واطلعتُ فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء**»[3].

وفى صحيح البخارى عن أبى رجاء قال: جاء عمران بن حصين إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ فقالت: حدثنا ما سمعت من النبى ﷺ فقال: إنه ليس من حديث. فلم تَدَعْه (أو قال: فأغضبته) فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نظرتُ فى الجنة فرأيتُ أكثر أهلها**

(١) رواه أحمد (٢/٤٢٥، ٤٧٩) وابن حبان (٤٦٥٦) والحاكم (١/٣٨٧) والبيهقي (٤/٨٢) وابن أبي شيبة (٧/٢٦٨) والطيالسي في «مسنده»(٢٥٦٧) وقال الألباني في «ضعيف الجامع»(٣٧٠٣): ضعيف جدًا.

(٢) رواه الترمذي (١٦٤٢) وابن حبان (٤٣١٢) وابن أبي شيبة (٤/٢٣٠) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٧٠٢).

(٣) رواه أحمد (٢/١٧٣) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٩١١) و«الضعيفة» (٢٨٠٠) ولكن يغني عنه الحديث الآتي بعده.

الفقراء، ونظرتُ فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[1].

وفى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «قمتُ على باب الجنة فإذا عامَّةُ مَنْ دخلها المساكين، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»[2] وفى صحيح مسلم عن ابن عباس «أن النبى ﷺ اطَّلعَ فى النار فرأى أكثر أهلها النساء، واطلع فى الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء»[3].

قالوا: ويكفى فى فضل الفقر أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا إسماعيل - يعنى ابن خالد - عن نفيع عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من أحد يوم القيامة غنىٌّ ولا فقيرٍ إلاَّ وَدَّ أن ما كان أوتى فى الدنيا قوتًا»[4] قال البخارى: يتكلمون فى نفيع، وهذا أليق ما قيل فيه.

(الفقراء يفضلون الأغنياء)

قالوا: وقد صرح رسول الله ﷺ فى تفضيل الفقراء فى غير حديث، فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبى ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «يا أبا ذر، ارفع بصرك فانظر أرفع رجل تراه فى المسجد. قال: فنظرت فإذا رجلٌ جالسٌ عليه حُلَّةٌ له. قال: فقلت: هذا. قال: فقال: يا أبا ذر، ارفع بصرك فانظر أوضع رجل تراه في المسجد. قال: فنظرتُ فإذا رجلٌ ضعيفٌ عليه أخلاق. قال: فقلت: هذا. قال: فقال رسول الله ﷺ :والذى نفسى بيده لهذا أفضلُ عند الله

---

(١) رواه البخاري (٤٢٤١) والترمذي (٢٦٠٣) والنسائي في «الكبرى» (٩٢٥٩) وأحمد (٤/٤٢٩).
ورواه البخاري (٦٤٤٩) ومسلم (٢٧٣٧) والترمذي (٢٦٠٢) والنسائي في «الكبرى» (٩٢٦١) وأحمد (١/٢٣٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٥١٩٦) ومسلم (٢٧٣٦).

(٣) رواه البخاري (٦٤٤٩) ومسلم (٢٧٣٧) والترمذي (٢٦٠٢) والنسائي في «الكبرى» (٩٢٦١) وأحمد (١/٢٣٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٤) رواه ابن ماجه(٤١٤٠) وأحمد(٣/١١٧، ١٦٧) وقال الألباني في «ضعيف الجامع»(٥١٤٧): موضوع.

يوم القيامة من قُرَابِ الأرض من هذا»[1].

قال: حدثنا وكيع ووافقه زائد حدثنا الأعمش عن سليمان بن يسار عن خرشة بن الحر عن أبى ذر، فذكره وقال: «لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا» قال الإمام أحمد: وحدثنا أبو معاوية ووافقه يعلى قال: حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبى ذر فذكره.

قالوا: والذى يفصل بيننا فى هذه المسألة ويشفى العليل أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومنزلته عند الله، والغنى ولو شكر فإن ما ناله فى الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يوم القيامة وإن تناوله بأحل وجه، فقليل الفضل فى الدنيا ناقص من كثير الآخرة. وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال:« ما من غازيةٍ تغزو فى سبيل الله فيصيبون الغنيمةَ إلاَّ تعجَّلوا ثُلُثَيْ أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تمَّ لهم أجرُهم»[2].

وفى الصحيحين عن خباب بن الأرت ﷺ قال: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير ﷺ قُتِلَ يوم أُحُدٍ وترك بُرْدةً فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ونجعل على رجليه شيئًا من الإذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها»[3]. وفى الصحيحين عن قيس بن أبى حازم قال: دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات فقال: «إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم

---

(١) رواه أحمد(١٥٧، ١٧٠) والبيهقي في «الشعب»(١٠٤٧٩) وقال الهيثمي في «المجمع»(٢٥٨/١٠): رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح.أهـ. قوله: أخلاق، أي : ثياب بالية.

(٢) رواه مسلم(١٩٠٦) وأبو داود(٢٤٩٧) والنسائي(٣١٢٥) وابن ماجه(٢٧٨٥) وأحمد(١٦٩/٢).

(٣) رواه البخاري(١٢٧٦) ومسلم(٩٤٠) وأبو داود(٢٨٧٦) والترمذي(٣٨٥٣) والنسائي(١٩٠٢) والبيهقي(٤٠١/٣).

الدنيا»[1] وذكر الحديث. وقال سعيد بن منصور: حدثنا معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر - رضى الله عنهما- قال: «ما أوتى عبد من الدنيا شيئًا إلاَّ نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريمًا»[2].

وفى صحيح البخارى عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: أُتِيَ عبد الرحمن ﷺ بطعام وكان صائمًا فقال: قُتل مصعبُ بن عمير وهو خيرٌ منِّى وكُفِّنَ فى بردة إن غُطى رأسه بدت رجلاه وإن غطى رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة ﷺ وهو خيرٌ منى فلم يوجد له كفن إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط - أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أعطينا - وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام»[3].

قال أبو سعيد بن الأعرابى: وليس عبد الرحمن بن عوف وخباب قالا ذلك دون غيرهما، لقد قاله الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه، وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان أفضل، وأن ما أخروا له كان أنقص، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة وعمار بن ياسر وسلمان وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين وأبو هاشم بن عتبة، وجماعة لم نذكرهم للاختصار ﷺ.

فأما أبو بكر ﷺ فحدثنا ابن أبى الدنيا حدثنا عبد الرحمن بن أبان الطائى حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد الواحد بن زيد حدثنى سلمان عن مرة عن زيد بن أرقم

قال: «كنا مع أبى بكر الصديق ﷺ فدعا بشراب فأُتِيَ بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا

(١) رواه البخاري(٦٣٤٩) ومسلم(٢٦٨١) وأحمد(٥/١١٠، ١١١) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٠٧) والطبراني في «الكبير» (٤/١٦٢) وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٤٥، ٣٦٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة(٧/١١٧) وأبو نعيم في الحلية (١/٣٠٦) وهناد في «الزهد» (٥٥٧) وقال المنذري في «الترغيب والترهيب»(٤/٧٧): رواه ابن أبي الدنيا، وإسناده جيد.أهـ.

(٣) رواه البخاري(١٢٧٥) وابن حبان (٧٠١٨) وابن أبي شيبة(٤/٢١٦) وابن المبارك في «الزهد»(٥٢٠) وأبو نعيم في الحلية (١/١٠٠).

على مسألته. قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله، ما أبكاك؟ فقال: كنت مع رسول الله فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا ولم أرَ معه أحدًا، فقلت: يا رسول الله، ما الذى تدفع عن نفسك؟ قال: هذه الدنيا مُثِّلَتْ لى فقلتُ لها: إليك عنى، ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلتَّ منى فلن يفلت منى من بعدك»[1].

وذكر ليث عن ابن سعد عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أن أبا بكر ﷺ قال فى مرضه الذى مات فيه: «إنى وليتُ أمركم وإنى لست بخيركم، وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له، وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت، ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير[2] وستور الديباج، وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعدان[3]، ثم أنتم أول ضال بالناس تصفقون يمينًا وشمالاً، ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البحر أو الفجر، واللهِ لأنْ يُقَدَّمَ أحدُكم فتضرب عنقه فى غير حدٍّ خيرٌ له من أن يخوض غمرات الدنيا».

وذكر محمد بن عطاء بن خباب قال: كنت جالسًا مع أبى بكر فرأى طائرًا فقال: «طُوبَى لك يا طائر، تأكل من هذا الشجر ثم تبعر ثم لا تكون شيئًا وليس عليك حساب، وددت أنى مكانك. فقلت له: أتقول هذا وأنت صديق رسول الله ﷺ؟»[4].

وأما عمر ﷺ فإنه لما أُتى بكنوز كسرى بكى فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما الذى يبكيك يا أمير المؤمنين، فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور ويوم فرح. فقال عمر: «إن هذا

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص ٩٤) والحاكم (٣٠٩/٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥١٨) والخطيب في «التاريخ» (٢٦٧/١٠) وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي فقال: عبد الصمد تركه البخاري وغيره.أهـ.
قلت: وفيه أيضًا عبد الواحد بن زيد، قال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: تركوه، وقال الجوزجاني: سيئ المذهب، ليس من معادن الصدق، وانظر: ميزان الاعتدال (٥٢٩٣).

(٢) النضائد: جمع نضيدة، وهي الثياب والفُرُش المستوية المنسقة.

(٣) الحسك: نبات له ثمار خشنة تعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل، ومنه حسك السعدان، وهو نبات ذو شوك.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٢٤٠) وإسناده ضعيف.

لم يُعْطَه قومٌ إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء»[1]. ودخل عليه أبو سنان الدؤلى وعنده نفر من المهاجرين، فأرسل عمر إلى سفط أتى به من قلعة بالعراق وكان فيه خاتم فأخذه بعض ولده فأدخله فى فيه، فانتزعه عمر منه ثم بكى، فقال له من عنده: لِمَ تبكى وقد فتح الله لك وأظهرك وأقر عينك؟ فقال: «سمعت رسول الله ﷺيقول: «لا تُفتَح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» وأنا مشفق من ذلك»[2].

قال أبو سعيد: وجدت فى كتاب بخط يدى عن أبى داود قال: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا حماد حدثنا يونس عن الحسن أن عمر بن الخطاب ﷺأُتِىَ بقلنسوة بغزوة كسرى بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك فألقى إليه سوارى كسرى فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه، فلما رآهما فى يد سراقة قال: الحمد لله، سوارا كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابى من بنى مدلج. ثم قال: «اللهم قد علمت أن رسولك قد كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظرًا منك له واختيارًا، اللهم إنى أعوذ بك أن يكون هذا مكرًا منك بعمر. ثم قال: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾(سورة المؤمنون: ٥٥-٥٦)»[3].

والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها تعجيل من أجل الآخرة وتضييق من سعتها. قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الزهرى عن ابن أبى صقير عن جابر بن عبدالله - رضى الله عنهما - قال: لما كان يوم أحد أشرف النبى ﷺعلى الشهداء الذين قتلوا يومئذ فقال: «إنى شهيد على هؤلاء، فزَمِّلوهم بدمائهم»[4] . قال معمر: وأخبره فيمن سمع الحسن يقول: قال النبى

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣٥٨/٦).
(٢) رواه أحمد (١٦/١) وعبد بن حميد (٤٤) وحسَّنه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٨٩/٤) والهيثمي في المجمع (٢٣٦/١٠).
(٣) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣٥٨/٦).
(٤) رواه أحمد (٤٣١/٥) والشافعي في «مسنده» (ص ٣٥٧) وعبد الرزاق في «المصنف» (٦٦٣٣) والبيهقي (١١/٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١١٩/٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

ﷺ :«هؤلاء قد مضوا وقد شهدت عليهم، لم يأكلوا من أجورهم شيئًا، وإنكم قد أكلتم من أجوركم، وإني لا أدري ما تحدثون بعدي» [1].

وقال ابن المبارك: أخبرنا جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يقول: خرج رسول اللهﷺ بأصحابه إلى بقيع الغرقد فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور، لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائنٌ بعدكم. ثم أقبل على أصحابه فقال: هؤلاء خير منكم. فقالوا: يا رسول الله، إخواننا أسلمنا كما أسلموا، وهاجرنا كما هاجروا، وجاهدنا كما جاهدوا، وأتوا على آجالهم فمضوا فيها وبقينا في آجالنا، فما يجعلهم خيرًا منا؟ فقال: إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئًا، وخرجوا وأنا شهيد عليهم، وأنتم قد أكلتم من أجوركم ولا أدري ما تحدثون بعدي» [2] قال: فلما سمعها القوم والله عقلوها وانتفعوا بها فقالوا: وإنا لمحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم، وإنه لمنتقص به من أجورنا، فأكلوا طيبًا وأنفقوا قصدًا وقدموا فضلاً.

وقال عبد الله بن أحمد: قرأت على أبي هذا الحديث: حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قال: «ما أُعْطِيَ رجلٌ من الدنيا إلا نقص من درجته» [3].

قالوا: وقد صرح سادات الأغنياء بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا، وابتلوا بالسراء فلم يصبروا، قال ذلك عبد الرحمن وغيره، وكان هذا مصداقًا لما رواه مصعب بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : «لأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء، إنكم ابتليتم بالضراء فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة»[4].

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنَّف» (٦٣٤، ٩٥٨١) وفيه راوٍ لم يُسَمَّ وهو مرسل.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٩٨) والطبراني في «الكبير» (٤/٦١) عن الحسن مرسلاً، ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٧٢٠) عن ابن جرير مرسلاً.

(٣) سبق تخريجه.

(٤)رواه أبويعلى(٧٨٠) وأبو نعيم في الحلية(١/٩٣) والبزار(١١/٦٨) والبيهقي في «الشعب»(١٠٣٠٨) وقال المنذري في «الترغيب» (٤/٨٩) والهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٤٦): رواه أبو يعلى والبزار، وفيه رجل لم يسَمَّ، وبقية رجاله رجاله الصحيح.أهـ.

قالوا: وها هنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل، إحداهما: أن الأكثرين هم الأقلون، وقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية.

وأما الثانية ففى الصحيحين من حديث أبى ذر ﷺ قال: «خرجت ليلة من الليالى فإذا رسول الله ﷺ يمشى وحده ليس معه إنسان. قال: فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد، فجعلت أمشى فى ظل القمر فالتفت فرآنى فقال: من هذا؟ قلت: أبو ذر، جعلنى الله فداك، قال: يا أبا ذر تعالَ، فمشيت معه ساعة فقال: إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلاَّ من أعطاه الله خيرًا فنفخ فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرًا»[1] وذكر الحديث.

قالوا: ولو كان الغنى أفضل من الفقر لما حض الله رسوله على الزهد فى الدنيا والإعراض عنها وذم الحرص عليها والرغبة فيها، بل كان ينبغى أن يحض عليها وعلى اكتسابها والإكثار منها كما حض على اكتساب الفضائل التى بها كمال العبد من العلم والعمل، فلما حض على الزهد فيها والتقلل دل على أن الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين. وقد أخبر أنها: لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء[2] وأنها أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها[3] وأن مثلها فى الآخرة كمثل ما يعلق بأصبع من أدخل أصبعه فى البحر[4] وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم[5] وأنها سجن المؤمنين وجنة الكافرين[6] وأمر العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل ويعد نفسه من أهل القبور وإذا أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح[7] ونهى عن اتخاذ ما يرغب فيها، ولعن عبد الدينار وعبد الدرهم ودعا عليه بالتعس

---

(١) رواه البخاري (٧٤٨٧) ومسلم في «الزكاة» باب الترغيب في الصدقة (٣٣).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) رواه مسلم (٢٩٥٦) والترمذي (٢٣٢٤) وابن ماجه (٤١١٣) من حديث أبي هريرة .
(٧) رواه البخاري (٦٤١٦) والترمذي (٢٣٣) وابن ماجه (٤١١٤) وأحمد (٢/٢٤، ٤١) عن ابن عمر رضى الله عنهما.

والانتكاس وعدم إقالة العثرة بالانتقاش[1].

وأخبر أنها خضرة حلوة[2]، أى تأخذ العيون بخضرتها والقلوب بحلاوتها، وأمر باتقائها والحذر منها كما يتقى النساء ويحذر منهن، وأخبر أن الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين كإفساد الذئبين الضاريين إذا أرسلا فى زريبة غنم أو أشد إفسادًا[3]، وأخبر أنه فى الدنيا كراكب استظل تحت شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها[4].

وهذه في الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم، ولكن هو ﷺ شهد هذه الحال، وعمى عنها بنو الدنيا. ومر بهم وهم يعالجون خُصًّا لهم قد وهَى فقال:

وأمر بستر على بابه فنزع وقال: «إنه يذكرنى الدنيا» وأعلم الناس أنه ليس لأحد منهم حق فى سوى بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وقوت يقيم صلبه، وأخبر أن الميت يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله[5]، وأخبر أن للمتخوض فيما شاءت نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة، وأقسم أنه لا يخاف الفقر على أصحابه وإنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهاءها لهم، وأخبر أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأمضى[6]، وأخبر أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يقتصر عليها فثلث بطنه لطعامه وثلثه لشرابه وثلثه لنفسه[7]. وفى هذا الحديث الإرشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) وابن ماجه (٤١٣٥) من حديث أبي هريرة

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٧٦) وأحمد (٣/٤٥٦، ٣٦٠) والدارمي (٢٧٣٠) وابن حبان (٣٢٢٨) من حديث كعب بن مالك وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٣٥).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه البخاري(٦٥١٤) ومسلم(٢٩٦٠) والترمذي(٢٣٧٩) والنسائي(١٩٣٦) من حديث أنس .

(٦) سبق تخريجه.

(٧) رواه الترمذي (٢٣٨٠) وابن ماجه (٣٣٤٩) وأحمد (٤/١٣٢) والنسائي في «الكبرى» (٦٧٦٨) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩٣٩).

وأخبر أن غنى العبد فيها غنى نفسه لا كثرة عَرَضه. وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتًا وغبط من كان رزقه فيها كفافًا بعد أن هدى للإسلام، وأخبر أن «من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يأته منها إلا ما كتب له»[1]. وعرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهبًا فقال: «لا يارب ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت اليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»[2] وأعلمهم أن من أصبح منهم آمنًا في سربه معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا[3].

وأخبر أنَّ بَذْلَ العبد ما فَضَلَ عن حاجته خيرٌ له، وإمساكه شر له، وأنه لا يلام على الكفاف، ونهى أمته أن ينظر أحدهم إلى من هو فوقه في الدنيا[4] وأمره أن ينظر إلى من هو دونه في الدنيا، وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضر، مثلها مثل ما يخرج من ابن آدم عند خلائه، وإن كان أوله طيبًا لذيذًا فهذا آخره. وأخبر أن عباد الله ليسوا بالمتنعمين فيها، فإن أمامهم دار النعيم فهم لا يرضون بنعيمهم في الدنيا عوضًا من ذلك النعيم.

وأخبر أن نجاة أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلكة آخرها بالبخل وطول الأمل. وكان يقول: «لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة»[5] وأخبر أنه تعالى إذا أحب عبدًا حماه الدنيا كما يحمى الإنسان مريضه من الطعام والشراب[6]، ودخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت فأكَبَّ عليه يقبِّله ويقول: «رحمك الله يا عثمان، ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك»[7] فغبطه بذلك. وكان يقول: «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة في الدنيا

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس ﷺ وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٧، ٩٤٨).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩١٣).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) رواه البخاري (٢٨٣٧) ومسلم (١٨٠٣) والترمذي (٣٨٥٦) والنسائي في «الكبرى» (٨٣١٢) وأحمد (٣٣٢/٥) من حديث سهل بن سعد
(٦) سبق تخريجه.
(٧) سبق تخريجه.

تطيل الهموم والحزن»[1] وكان يقول: «من جعل الهموم كلها همًّا واحدًا كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يُبَالِ اللهُ فى أىِّ أوديتها هلك»[2].

وأخبر أنه «يُؤْتَى يوم القيامة بأنعم الناس كان فى الدنيا فيقول الله ﷺ : اصبغوه فى النار صبغةً، ثم يؤتى به فيقول: يا ابن آدم، هل أصبت نعيمًا قَطّ؟ هل رأيت قُرَّةَ عينٍ قَطّ؟ هل أصبت سرورًا قط؟ فيقول: لا وعزتك. ثم يقول: ردوه إلى النار. ثم يؤتى بأشد الناس كان بلاءً فى الدنيا وأجهده جهدًا فيقول تبارك وتعالى: اصبغوه فى الجنة صبغة، فيصبغ فيها ثم يؤتى به فيقول: يا ابن آدم، هل رأيت ما تكره قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيتُ شيئًا قط أكرهه»[3].

وفى حديث مناجاة موسى الذى رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل حدثنا عبد الصمد بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه، فذكره وفيه: «ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، وإنى لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت، ولكنى أرغب بكما عن نعيمها ذلك وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائى، وقديمًا ما خِرْتُ لهم فى ذلك، فإنى لأذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراعى الهَلَكة، وإنى لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغِرَّة، وما ذلك لهوانهم علىَّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالـمًا موفرًا لم تَكْلِمْه الدنيا ولم يطغه الهوى، واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائى حقًّا، فإذا لقيتهم فاخفض

(١) رواه القضاعي في «مسند الشهاب»(٢٧٨) وقال الألباني في ضعيف الجامع (٣١٩٥): ضعيف جدًا.
(٢) رواه أحمد في «الزهد» (١٦٦) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٦/٧) وهناد في «الزهد» (٦٦٨) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٦٥) عن ابن مسعود ﷺ
(٣) رواه مسلم (٢٨٠٧) والنسائي (٣١٦٠) وأحمد (٢٠٣/٣) من حديث أنس ﷺ

لهم جناحك وذلّلْ لهم قلبك ولسانك»[1] وذكر الحديث.

(من أقوال عيسى عليه السلام فى الزهد)

وقال أحمد: حدثنا عون بن جابر قال: سمعت محمد بن داود عن أبيه عن وهب قال: قال الحواريون: يا عيسى، مَنْ أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون؟ قال: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالاً، وذكرهم إياها فواتًا، وفرحهم بما أصابوا منها حزنًا، فما عارضهم من نائلها رفضوه، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه. خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها، وخربت بينهم فليسوا يعمرونها، وماتت فى صدورهم فليسوا يحيونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها فكانوا بها هم الفرحين، ونظروا إلى أهلها صرعَى قد حلت بهم المـَثُلات فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم علم الكتاب وبه عملوا، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا، ولا أمانًا دون ما يرجون، ولا خوفًا دون ما يحذرون»[2].

وحدثنا روح حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: قيل لعيسى بن مريم: يا رسول الله، لو اتخذت حمارًا تركبه لحاجتك؟ قال: «أنا أكرم على الله من أن يجعل لى شيئًا يشغلنى به»[3]. وقال: «اجعلوا كنوزكم فى السماء، فإن قلب المرء عند كنزه»[4] وقال: «اتقوا

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد» (ص ٦٥) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١) وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١١٥) ، كلهم من طريق أحمد بن حنبل.

(٢) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد» (ص ٦٠) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٠) وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١٨).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٦٦) وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص ٥٥) وهناد في الزهد (٥٨٣) والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢٨٥).

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٣) وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص ٥٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

فضول الدنيا؛ فإن فضول الدنيا عند الله رجز» وقال: «يا بنى إسرائيل، اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف، فما لكم فى العالم من منزل، إن أنتم إلا عابرى سبيل»[1] وقال: «يا معشر الحواريين، أيُّكم يستطيع أن يبنى على موج البحر دارًا؟ قالوا: ياروح الله، من يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا، فلا تتخذوها قرارًا» وقال: «أكل الخبز البُرّ، وشرب ماء عذب، ونوم على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس»[2].

قال أحمد: وحدثنا بهز عن الأعمش عن خيثمة قال: قال المسيح: «بشدةٍ ما يدخل الغنى الجنة» وقال المسيح: «حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة» وقال: «يا بنى إسرائيل، تهاونوا بالدنيا تَهُنْ عليكم، وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة، ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم الآخرة؛ فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة، وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة»[3] وقال إسحاق بن هانئ فى مسائله: قال أبو عبد الله وأنا أخرج من داره: قال الحسن: «أهينوا الدنيا، فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان» وقال الحسن: «والله ما أبالى شرقت أم غربت» قال: وقال لى أبو عبد الله: «يا إسحاق، ما أهون الدنيا على الله ﷻ !» وقال: «الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى»[4].

قالوا: وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها، وقد روى فيه حديث مرفوع لا يثبت، ولكنه يروى عن المسيح، قال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن بديل بن ميسرة قال: حدثنى جعفر بن خرفاش أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: «رأس الخطيئة حب الدنيا، والنساء حبالة الشيطان، والخمر جماع كل شر».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمر بن سعد أبو داود الحفرى عن سفيان قال: كان عيسى

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٧/٧).

(٢) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (ص ٥٨).

(٣) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (٤٩١/١).

(٤) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٥٧٩/٤).

ابن مريم يقول: «حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كثير. قالوا: وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء. قالوا: فإن سلم؟ قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله ﷻ ». قالوا: وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة، فإن حبها يدعو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة، ولا سيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها فيُسكر عاشقَها حبُّها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها، وعن كراهتها واجتنابها، وحبها يوقع فى الشبهات ثم فى المكروهات ثم فى المحرمات، وطالما أوقع فى الكفر، بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا، فإن الرسل لـمَّا نهوهم عن الشرك والمعاصى التى كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم. فكل خطيئة فى العالم أصلها حب الدنيا، ولا تنس خطيئة الأبوين قديمًا، فإنما كان سببها حب الخلود فى الدنيا، ولا تنس ذنب إبليس، وسببه حب الرياسة التي محبتها شر من محبة الدنيا، وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما، وأبو جهل وقومه، واليهود؛ فحب الدنيا والرياسة هو الذى عمر النار بأهلها، والزهد فى الدنيا والرياسة هو الذى عمر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلى ظلمة اللحد، ولو انكشف عنه غطاؤه فى الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر، وأنه أشد من سكر الخمر، والدنيا تسحر العقول أعظم سحر.

قال الإمام أحمد: حدثنا سيار حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: اتقوا السحارة؛ فإنها تسحر قلوب العلماء.

وقال يحيى بن معاذ الرازى: الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين، وأقل ما فى حبها أنه يلهى عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد، ومن فقهه فى الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير، وقد تعبد لها قلبه، فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها؟ وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه فقال: «لعن عبد الدينار والدرهم» وقال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، إن أعطى رضى وإن منع سخط»[(١)]. وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها، وقد عرضت الدنيا على النبى ﷺ بحذافيرها، وتعرضت له فدفع فى صدرها باليدين وردَّها على عقبيها، ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل، ومنهم من استعرضها وقال: ما فيك؟ قالت: فيَّ الحلال والشبهة والمكروه والحرام، فقالوا: هاتى حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه، فأخذوا حلالها، ثم تعرضت لِمَنْ بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه، فطلبوا مكروهها وشبهها فقالت: قد أخذه من قبلكم، فقالوا: هاتى حرامك، فأخذوه، فطلبه من بعدهم فقالت: هو فى أيدى الظَّلَمة قد استأثروا به عليكم، فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة، فلا يمد فاجر يده إلى شيء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه، هذا وكلهم ضيوف، وما بأيديهم عارية كما قال ابن مسعود ﷺ : «ما أصبح أحد فى الدنيا إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤادة».

قالوا: وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدًا للدين من وجوه: أحدها: أن حبها يقتضى تعظيمها، وهى حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله. وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه. وثالثها: أنه إذا أحبها صيَّرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التى جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكَسَ الأمر وقلب الحكمة فانعكس قلبه وانعكس سيره

(١) رواه البخاري(٢٨٨٧)، وابن ماجه (٤١٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إلى وراء، فها هنا أمران: أحدهما جعل الوسيلة غاية، والثانى التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا. وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذى انطبق عليه حذو القذة بالقذة قوله تعالى:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (هود: ١٥-١٦) وقوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾(الإسراء: ١٨) وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (الشورى: ٢٠) فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضًا، وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره.

والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له، كحديث أبى هريرة ﷺ فى الثلاثة الذين هم أول من تُسَعَّر بهم النار: الغازى والمتصدق والقارئ الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب، وهو فى صحيح مسلم.

وفى سنن النسائى عن أبى أمامة ﷺ قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، رجل غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شىء له. فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ : لا شىء له، ثم قال: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه»[1] فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر؛ لـمَّا ضم إليه قصد الذكر بين الناس فلم يخلص عمله لله فبطل كله.

وفى مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رجلاً قال: «يا رسول الله، الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا. فقال له رسول الله ﷺ : لا أجر له. فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله ﷺ لعله لم يفهم، فعاد فقال: يا رسول الله، الرجل يريد الجهاد

---

(١) رواه النسائى (٣١٤٠)، وأحمد (١٢٦/٤)، وقال الحافظ فى «الفتح» (٢٨/٦): سنده جيد. وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٥٢).

في سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: **لا أجر له. ثم أعاد الثالثة فقال رسول الله ﷺ : لا أجر له**»[1].

وفي المسند أيضًا، وسنن النسائي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: **«من غزا في سبيل الله ﷻ وهو لا ينوى في غزاته إلا عقالاً فله ما نوى»**[2].

وفي المسند والسنن عن يعلى بن منية قال: «كان رسول الله ﷺ يبعثني في سرايا فبعثني ذات يوم في سرية، وكان رجلٌ يركب بغلاً فقلت له: ارحل فإن النبي ﷺ قد بعثني في سرية، فقال: ما أنا بخارج معك حتى تجعل لي ثلاثة دنانير، ففعلت، فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: **ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنانير**»[3].

وفي سنن أبي داود أن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو، فقال: **«يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابرًا محتسبًا بعثك الله صابرًا محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا بعثك الله مرائيًا مكاثرًا. يا عبد الله بن عمرو، على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال»**[4].

وفي المسند والسنن عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنها ستفتح عليكم الأمصار وتضربون فيها بعوثًا فيكره الرجل منكم البعث فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل يقول: من أكفه بعث كذا وكذا؟ ألا وذلك الأجير إلى آخر قطرة من**

---

(١) رواه أبو داود (٦/٢٥)، وأحمد (٢/٢٩٠، ٣٦٦)، وابن حبان (٤٦٣٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/١٦٩)، وابن المبارك في «الجهاد» (٢٢٧)، وصححه الحاكم (٢/٨٥) ووافقه الذهبي.

(٢) رواه النسائي (٣١٣٨)، وأحمد (٥/٣١٥)، والدارمي (٢٤١٦)، وابن حبان (موارد-١٦٠٥)، والبيهقي (٦/٣٣١)، والضياء في «المختارة» (٤٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٧٧).

(٣) رواه أبو داود (٢٥٢٧)، وأحمد (٤/٢٢٣)، والحاكم (٢/١١٢)، والبيهقي (٩/٢٩)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٢٥)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه أبو داود (٢٥١٩)، والحاكم (٢/٨٥)، والبيهقي (٩/١٦٨)، وصححه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٩٧).

دمه»[1] فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد من الأجر وأفسدت عليه عمله وجعلته أول الداخلين إلى النار.

(فصــــل) ورابعها: أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة، لاشتغاله عنه بمحبوبه، والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله ولخلقه فلا يقوم بها ظاهرًا ولا باطنًا، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب وتفريغه لله عند أدائه فيؤديه ظاهرًا لا باطنًا، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها؟ هذا من أندرهم! وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره وجمع قلبه على لسانه وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا، وفي هذا حديث قد روى مرفوعًا: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[2].

(فصــــل) وخامسها: أن محبتها تجعلها أكثر هَمِّ العبد، وقد روى الترمذي من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدر له»[3].

(فصــــل) وسادسها: أن محبها أشد الناس عذابًا بها، وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٥)، وأحمد (٥/٤١٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٢٥٢).

(٢) رواه أحمد (٤/٤١٢)، وابن حبان (٧٠٩)، والحاكم (٤/٣٠٨) والبيهقي (٣/٣٧٠)، وعبد بن حميد (٥٦٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤١٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٣٤٠).

(٣) سبق تخريجه.

عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذابًا فى قبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة فى روحه ما تعمل الديدان وهوامُّ الأرض فى جسمه كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه أن حزقيل كان فيمن سبى بختنصر، فذكر عنه حديثا طويلاً وفى آخره قال: فبينا أنا نائم على شط الفرات إذ أتانى ملك فاخذ برأسى فاحتملنى حتى وضعنى بقاعٍ من الأرض قد كانت معركة، قال: وإذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم، قال لى: إن قوما يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت منى وذهبت عنه قدرتى فادْعُهم، قال حزقيل: فدعوتهم، فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذى انقطع منه، ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذى فارق، حتى أم بعضها بعظائم نبت عليها اللحم ثم نبتت عليها العروق ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر إلى ذلك. ثم قال: ادْعُ أرواحهم. قال: فدعوتها، فإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذى فارق، فلما جلسوا سألتهم: فيم كنتم؟ قالوا: إنا لـمَّا متنا وفارقنا الحياة لقِيَنا مَلَكٌ فقال: هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم، كذلك سنتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم. قال: فنظر فى أعمالنا فوجدنا نعبد الأوثان فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألـمه، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألـمه، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا، ولا يستريح عاشق الدنيا[1]. فقولهم: كنا نعبد الأوثان، فسيان عبادة الأثمان وعبادة الأوثان، تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم.

والمقصود أن محب الدنيا يعذب فى قبره، ويعذب يوم لقاء ربه، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ (التوبة: ٥٥) قال بعض السلف: يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد» (ص ٨١-٨٣)، ،أبو الشيخ في «العظمة» (٤٢).

(فصل) وسابعها أن عاشقها ومحبها الذى يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد فى أرغد عيش بحياة إنما هى أحلام نوم أو كظل زائل، إن اللبيب بمثلها لا يخدع كما نزل أعرابى بقوم فقدموا له طعامًا فأكل ثم قام إلى ظل خيمة فنام، فاقتلعوا الخيمة فأصابته فانتبه وهو يقول:

وإنَّ امــرأً دنــياه أكــبُر همِّــه ... لَمُسْتَمْسِــكٌ مــنها بحبل غرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يـــا أهلَ لذَّات دنيا لا بقاءَ لها ... إنَّ اغــترارًا بظــلٍّ زائل حُمُقُ

قال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه. وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو على الطائى حدثنا عبد الرحمن البخارى عن ليث قال: رأى عيسى بن مريم الدنيا فى صورة عجوز عليها من كل زينة فقال: كم تزوجتِ؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك، أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلته. فقال عيسى: بؤسًا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين؟ تهلكينهم واحدًا واحدًا ولا يكونون منك على حذر!

أرَى أشقياءَ الناسِ لا يسأمونها ... علَــى أنَّهــم فيها عُراةٌ وجُوَّعُ
أراهـــا وإن كانـــت تُحَـــبُّ فإنَّها ... سَــحَابةُ صيفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ

أشبه الأشياء بالدنيا الظل، تحسب له حقيقة ثابتة وهو فى تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بها السراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له، وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر غدارة بالأزواج تزينت للخُطّاب بكل زينة وسترت كل قبيح، فاغْتَرَّ بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا نقد الآخرة فإننا

ضرتان، واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخطاب العاجلة وقالوا: ما على من واصل حبيبته من جناح! فلما كشف قناعها وحلَّ إزارها إذا كل آفة وبَلِيَّة، فمنهم من طلق واستراح، ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

تالله لقد أذَّن مؤذنها على رءوس الخلائق بحي على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمسلمون لها فواصلوا فى طلبها الغدو بالرواح، وسَرَوْا ليلهم فلم يَحمَد القومُ السُّرى عند الصباح، طاروا فى صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا فى شبكتها فأسلمتهم للذباح.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن على بن شقيق حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض قال: قال ابن عباس رضى الله عنهما: «يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقال: هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم. ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى: يا رب، أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول الله ﷻ : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها»[1].

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن أبى العلاء قال: رأيت فى النوم عجوزًا كبيرة عليها من كل زينة الدنيا والناس عُكوفٌ عليها متعجبون ينظرون إليها، فجئت فنظرت فتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك! من أنت؟ قالت: أمَا تعرفنى؟ قلت: لا. قالت: أنا الدنيا. قال: قلت: أعوذ بالله من شرِّك! قالت: فإن أحببت أن تُعاذ من شرِّى فأبغض الدرهم.

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنى إبراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا سفيان بن عيينة قال: قال لى أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا فى النوم عجوزًا مشوهةً شمطاءَ تصفق بيديها، وخلفها

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (١٠٦٧١) من طريق ابن أبي الدنيا.
والمرأة الشمطاء: هي العجوز التي اختلط بياض شعرها بسواده.

خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائي أقبلت عليَّ فقالت: لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء! ثم بكى أبو بكر[1]. قال: وحدثنا محمد بن علي حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل قال: بلغني أن رجلاً عرج بروحه، قال: فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلي والثياب، وإذا هي لا يمر بها أحد إلا جرحته، وإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا أقبلت أقبح شيء: عجوز شمطاء زرقاء عمشاء، فقلت: أعوذ بالله! قالت: لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم. قال: قلت: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

ووصف علي ﷺ الدنيا فقال: «دارٌ مَنْ صَحَّ فيها هرم، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار». وقال ابن مسعود ﷺ: «الدنيا دارُ من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[2].

وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغناء فيها فقرها، لها في كل حال قتيل، تُذِلُّ من أعزَّها وتفقر من جمعها. هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه. فكن فيها كمُداوٍ جراحاته يحتمي قليلاً مخافةَ ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وخيلت بآمالها وشوقت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخِر بالأول مزدجر، والعارف بالله حين أخبره عنها مذكر،

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/٣٠٤) و«سير أعلام النبلاء» (٨/٥٠٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/٢٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٦٣٧) عن ابن مسعود موقوفًا.

ورواه أحمد (٦/٧١) عن عائشة مرفوعًا، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/٨٦): رواه أحمد والبيهقي وإسنادهما جيد. ولكن ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠١٢).

فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغترَّ وطغى ونسى المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكبرت حسرته، واجتمع عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت ونغصه، فذهب منها فى كمد، ولم يدرك منها ما طلب، ولم يرح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وأسرُّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلَّما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السارُّ فيها غذاء ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالحزن، ما يرجع منها ما ولى فأدبر، ولا يدرى ما هو آتٍ فينتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبرًا، ولم يضرب لها مثلاً، لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله ﷻ عنها زاجر وفيها واعظ، فما لها عند الله ﷻ قدر ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه، أو يرفع ماوضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها، ونسى ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه».

وقال الحسن أيضًا: «ابنَ آدم، لا تُعَلِّقْ قلبك فى الدنيا فتعلقه بشر معلق، اقطع حبالها وغلق أبوابها. حسبك يا ابن آدم منها ما يبلغك المحلّ». وكان يقول: «إن قومًا أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب؛ فأهينوها، فأهنأُ ما تكون إذا أهنتموها، هيهات هيهات! ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد فى الأعناق»[(١)].

وقال المسيح عليه السلام : «لا تتخذوا الدنيا ربًّا فتتخذكم عبيدًا، واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلاً، ما سكنت الدنيا فى قلب عبد إلا التاط قلبه منها بثلاثة: شغل لا ينفكُّ عناؤه، وفقر لا يدرك غناؤه،

(١) «حلية الأولياء» (٢/١٤٣) و«تاريخ بغداد» (١١/٥٣)، و«تهذيب الكمال» (٦/١١٦)، و«صفة الصفوة» (٣/٢٣٥).

وأمل لا يدرك منتهاه. الدنيا طالبة مطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه. يا معشر الحواريين، ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا».

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك ابن دينار قال: قال أبو هريرة ﷺ : «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى إلى يوم يفنيها، تنادى ربها: يا ربِّ، لم تبغضنى؟ فيقول: اسكتى يا لا شيء، اسكتى يا لا شيء» وقال الفضيل: «تجيء الدنيا يوم القيامة فتتبختر فى زينتها ونضرتها، فتقول: يا رب، اجعلنى لأحسن عبادك دارًا، فيقول: لا أرضاك له؛ أنت لا شيء فكونى هباءً منثورًا».

(فصل) فى ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا:

المثال الأول: للعبد ثلاثة أحوال: حالة لم يكن فيها شيئًا، وهى ما قبل أن يوجد. وحالة أخرى وهى من ساعة موته إلى مالا نهاية له فى البقاء السرمدى، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن، إما فى الجنة وإما فى النار، ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله ويسكن إحدى الدارين فى خلود دائم. ثم بين هاتين الحالتين وهى ما بعد وجوده وما قبل موته حالة متوسطة، وهى أيام حياته، فلينظر إلى مقدار زمانها وأنسبه إلى الحالتين يعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يُبَالِ كيف تقضت أيامه فيها: فى ضر وضيق، أو فى سعه ورفاهية؛ ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وقال: «ما لى وللدنيا! إنما مثلى ومثل الدنيا إلاَّ كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها»[1] وقال: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بِمَ يرجع»[2] وإلى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها». وهذا مثل صحيح فإن الحياة معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

هو الركن الثانى على آخرها، ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبقَ له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور، فهو فى غاية الجهل والحمق.

(فصل) المثال الثانى: شهوات الدنيا فى القلب كشهوات الأطعمة فى المعدة، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت فى المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذَّ طعمًا وأكثر دسمًا وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر، فكذلك كل شهوة كانت فى النفس ألذ وأقوى فالتأذى بها عند الموت أشد، كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب.

وفى المسند أن النبى ﷺ قال للضحاك بن سفيان: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه الماء واللبن؟ قال: بلى. قال: فإلامَ يصير؟ قال: إلى ما قد علمت. قال: فإن الله ﷻ ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم»[1]. كان بعض السلف يقول لأصحابه: «انطلقوا حتى أريكم الدنيا. فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم».

(فصل) المثال الثالث لها ولأهلها فى اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة وما يعقبهم من الحسرات: مثل أهلها فى غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذَّرهم الإبطاء وخوفهم مرور السفينة، فتفرقوا فى نواحى الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خاليًا فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم فى الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ويسمع نغمات

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥٦٥٣)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٤٦٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٨٨): رواه أحمد والطبراني (٨/٢٩٩) ورجال الطبراني رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان وقد وثق. أهـ.

طيورها ويعجبه حسن أحجارها، ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا فجلس فيه، وأَكَبَّ بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حمله، فلما جاء لم يجد في السفينة إلا مكانًا ضيقًا وزاده حمله ضيقًا، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد من حمله بدًّا ولم يجد له في السفينة موضعًا، فحمله على عتقه وندم على أخذه، فلم تنفعه الندامة. ثم ذبلت الأزهار وتغيرت أراييجها وآذاه نتنها. وتوالغ بعضهم في تلك الغياض[1] ونسي السفينة وأبعد في نزهته، حتى إن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة، فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشم تلك الأنوار، وتارة يعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه، غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته، أو صوت هائل يفزعه. ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل، ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك. فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم. وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيمًا قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه!

(فصـــــل) المثال الرابع لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة: قال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا هشام بن حسان عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي أنفدوا الزاد وحسروا الظهر، وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء، علامَ أنتم؟ قالوا: على ما ترى! قال: أرأيتم إن هديتكم إلى

(١) الغياض: جمع «غيضة» وهو الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف.

ماء رواء ورياض خضر، ما تجعلون لى؟ قالوا: لا نعصيك شيئًا. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يحصونه شيئًا. قال: فأوردهم ماءً ورياضًا خضراء. قال: فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء، الرحيل. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم. قال: فقال جُلُّ القوم، وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش هو خير من هذا؟ قال: وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئًا، وقد صدقكم فى أول حديثه، فو الله ليصدقنكم فى آخره. فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل»[1].

(فصـــــل) المثال الخامس للدنيا وأهلها: ما مثلها به النبىُّ ﷺ كظل شجرة، والمرء مسافر فيها إلى الله فاستظل فى ظل تلك الشجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها. فتأمل حسن هذا المثال ومطابقته للواقع سواء، فإنها فى خضرتها كشجرة، وفى سرعة انقضائها وقبضها شيئًا فشيئًا كالظل، والعبد مسافر إلى ربه، والمسافر إذا رأى شجرة فى يوم صائف لا يحسن به أن يبنى تحتها دارًا ولا يتخذها قرارًا، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

(فصـــــل) المثال السادس: تمثيله لها بمدخل أصبعه فى اليم، فالذى يرجع به أصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة. وهذا - أيضًا - من أحسن الأمثال، فإن الدنيا منقطعة فانية ولو كانت مدتها أكثر مما هى، والآخرة أبدية لا انقطاع لها، ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلاً وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفنى الخردل والآخرة لا تفنى، فنسبة الدنيا إلى الآخرة فى التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل؛ ولهذا لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار الأرض كلها أقلام يُكتب بها كلام الله لنفدت الأبحر والأقلام ولم تنفد كلمات الله لأنها لا بداية لها ولا

---

(١) رواه ابن المبارك فى «الزهد» (٥٠٧) وذكره ابن رجب فى «جامع العلوم»، حديث رقم (٤٠).

نهايه لها، والأبحر والأقلام متناهية.

قال الإمام أحمد وغيره: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء، وكماله المقدس مقتضٍ لكلامه، وكماله من لوازم ذاته فلا يكون إلا كاملاً، والمتكلم أكمل ممن لا يتكلم، وهو سبحانه لم يلحقه كلل ولا تعب ولا سآمة من الكلام، وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته، فكلماته هى التى أوجد بها خلقه وأمره، وذلك حقيقة ملكه وربوبيته وإلهيته، وهو لا يكون إلا ربًّا ملكًا إلهًا لا إله إلا هو. والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة وساعة من ساعاتها.

(فصـــــل) المثال السابع: ما مثلها به فى الحديث المتفق على صحته من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال: «لا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا. فقال رجل: يا رسول الله، أوَ يأتى الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ثم قال: كيف قلت؟ قال: يا رسول الله، أو يأتى الخير بالشر؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الخير لا يأتى إلا بالخير، وإن مما يُنبت الربيعُ ما يقتل حبطًا أو يلمُّ، إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم اجترت فعادت فأكلت. فمن أخذ مالاً بحقه بورك له فيه، ومن أخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذى يأكل ولا يشبع»[1] فأخبر أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسماها زهرة فشبهها بالزهر فى طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه، وأن وراءه ثمرًا خيرًا وأبقى منه.

وقوله: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم» هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منها بأعينها، فربما هلكت حبطًا، والحبط: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض، يقال: حبط الرجل والدابة تحبط حبطًا إذا أصابه ذلك، ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك فى سفره فمات حبطًا فنسب الحبطى كما يقال السلمى. فكذلك الشَّره فى المال يقتله شرهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله، وهو قوله: «أو يلم» وكثير من أرباب

---

(١) رواه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢)، والنسائي (٥/٩٠)، وابن ماجه (٣٩٩٥).

الأموال إنما قتلتهم أموالهم فإنهم شرهوا فى جمعها، واحتاج إليها غيرهم فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: «إلا آكلة الخضر» هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته مثَّله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها، وفى لفظ آخر: «امتدت خاصرتاها» وإنما تمتد من امتلائها من الطعام، وثنى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن. وفى قوله: «استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت» ثلاث فوائد: إحداها أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبلة الشمس لتستمرئ بذلك ما أكلته. الثانية: أنها أعرضت عما يضرها من الشره فى المرعى وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التى يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه. الثالثة: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى فى بطنها فاستراحت بإخراجه، ولو بقى فيها لقتلها، فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأول الحديث مثل الشَّرِه فى جمع الدنيا الحريص على تحصيلها، فمثاله مثال الدابة التى حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطًا أو يلم إذا لم يقتلها، فإن الشره الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك؛ فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد الاحتمال فتنشق أمعاؤها وتهلك، كذلك الذى يجمع الدنيا من غير حلها ويحبسها أو يصرفها فى غير حقها. وآخر الحديث مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذى تنتفع الدابة بأكله، ولم يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله بل أكلت بقدر حاجتها، وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه، وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال فى حقه حيث يكون حبسه وإمساكه مضرًّا به، فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه، ونجا من وبال إمساكه بإخراجه كما نجت الدابة من الهلاك بالبول الثلط.

وفى هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره فى المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعًا. وتضمن الخبر - أيضًا - إرشاد المكثر من

المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته فى بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه ولا يحبسه فيضره حبسه، وبالله التوفيق.

(فصـــــل) المثال الثامن: ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن سليمان بن يسار عن ميمونة قالت: قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: «الدنيا خضرة حلوة، فمن اتقى الله فيها وأصلح، وإلا فهو كالآكل ولا يشبع، وبين الناس فى ذلك كبعد الكوكبين أحدهما يطلع فى المشرق والآخر يغيب فى المغرب»[1] فنبه بخضرتها على استحسان العيون لها، وبحلاوتها على استجلاء الصدور لها، وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لأهلها وحببت إليهم لا سيما وهم مخلوقون منها وفيها كما قيل:

ونحنُ بنو الدنيا ومنها نباتُنا وما أنتَ منه فهو شيءٌ

وجعل الناس فيها قسمين: أحدهما مصلح متقٍ، فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها فى غير حقها، فإن لم يتَّقِ ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه إلى تحصيلها فكان كالذى يأكل ولا يشبع، وهذا من أحسن الأمثلة، فإن المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة وذلك تابع لقدر الحاجة، وليس المقصود منه ذاته ونفسه، فمن جعل نهمته فوق مقصوده لم يشبع، ولهذا قال الإمام أحمد: «الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى» وأخبر عن تفاوت الناس فى المنزلتين - أعنى منزلة التقوى والإصلاح، ومنزلة الأكل والشره - وأن بين الرجلين فى ذلك كما بين الكوكبين الغارب فى الأفق والطالع منه، وبين ذلك منازل متفاوتة.

(فصـــــل) المثال التاسع: ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها. قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله. قال: فو الذى نفس

(١) أورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٤٦)، وقال: رواه أبو يعلى والطبراني وفيه المعتمر بن الصباح وهو ضعيف. أهـ. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣/١٥٩٢).

محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[1] قال الترمذي: حديث حسن صحيح. فلم يقتصر ﷺ على تمثيلها بالسخلة الميتة بل جعلها أهون على الله منها.

وفي مسند الإمام أحمد في هذا الحديث: «فو الذي نفسي بيده للدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها» فأكد ذلك بالقسم الصادق، فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة، وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة، لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها، وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان، والله المستعان.

(فصل) المثال العاشر: مثلها مثل البحر الذي لا بد للخلق كلهم من ركوبه ليقطعوه إلى الساحل الذي فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم، ولا يمكن قطعه إلا في سفينة النجاة، فأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة، وتأمرهم بعملها وركوبها، وهي طاعته وطاعة رسله وعبادته وحده وإخلاص العمل له، والتشمير للآخرة وإرادتها والسعي لها سعيها، فنهض الموفقون وركبوا السفينة ورغبوا عن خوض البحر لما علموا أنه لا يقطع خوضًا ولا سباحة، وأما الحمقاء فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها وقالوا: نخوض البحر، فإذا عجزنا قطعناه سباحة، وهم أكثر أهل الدنيا، فخاضوه فلما عجزوا عن الخوض أخذوا في السباحة حتى أدركهم الغرق، ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام وغرق أهل الأرض. فتأمل هذا المثل وحال أهل الدنيا فيها يتبين لك مطابقته للواقع وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر، فإن القدر بحر، والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

(فصــــل) المثال الحادي عشر: مثالها مثال إناء مملوء عسلاً رآه الذباب فأقبل نحوه، فبعضه قعد على حافة الإناء وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار، وبعضه حمله

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٢٩، ٢٣٠). وللحديث طرق متعددة عن جمع من الصحابة ساقها الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٨٦-٢٨٨) فمنهم: أبو هريرة، وأبو الدرداء، وابن عباس وعبد الله بن ربيعة السلمي وأنس رضي الله عنهم.

الشره على أن رمى بنفسه فى لجة الإناء ووسطه فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلاً حتى هلك فى وسطه.

(فصـــل) المثال الثانى عشر: مثال حب قد نثر على وجه الأرض وجعلت كل حبة فى فخ، وجعل حول ذلك الحب حب ليس فى فخاخ، فجاءت الطير فمنها من قنع بالجوانب ولم يَرْمِ نفسه فى وسط الحب فأخذ حاجته ومضى، ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أخذة الفخ له.

(فصـــل) المثال الثالث عشر: كمثل رجل أوقد نارًا عظيمة فجعلت الفراش والجنادب يرون ضوءها فيقصدونها ويتهافتون فيها، ومن له علم بحالها جعل يستضىء ويستدفئ بها من بعيد، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المثل بعينه فى الحديث الذى رواه مالك بن إسماعيل عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن عمر ﷺ عن النبى ﷺ قال: «**إنى ممسك بحجزكم عن النار وتتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، ويوشك أن أرسل بحجزكم**»[1] وفى لفظ آخر: «مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعلت الفراش والجنادب يتقاحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تغلبونى وتقاحمون فيها»[2] وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها، فالرسل تدعوهم إلى الآخرة، وهم يتقاحمون فى الدنيا تقاحم الفراش.

(فصـــل) المثال الرابع عشر: مثل قوم خرجوا فى سفر بأموالهم وأهليهم فمروا بوادٍ معشب كثير المياه والفواكه فنزلوا به وضربوا خيمهم وبنوا هنالك الدور والقصور، فمر بهم

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة»(٧٤٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٩/٦)، والبزار (٢٠٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٢٨-١١٢٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٣٠١/٢)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٧٤٤).
الحجزة: معقد السراويل والإزار.

(٢) رواه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (٢٢٨٤)، والترمذي (٢٨٧٤)، وأحمد (٥٣٩/٢٤٤/٢)، والحميدي في «مسنده» (١٠٣٨)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٧٥) من حديث أبي هريرة.

رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته، فقال: إني رأيت بعيني هاتين الجيش خلف هذا الوادى وهو قاصدكم، فاتبعونى أسلك بكم على غير طريق العدو فتنجوا منه، فأطاعته طائفة قليلة، فصاح فيهم: يا قوم، النجاة النجاة! أُتيتم، وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم، فقالوا: كيف نرحل من هذا الوادى وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه؟ فقال لهم الناصح: لِيَنْجُ كل واحد منكم بنفسه ومما خفَّ عليه من متاعه وإلا فهو مأخوذ وماله مجتاح، فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة، وقال كل أحمق: لى أسوة بالقاعدين فهم أكثر منى مالاً وأهلاً، فما أصابهم أصابنى معهم. ونهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة، وصبح الجيش أهل الوادى فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المثل بعينه فى الحديث المتفق على صحته حديث أبى بردة عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «**إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان، فالنجاة النجاة. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق**»[1]

(فصـــــل) المثال الخامس عشر: رجل هيأ دارًا وزينها ووضع فيها من جميع الآلات ودعا الناس إليها، فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير وقدم إليه طبقًا من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوانٍ مفتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخدمه عبيده ومماليكه، فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده، فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة مقامه فى الدار ولم يعلق قلبه بها ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف: يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدمه له، ولا يسأل عما وراء ذلك اكتفاءً منه

(١) رواه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).

بعلم صاحب الدار وكرمه وما يفعله مع ضيوفه، فدخل الدار كريمًا وتمتع فيها كريمًا وفارقها كريمًا، ورب الدار غير ذامٍّ له. وأما الأحمق فحدث نفسه بسكنى الدار وحوز تلك الآلات إلى ملكه وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته، فتخير المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان فى الدار يخبؤها فيه، وكلما قدم إليه ربها شيئا أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف، ورب الدار يشاهد ما يصنع، وكرمه يمنعه من إخراجه من داره، حتى إذا ظن أنه استبد بتلك الآلات وملك الدار وتصرف فيها وفى آلاتها تصرف المالك الحقيقى، واستوطنها واتخذها دارًا له، أرسل إليه مالكها عبيده فأخرجوه منها إخراجًا عنيفًا وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه من تلك الآلات شيء، وحصل على مقت رب الدار وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل فإنه مطابق للحقيقة، والله المستعان.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ :«كل أحد فى هذه الدنيا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة».

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال: «مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا فأحدثه، فجاء فقربت إليه عشاءً فأكل وشرب. وقال: ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب. قال: تركتنى تلطخت ثم أخبرتنى بابنى؟ فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منها، فقال رسول الله ﷺ : «بارك الله لكما فى ليلتكما» وذكر الحديث[1].

(فصــــل) المثال السادس عشر: قوم سلكوا مفازة، فاجأهم العطش، فانتهوا إلى

(١) سبق تخريجه.

البحر وماؤه أمر شيء وأملحه، فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته، فشربوا منه فلم يرووا وجعلوا كلما ازدادوا شربًا ازدادوا ظمأً، حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشًا، وعلم عقلاؤهم أنه مُرٌّ مالح، وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمؤه، فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضًا حلوة فحفروا فيها قليبًا[1] فنبع لهم ماء عذب فرات، فشربوا وعجنوا وطبخوا ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر: هلموا إلى الماء الفرات، وكان منهم المستهزئ ومنهم المعرض الراضى بما هو فيه، وكان المجيب واحدًا بعد واحد. وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام فقال: «مثل طالب الدنيا كمثل شارب البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله».

(فصـــــل) المثال السابع عشر: مثل الإنسان ومثل ماله وعمله وعشيرته مثل رجل له ثلاثة إخوة، فقضى له سفر بعيد طويل لا بد له منه، فدعا إخوته الثلاثة وقال: قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل، وأحوج ما كنت إليكم الآن. فقال أحدهم: أنا كنت أخاك إلى هذه الحال، ومن الآن فلست بأخ ولا صاحب، وما عندى غير هذا. فقال له: لم تغن عنى شيئًا. فقال للآخر: ما عندك؟ فقال: كنت أخاك وصاحبك إلى الآن، وأنا معك حتى أجهزك إلى سفرك وتركب راحلتك، ومن هنالك لست لك بصاحب. فقال له: أنا محتاج إلى مرافقتك فى مسيرى. فقال: لا سبيل لك إلى ذلك. فقال: لم تغن عنى شيئًا. فقال للثالث: ما عندك أنت؟ فقال: كنت صاحبك فى صحتك ومرضك، وأنا صاحبك الآن، وصاحبك إذا ركبت راحلتك، وصاحبك فى مسيرك، فإن سرتَ سرتُ معك، وإن نزلتَ نزلتُ معك، وإذا وصلتَ إلى بلدك كنتُ صاحبك فيها لا أفارقك أبدًا. فقال: إن كنت لأهون الأصحاب علىَّ، وكنت أوثر عليك صاحبيك، فليتنى عرفت حقك وآثرتك عليهما.

فالأول: ماله، والثانى: أقاربه وعشيرته وأصحابه، والثالث: عمله. وقد روى فى هذا المثل بعينه حديث مرفوع لكنه لا يثبت، رواه أبو جعفر العقيلى فى كتاب الضعفاء من حديث

---

(١) القليب، البئر والجمع «قُلُب».

ابن شهاب عن عروة عن عائشة، وعن ابن المسيب عن عائشة مرفوعًا، وهو مثل صحيح فى نفسه مطابق للواقع.

(فصـــــل) المثال الثامن عشر: وهو من أحسن الأمثلة: ملك بنى دارًا لم يَرَ الراءون ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها، ونصب لها طريقًا وبعث داعيًا يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة وألبست أنواع الحلى والحلل، وممر الناس كلهم عليها وجعل لها أعوانًا وخدمًا، وجعل تحت يدها ويد أعوانها زادًا للمارين السائرين إلى الملك فى تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك ولم يشتغل بك عنى وابتغى منك زادًا يوصله إلىَّ فاخدميه وزوِّديه، ولا تعوقيه عن سفره بل أعينيه بكل ما يبلغه فى سفره، ومن مد إليك عينيه ورضى بك وآثرك علىَّ وطلب وصالك فسوميه سوء العذاب، وأوليه غاية الهوان، واستخدميه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش. ومن يأكل منك فاخدعيه به قليلاً ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله، وسلطى عليه أتباعك وعبيدك، وكلما بالغ فى محبتك وتعظيمك وإكرامك فقابليه بأمثاله قِلًى[1] وإهانة وهجرًا حتى تتقطع نفسه عليك حسرات. فتأمل هذا المثال وحال خُطَّاب الدنيا وخُطَّاب الآخرة، والله المستعان. وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروى عن الله ﷻ: «يا دنيا اخدمى من خدمنى، واستخدمى من خدمك».

(فصـــــل) المثال التاسع عشر: ملك خط مدينة فى أصلح المواضع وأحسنها هواءً وأكثرها مياهًا، وشق أنهارها وغرس أشجارها، وقال لرعيته: تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها، فمن سبق إلى مكان فهو له، ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤا مساكنهم فيها وبقى من أصحاب الحسرات، ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية، وفى الشجرة من كل أنواع الفواكه، وعليها طيور عجيبة الأصوات، وقال لهم: لا تغترّوا بهذه الشجرة وظلها، فعن قليل تجتث من أصلها،

---

(١) سومية : أذيقيه العذاب.

ويذهب ظلها، وينقطع ثمرها، وتموت أطيارها، وأما مدينة الملك فأكلها دائم وظلها مديد ونعيمها سرمدى، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فسمع الناس بها فخرجوا فى طلبها على وجوههم، فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ، فنزلوا كلهم تحتها واستظلوا بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطيارها، فقيل لهم: إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم وتضمروا مراكبكم للسباق، فتهيئوا للركوب وكونوا على أهبة، فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق، فقال الأكثرون: كيف ندع هذا الظل الظليل والماء السلسبيل والفاكهة النضجة والدعة والراحة، ونقتحم هذه الحلبة فى الحر والغبار والتعب والنصب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التى تنقطع فيها الأمعاء؟ وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد، ونترك ما نراه إلى ما لا نراه، وذرة منقودة فى اليد أولى من ذرة موعودة بعد غد؟ خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به، ونحن بنو اليوم، وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب فى بلد بعيد لا ندرى متى نصل إليه؟ ونهض من كل ألف واحد وقالوا: والله ما مقامنا هذا فى ظل زائل تحت شجرة قد دنا قلعها وانقطاع ثمرها وموت أطيارها، ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذى لا يزول، والعيش الهنىء الذى لا ينقطع، إلا من أعجز العجز، وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذ وطنه خشية التأذى بالحر وبالبرد؟ وهل هذا إلا أَسْفَهُ السفه؟ فالسباقَ السباق، والبدارَ البدار.

حُكـم المنـيَّةِ فـى الـبَرِيَّةِ جـارى ... مـا هـذه الدنـيا بـدارِ قـرارِ
اقضـوا مـآربَكم سِـراعًا إنَّمـا ... أعمـاركم سـفر مـن الأسـفار
وتراكضـوا خـيل السباق وبـادروا ... أن تسـترد فـإنهن عـوارى
ودَعُـوا الإقامـةَ تحـتَ ظِـلٍّ زائـلٍ ... أنـتم عـلى سَـفَرٍ بهـذى الـدارِ
مـن يَـرْجُ طِيـبَ العَـيْشِ فـيها إنمـا ... يبـنى الـرجاء عـلى شَـفيرٍ هـارِ
والعـيشُ كـلُّ العـيشِ بعـد فـراقِها ... فـى دارِ أهـلِ السَّـبْقِ أكـرمِ دارِ

فاقتحموا حلقة السباق، ولم يستوحشوا من قلة الرفاق، وساروا فى ظهور العزائم، ولم تأخذهم فى سيرهم لومة لائم، والمتخلف فى ظل الشجرة نائم، فو الله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة وتساقطت أوراقها وانقطع ثمرها ويبست فروعها وانقطع مشربها، فقلعها قَيِّمُها من أصلها، فأصبح أهلها فى حرِّ السَّموم يتقلبون، وعلى ما فاتهم من العيش فى ظلها يتحسرون، أحرقها قيمها فصارت هى وما حولها نارًا تلظَّى، وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع أحد منهم الخروج منها، فقالوا: أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه؟ فقيل لهم: ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم، فرأوهم من البعد فى قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات، فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم، وزاد تضاعفها بأن حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون، وقيل: هذا جزاء المتخلفين ﴿ وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل: ١١٨)[١].

(فصـــــل)

المثال العشرون: ما مثَّلها به النبى ﷺ من الثوب الذى شُقَّ وبقى معلقًا بخيط فى آخره، فما بقاء ذلك الخيط؟ قال ابن أبى الدنيا: حدثنى الفضل بن جعفر حدثنا وهب ابن حماد حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شُقَّ من أوله إلى آخره فبقى معلقًا بخيط فى آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع»[٢].

وإنْ أردت لهذا المثل زيادة إيضاح فانظر إلى ما رواه أحمد فى مسنده من حديث أبى نظرة عن أبى سعيد قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر نهارًا، ثم قام فخطبنا فلم يترك شيئًا قبل قيام الساعة إلا أخبر به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وجعل الناس يلتفتون إلى

---

(١) القِلَى: البغض والهجر.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» (١٠٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/١٣١) وضعفه أبو نعيم، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٢٥١).

الشمس: هل بقى منها شيء، فقال: «**ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه**»(١).

وروى حفص بن غياث عن ليث عن المغيرة بن حكيم عن ابن عمر قال: «**خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: ما بقى من الدنيا إلا مثل ما بقى من يومنا هذا فيما مضى منه**»(٢).

وروى ابن أبى الدنيا عن إبراهيم بن سعد حدثنا موسى بن خلف عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب عند مغرب الشمس فقال: «**ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه**»(٣).

فالدنيا كلها كيوم واحد بعث رسول الله ﷺ فى آخره قبل غروب شمسه بيسير. وقال جابر وأبو هريرة - رضى الله عنهما- عنه : «**بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصابعه السبابة والوسطى**»(٤) وكان بعض السلف يقول: تصبروا، فإنما هى أيام قلائل، وإنما أنتم رَكْبٌ وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت، وإنه قد نعيت إليكم أنفسكم، والموت حبس لا بد منه، والله بالمرصاد، وإنما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١)، وأحمد (١٩/٣)، والطيالسي في «مسنده» (٢١٥٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٢٨٩)، وأبو يعلى (١١٠١)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٨٦٤) وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢٤٠).

(٢) رواه أحمد (١٣٣/٢)، والحاكم (٤٤٣/٢)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣١١/١٠)، عن أبي هريرة، وقال : رواه البزار، وفيه هشام بن عبد الرحمن ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.أهـ.

(٣) أورده الهيثمي في «المجمع» (٣١١/١٠) وقال: رواه البزار في طريق خلف بن مرسي عن أبيه وقد وثقا، وبقية رجاله رجال الصحيح. أهـ.

(٤)رواه البخاري(٦٥٠٤)، ومسلم(٢٩٥١)، والترمذي(٢٢١٤)،وابن ماجه(٤٠٢٨)، وأحمد(١٣١/٣) والدارمي (٢٧٥٩) من حديث أنس.
ورواه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠) وأحمد (٣٣٠/٥) من حديث سهل بن سعد.
ورواه البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(فصـــــل)

المثال الحادى والعشرون: مثال الدنيا كحوض كبير مُلِئَ ماء وجعل موردًا للأنام والأنعام، فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد حتى لم يبق منه إلا كدر فى أسفله قد بالت فيه الدواب وخاضته الناس والأنعام كما روى مسلم فى صحيحه عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم فقال فى خطبته: «إن الدنيا قد آذنت بصرمٍ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها، وإنكم منتقلون عنها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم»[1] وقال عبد الله بن مسعود: «إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً، فما بقى منها إلا قليل من قليل، ومثل ما بقى منها كالثغب شرب صفوه وبقى كدره»[2] الثغب: الغدير.

(فصـــــل)

المثال الثانى والعشرون: قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان فكثرت فيها الأحداث والآفات وطرقها المحن، وأغارت عليها عساكر الجور والفساد، فبنى ملكهم مدينة فى محل لا يطرقه آفة ولاعاهة، وعزم على تخريب المدينة الأولى، فأرسل إلى سكانها فنودى فيهم بالرحيل بعد ثلاث، ولا يتخلف منهم أحد، وأمرهم أن ينقلوا إلى مدينة الملك الثانية خير ما فى تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر واللآلى والذهب والفضة، وما خف حمله من المتاع وعظم قدره وصلح للملوك، وأرسل إليهم الأدلاء وآلات النقل، ونهج لهم الطريق ونصب لهم الأعلام، وتابع الرسل يستحثونهم بعضهم فى إثر بعض، فانقسموا فرقًا، فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم فى تلك المدينة وتيقنوا أنهم إن لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلى مدينة

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٧)، وأحمد (٤/١٧٤-٥/٦١)، وابن حبان (٧١٦)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٣٤)، وهناد في «الزهد» (٧٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٧١).

(٢) رواه البخاري في «الجهاد والسير» باب «عزم الإمام على الناس فيما يطيقون» برقم (٢٩٧٣) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/١٠٢)، وأبو يعلي (٥١٣٤)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٥٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٣٢). الثغب: الغدير في ظل جبل، والجمع: أثغاب.

الملك، وإلا فاتهم ذلك فلم يقدروا عليه، فرأوا غبنًا أن يقطعوا تلك المدة فى جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل، فسألوا عن خير ما فى المدينة وأنفسه وأحبه إلى الملك وأنفعه فى مدينته، فلما عرفوه لم يلتفوا إلى ما دونه، ورأوا أن أحدهم إذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحب إلى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها، فكان همهم فى تحصيل ما هو أحب إلى الملك وأنفس عنده ولو قل فى رأى العين، وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الأحمال المحملة، وتنافسوا فى كثرتها، وهم على مراتب، فمنهم من أحماله أثمان، ومنهم من أحماله دون ذلك على قدر هممهم وما يليق بهم، لكن هممهم مصروفة إلى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة، وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور فى تلك المدينة والاشتغال بطيباتها ولذاتها ونزهها، وحاربوا العازمين على النقلة وقالوا: لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئًا، فإن شاركتمونا فى عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها، وإلا لم نمكنكم من النقلة ولا من شيء من المتاع، فوقعت الحرب بينهم فقاتلوا السائرين، فعمدوا إلى أكل أموالهم وأهليهم، وما نقموا منهم إلا بسيرهم إلى دار الملك وإجابة داعيه، والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها، وأقبلت فرقة أخرى على التنزه والبطالة والراحة والدعة وقالوا: لا نتعب أنفسنا فى عمارتها ولا ننقل منها، ولا نعارض من أراد النقلة ولا نحاربهم ولا نعاونهم، وكان للملك فيها قصر فيه حريم له وقد أحاط عليه سورًا وأقام عليه حرسًا، ومنع أهل المدينة من قربانه، وطاف به القاعدون فلم يجدوا فيه بابًا يدخلون منه، فغدوا على جدرانه فنقبوها ووصلوا إلى حريمه فأفسدوهم، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه، ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم إلى إفساد حريمه والنيل منهم، فبينما هم على تلك الحال وإذ بالنفير قد صاح فيهم كلهم فلم يمكن أحد منهم من التخلف، فحملوا على تلك الحال وأحضروا بين يدى الملك فاستعرضهم واحدًا واحدًا، وعرضت بضائعهم وما قدموا به من تلك المدينة عليه، فقبل منها ما يصلح له وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته وأنزلهم منازلهم من قربه، ورَدَّ منها ما لا يصلح له وضرب به وجوه أصحابه، وقابل من نقب حماه وأفسد حريمه بما يقابل به المفسدون، فسألوا الرجعة إلى المدينة ليعمروا قصره ويحفظوا حريمه ويقدموا عليه من البضائع

بمثل ما قدم به التجار، فقال: هيهات قد خربت المدينة خرابًا لا تعمر بعده أبدًا، وليس بعدها إلا المدينة التى لا تخرب أبدًا.

(فصـــــل) وقد مُثِّلَت الدنيا بمنام والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذر والحصاد يوم المعاد، ومثلت بدار لها بابان: باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه، ومثلت بحية ناعمة الملمس حسنة اللون وضربتها الموت، ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم طيب الرائحة، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه، ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه، ومثلت بالطعام فى المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذٍ ولا راحة لصاحبه إلا فى خروجه كما أشار إليه النبى ﷺ فى آكلة الخضر، وقد تقدم ومثلت بامرأة من أقبح النساء قد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس، وهى تدعو الناس إلى منزلها، فإذا أجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها وألقتهم فى الحفر، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديمًا وحديثًا.

والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلت بهم الآفات، وهم ينافسون فى مصارعهم ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (ابراهيم: ٤٥) ويكفى فى تمثيلها ما مثلها الله سبحانه فى كتابه فهو المثل المنطبق عليها.

قالوا: وإذا كان هذا شأنها فالتقلل منها والزهد فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها، قالوا: ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة فى الله والدار الآخرة أبدًا، ولا تسكن هاتان الرغبتان فى مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن، ولا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدًا. قالوا: ويكفى أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها، ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها ولم تنقصه مما له عند الله شيئًا فاختار جوع يوم وشبع يوم، ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله، كما تقدم ذكره.

قالوا: وقد انقسم الناس بعد رسول اللهﷺ أربعة أقسام: قسم لم يريدوا الدنيا ولم تردهم كالصديق ومن سلك سبيله، وقسم أرادتهم الدنيا ولم يريدوها كعمر بن الخطاب ومن سلك سبيله، وقسم أرادوا الدنيا وأرادتهم كخلفاء بنى أمية ومن سلك سبيلهم حاشا عمر بن عبد العزيز فإنها أرادته ولم يردها، وقسم أرادوها ولم تردهم كمن أفقر الله منها يده وأسكنها فى قلبه وامتحنه بجمعها. ولا يخفى أن خير الأقسام القسم الأول، والثانى إنما فضل لأنه لم يردها فالتحق بالأول.

قالوا: وقد سأل رجل رسول اللهﷺ أن يدله على عمل إذا فعله أحبه الله وأحبه الناس فقال له: «ازهد فى الدنيا يُحِبَّك اللهُ، وازهدْ فيما فى أيدى الناس يحبَّك الناس»[1] فلو كان الغنى أفضل لدلـه عليه. قالوا: وقد شرع الله سبحانه قتال الكفار وشرع الكف عن الرهبان لاعتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها، فمضت السُنة بأن لا يُقاتَلوا ولا يُضْرَب عليهم جزية، هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه، فعلم أن الزهد فيها عند الله بمكان. قالوا: وكذلك استقرت حكمته في شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد، فهذا الزانى المحصن عقوبته الرجم، وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب، وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد.

قالوا: وكيف يستوى عند الله سبحانه ذلة الفقر وكسرته وخضوعه وتجرع مرارته وتحمل أعبائه ومشاقه، وعزة الغنى ولذته وصولته والتمتع بلذاته ومباشرة حلاوته، فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى، وأين أجر مشقة المجاهدين إلى أجر عبادة القاعدين فى الأمن والدعة والراحة؟

قالوا: وكيف يستوى أمران: أحدهما حفت به الجنة، والثانى حفت به النار؟ فإن أصل

(١) رواه ابـن ماجـه (٤١٠٢)، والحـاكم (٣١٣/٤)، والطـبراني في «الكـبير» (١٩٣/٦)، والبـيهقي في «الشـعب» (١٠٥٢٢) وأبـو نعيم في «الحلية» (١٣٦/٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٤٣)، من حديث سهل بن سعد ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٤).

الشهوات من قِبَلِ المال، وأصل المكاره من قبل الفقر. قالوا: والفقير لا ينفك في خصاصة من مضض الفقر والجوع والعرى والحاجة وآلام الفقر، وكل واحد منها يكفر ما يقاومه من السيئات، وذلك زيادة على أجره بأعمال البر، فقد شارك الأغنياء بأعمال البر وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته، وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة والنفع المتعدي فله سبيل إلى لحاقهم فيه، وله مثل أجورهم، وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتى مثل ما أوتوه لفعل كما يفعلون، فيقول: لو أن لى مالاً لعملت بأعمالهم، فهو بنيته وأجرهما سواء كما أخبر به الصادق المصدوق فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى.

قالوا: والفقير فى الدنيا بمنزلة المسجون، إذ هو ممنوع عن الوصول إلى شهواته وملاذّها، والغنى متخلص من هذا السجن، وقد قال النبى ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1] فالغنى إن لم يسجن نفسه عن دواعى الغنى وطغيانه وأرسلها فى ميادين شهواتها كانت الدنيا جنة له، فإنما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذى هو فى سجن فقره.

قالوا: وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طيباته فى الحياة الدنيا، وإنه لحرى أن يكون عوضًا عن طيبات الآخرة أو منقصة لها ولا بد كما تقدم بيانه، بخلاف من استكمل طيباته فى الآخرة لما منع منها فى الدنيا، وأتى رسول الله ﷺ بسويق لوز فأبى أن يشربه وقال: «**هذا شراب المترفين**».

قالوا: وقد سئل الحسن البصرى فقيل له: رجلان أحدهما تارك للدنيا، والآخر يكتسبها ويتصدق بها. فقال: التارك لها أحب إلىَّ. قالوا: وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة: عن رجلين مر أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها، ومر بها الآخر فأخذها وتصدق بها، فقال: الذى لم يلتفت إليها أفضل. ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يلتفت إليها، ولو أخذها لأنفقها فى سبيل الله.

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣) من حديث أبي هريرة .

قالوا: والفقير الفقيه فى فقره يمكنه لحاق الغنى فى جميع ما ناله بغناه: بنيته وقوله، فيساويه فى أجره، ويتميز عنه بعدم الحساب بعدم المال، فساواه بثوابه وتخلص من حسابه، كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسمائة عام، وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبادة بن مسلم حدثنى يونس بن خباب عن أبى البخترى الطائى عن أبى كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه. فأما الثلاث التى أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلِمَ عبدٌ مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله ﷻ بها عزًا، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر. وأما الذى أحدثكم حديثًا فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم فيه لله حقًا، فهذا بأفضل المنازل عند الله، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً فهو يقول: لو كان لى مال عملت فيه بعمل فلان، قال: فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا فهو يتخبط فى ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل عند الله، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو كان لى مال لفعلت بفعل فلان، قال: فهو بنيته ووزرهما سواء»[1]. فلما فضل الغنى بفعله ألحق الفقير الصادق بنيته، والغنى هناك إنما نقص بتخلفه عن العمل، والفقير إنما نقص بسوء نيته، فلم ينفع الغنى غناه مع التخلف، ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية، ولا نفعه فقره مع سوء نيته.

قالوا: ففى هذا بيان كافٍ شافٍ فى المسألة حاكم بين الفريقين، وبالله التوفيق.



(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/٢٣٠)، وابن المبارك في «الزهد» (٩٩٩) وهناد في «الزهد» (٥٨٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/٣٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٨٩٤).

الباب الرابع والعشرون

فى ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الأغنياء: لقد أجلبتم علينا أيها الفقراء بِخَيْل الأدِلَّة ورَجْلِها، ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها، ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار، وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوى اليسار، ونحن نحاكمكم إلى ما حاكمتمونا إليه، ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه، ونضع أدلتنا وأدلتكم فى ميزان الشرع والعقل الذى لا يعزل، فحيئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول، ولكن أخرجوا من بيننا من تشبه بالفقراء الصادقين الصابرين ولبس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشحِّهم عليها، وأبعدهم من الفقر والصبر، من كل مُظْهِر للفقر مُبْطِن للحرص، غافل عن ربه متبع لهواه مفرط فى أمر معاده، قد جعل زى الفقر صناعة، وتحلى بما هو أبعد الناس منه بضاعة، أو فقير حاجة فقره اضطرارًا لا اختيارًا، فزهده زهد إفلاس لا زهد رغبة فى الله والدار الآخرة، أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله غير راضٍ عن ربه فى فقره، بل إن أعطى رضى وإن منع سخط، شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها، وهو أفقر الناس فيها، فهو أرغب شيء فيها وهى أزهد شيء فيه، وأخرجوا من بيننا ذا الثروة الجموع المنوع المتكاثر بماله المستأثر به، الذى عض عليه بناجذه وثنى عليه خناصره، يفرح بزيادته ويأسى على نقصانه، فقلبه به مشغوف، وهو على تحصيله ملهوف، إن عرض سوق الإنفاق والبذل أعطى قليلاً وأكدى، وإن دُعِيَ إلى الإيثار أمعن فى الهرب جدًّا، وأخلصونا وإخواننا من سباق الطائفتين وسادات الفريقين الذين تسابقوا إلى الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم، ونافسوا فى القرب منه بأعمالهم وأموالهم، فقلوبهم عاكفة عليه، وهِمَّتهم إلى المسابقة إليه، ينظر غنيهم إلى فقيرهم فإذا رآه قد سبقه إلى عمل صالح شمر إلى اللحاق به، وينظر فقيرهم إلى غنيهم فإذا رآه قد

فاته بإنفاق فى طاعة الله أنفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو أكثر منه، فهؤلاء إخواننا الذين تكلم الناس فى التفضيل بينهم وأيهم أعلى درجة، وأما أولئك فإنما ينظر أيهم تحت الآخر فى العذاب وأسفل منه، والله المستعان.

إذا عرف هذا فقد مدح الله سبحانه فى كتابه أعمالاً وأثنى على أصحابها، ولا تحصل إلا بالغنى كالزكاة والإنفاق فى وجوه البر والجهاد فى سبيل الله بالمال وتجهيز الغزاة وإعانة المحاويج وفك الرقاب والإطعام فى زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغنى ونصره على فقره ومخمصته؟ وأين يقع صبره من نفع الغنى بماله فى نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه؟ وأين يقع صبر أبى ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذبين فى الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصرة الإسلام حين قال النبى ﷺ : «**ما نفعنى مالُ أحدٍ ما نفعنى مالُ أبى بكر**»[1] وأين يقع صبر أهل الصُّفَّة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التى قال له رسول الله ﷺ فى بعضها: «**ما ضَرَّ عثمانَ ما فعل بعد اليوم**»[2] ثم قال: «**غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما أخفيت وما أبديت**» أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين، وقد شهد رسول الله ﷺ بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وفسر اليد العليا بالمعطية والسفلى بالسائلة، وقد عدد الله سبحانه على رسوله ﷺ من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالة التى نقله إليها، وفقره الحالة التى نقله منها، وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلى ما هو خير منه، وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الضحى: ٤) أن المراد به الحالتان، أى كل حالة خير لك مما قبلها، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ (الضحى: ٥) فهذا يدخل فيه عطاؤه فى الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٩٤)، وأحمد (٢/ ٢٥٣/ ٣٦٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٨٤).
(٢) رواه الترمذي (٣٧٠١)، وأحمد (٥/ ٦٣)، والحاكم (٣/ ١٠٢) وصححه ووافقه الذهبي.

قالوا: والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة﴿ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾(البقرة:١٠٥) قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين، لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان إليهم وإعانتهم على طاعتهم، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعاتهم التى تخصهم، كما فى صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسى ﷺ عن النبى ﷺ وذكر شهر رمضان فقال: «من فَطَّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه وعِتْقَ رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء »[1] فقد حاز الغنى الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذى فطره. قالوا: ولو لم يكن للغنى الشاكر إلا فضل الصدقة التى لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن كما ذكر النضر بن شميل عن قرة عن سعيد بن المسيب أنه حدث عن عمر بن الخطاب قال: «ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم» قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار، والمُخْلِص المُسِرُّ بها مستظلٌّ بها يوم القيامة فى ظل العرش.

وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إن الصدقة لتطفئ على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته»[2].

وقال يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة يرفعه: «كل امرئ فى ظل صدقته حتى يُقْضَى بين الناس»[3] قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتى عليه يوم إلا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة. وفى حديث معاذ عن النبى ﷺ: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»[4].

---

(١) رواه الترمذي (٨٠٧)، وابن ماجه (١٧٤٦)، وأحمد (١١٤/٤، ١١٦)، وابن حبان (٣٤٢٩) والدارمي (١٧٠٢)، والبيهقي (٢٢٠/٤) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٦٤٧).

(٢) ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٨٨).

(٣) رواه أحمد (١٤٧/٤)، والحاكم (٤١٦/١) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٨٦).

(٤) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١١٠).

وروى البيهقى من حديث أبى يوسف القاضى عن المختار بن فلفل عن أنس يرفعه: «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة»[1]. وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إذا تصدق العبد من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا طيبًا - أخذها الله بيمينه، فيُرْبيها لأحدهم كما يُرَبِّى أحدُكم فَلُوَّه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل العظيم»[2] وفى لفظ البيهقى فى هذا الحديث: «حتى إن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أُحُد». وقال محمد بن المنكدر: «من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان»[3] وقد روى مرفوعًا من غير وجه.

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلبًا على شدة ظمئه، فكيف بمن سقى العطاش وأشبع الجياع وكسا العراة من المسلمين؟ وقد قال رسول الله ﷺ : «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة [4] فجعل الكلم الطيب عوضًا عن الصدقة لمن لا يقدر عليها. قالوا: وأين لذة الصدقة والإحسان وتفريجهما القلب وتقويتهما إياه وما يلقى الله سبحانه للمتصدقين من المحبة والتعظيم فى قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم، من أجر الصبر على الفقر؟ نعم، إن له لأجرًا عظيمًا، لكن الأجر درجات عند الله.

قالوا: وأيضًا فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى، وأحب عباده إليه من اتصف بذلك كما قال النبى ﷺ : «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله»[5].

---

(١) عزاه الهيثمي في «المجمع» (١١٠/٣) للطبراني في «الأوسط» وقال: وفيه عيسى بن عبد الله بن محمد وهو ضعيف جدًا.

(٢) رواه البخاري(١٤١٠)، ومسلم(١٠١٤)، والترمذي(٦٦١)، والنسائي(٢٥٢٤) وابن ماجه(١٨٤٢) وأحمد (٤١٨/٣٨١/٣٣١/٢)، وابن حبان (٢٧٠) وابن خزيمة (٢٤٢٥)، والدارمي (١٦٧٥).

(٣) رواه الحاكم (٩٢٤/٢)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣٦٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٤٩/٣) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٣١٢). السغبان: الجوعان.

(٤) رواه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦)، والترمذي (٢٤١٥)، والنسائي (٢٥٥١)، وابن ماجه (١٨٥) وأحمد (٢٥٦/٤)، وابن حبان (٤٧٣)، وابن خزيمة (٢٤٢٨)، والدارمي (١٦٥٧).

(٥) رواه أبو يعلى (٣٣١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٤٥)، وابن عدي في «الكامل» (١٥٣/٧) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٠٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٩٤٦) و«الضعيفة» (٣٥٩٠).

قالوا: وقد ذكر الله سبحانه أصناف السعداء، فبدأ بالمتصدقين أولهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ (الحديد: ١٨-١٩) فهؤلاء أصناف السعداء، ومقدموهم المصدقون والمصدقات.

قالوا: وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله، فمنها أنها تقي مصارع السوء وتدفع البلاء، حتى إنها لتدفع عن الظالم. قال إبراهيم النخعي: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم، وتطفئ الخطيئة، وتحفظ المال، وتجلب الرزق، وتفرح القلب، وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان - يعني الصدقة - وتزكي النفس وتنميها، وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه، وتستر عليه كل عيب، كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر، وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلاً يوم القيامة، وتشفع له عند الله، وتُهَوِّن عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى سائر أعمال البر فلا تستعصي عليه، وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك.

قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها فيحب العليم والجواد والحيي والستير، والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف، ويحب العدل والعفو والرحيم والشكور والبر والكريم، فصفته الغنى والجود ويحب الغنى الجواد.

قالوا: ويكفي في فضل النفع المتعدى بالمال أن الجزاء عليه من جنس العمل، فمن كسا مؤمنًا كساه الله من حلل الجنة، ومن أشبع جائعًا أشبعه الله من ثمار الجنة، ومن سقى ظمآنًا سقاه الله من شراب الجنة، ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار حتى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ، ومن يَسَّر على مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في

عون أخيه. قالوا: ونحن لا ننكر فضيلة الصبر على الفقر، ولكن أين تقع من هذه الفضائل؟ وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

قالوا: وقد جعل رسول الله ﷺ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر، ومعلوم أنه إذا تعدى شكره إلى الإحسان إلى الغير ازداد درجة أخرى، فإن الشكر يتضاعف إلى ما لا نهاية له، بخلاف الصبر فان له حدًّا يقف عليه. وهذا دليل مستقل فى المسألة، يوضحه أن الشاكر أفضل من الراضى الذى هو أعلى من الصابر، فإذا كان الشاكر أفضل من الراضى الذى هو أفضل من الصابر كان أفضل من الصابر فى درجتين.

قالوا: وفى الصحيحين من حديث الزهرى عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار»[1] فجعل الغنى مع الإنفاق بمنزلة القرآن مع القيام به. قالوا: وقد صرح فى حديث أبى كبشة الأنمارى أن صاحب المال إذا عمل فى ماله بعلمه، واتقى فيه ربه، ووصل به رحمه، وأخرج منه حق الله، فهو فى أعلى المنازل عند الله، وهذا تصريح فى تفضيله، وجعل الفقير الصادق إذا نوى أن يعمل بعمله وقال ذلك بلسانه ثانيًا، وأنه بنيته وقوله وأجرهما سواء؛ فإن كلاً منهما نوى خيرًا وعمل ما يقدر عليه، فالغنى نواه ونفذه بعمله، والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه، فاستويا فى الأجر من هذه الجهة، ولا يلزم من استوائهما فى أصل الأجر استواؤهما فى كيفيته وتفاصيله؛ فإن الأجر على العمل والنية له مزية على الأجر على مجرد النية التى قارنها القول، ومن نوى الحج ولم يكن له مال يحج به وإن أثيب على ذلك فإن ثواب من باشر أعمال الحج مع النية له مزية عليه.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قول النبى ﷺ: «من سأل الله الشهادة صادقًا من قلبه بلّغه

(١) رواه البخاري (٧٥٢٩) ومسلم (٨١٥)، والترمذي (١٩٣٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٧٢) وابن ماجه (٤٢٠٩)، وأحمد (٢/٣٦، ٨٨).

الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[1] ولا ريب أن ما حصل للمقتول فى سبيل الله من ثواب الشهادة تزيد كيفيته وصفاته على ما حصل لناوى ذلك إذا مات على فراشه وإن بلغ منزلة الشهيد. فها هنا أجران: أجر وقرب، فإن استويا فى أصل الأجر لكن الأعمال التى قام بها العامل تقتضى أثرًا زائدًا وقربًا خاصًّا وهو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد قال ﷺ : «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار. قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه»[2] فاستويا فى دخول النار، ولا يلزم استواؤهما فى الدرجة ومقدار العذاب، فأعْطِ ألفاظ رسول الله ﷺ حقها ونزِّلها منازلها يتبين لك المراد.

يوضح هذا أن فقراء المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: «يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصَلُّون كما نصلى ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون. قال: أفلا أعلِّمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: تُسَبِّحون وتحمدون وتكبِّرون دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين. فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ : ذلك فضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يشاء»[3] فلو كانوا يلحقون بهم فى مقدار الأجر بمجرد النية لقال لهم: انووا أن تفعلوا مثل فعلهم فتنالوا مثل أجرهم، فلما أعاضهم عما فاتهم من ثواب الصدقة والعتق والحج والاعتمار بما يحصل نظيره بالذكر، عُلِمَ أن الأغنياء قد فَضَلُوهم بالإنفاق، فلما شاركوهم فى الذكر بقيت مزية الإنفاق، فشكوا إلى رسول الله ﷺ أن الامتياز لم يَزَلْ، وأنهم قد ساوونا فى الذكر كما ساوونا فى الصوم والصلاة، فأخبرهم أن

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٩)، والترمذي (١٦٥٣)، والنسائي (٣١٦٢)، وابن ماجه (٢٧٩٧)، وأبو داود (١٥٢٠)، والدارمي (٢٤٠٧).

(٢) رواه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨)، وأبو داود (٤٢٦٨) من حديث أبي بكرة.

(٣) رواه البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٩٧٤)، وابن حبان (٢٠١٤)، وابن خزيمة (٧٤٨)، وأبو يعلى (٥٦٨٧)، والبيهقي (١٨٦/٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فلو كان لهم سبيل إلى مساواتهم من كل وجه بالنية والقول لدلهم عليها.

قالت الفقراء: هذا الحديث حجة لنا إذا فهم على الحقيقة، وذلك أن معناه أنهم وإن كانوا قد ساووكم فى الإيمان والإسلام والصلاة والصيام ثم فضلوكم فى الإنفاق، ففى التكبير والتسبيح والتهليل ما يُلحقكم بدرجتهم، وقد ساويتموهم - أيضًا - بحسن النية، إذ لو أمكنكم لأنفقتم مثلهم. وفى بعض ألفاظ هذا الحديث: «إن أخذتم به سبقتم من قبلكم ولم يلحقكم من بعدكم» وهذا يدل على أن الأغنياء لا يلحقونهم وإن قالوا مثل قولهم. وقوله ﷺ : «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» معناه أن فضل الله ليس مقصورًا عليكم دونهم، فكما آتاكم الله من فضله بالذكر كذلك يؤتيهم إياه إذا عملوا مثلكم أيضًا، فأنتم فهمتم من الفضل التخصيص فوضعتموه فى غير موضعه، وإنما معناه العموم والشمول، وأن فضله عام شامل للأغنياء والفقراء فلا تذهبون به دونهم، فأين فى هذا الحديث التفضيل لكم علينا؟

قالوا: ويحتمل قوله: «ذلك فضل الله» ثلاثة أمور: أحدها: سبقهم لكم بالإنفاق، والثاني: مساواتكم لهم فى فضيلة الذكر نم تختصوا به دونهم، والثالث: سبقكم لهم إلى الجنة بنصف يوم. وهذا وإن كان لا ذكر له فى هذه الرزاية فهو مذكور فى بعض طرقه، قال البزار فى مسنده: حدثنا الوليد بن عمر حدثنا محمد بن الزبرقان حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: «اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل به أغنياؤهم فقالوا: يا رسول الله، إخواننا صدَّقوا تصديقنا، وآمنوا إيماننا، وصاموا صيامنا، ولهم أموال يتصدقون منها ويصلون منها الرحم وينفقونها فى سبيل الله، ونحن مساكين لا نقدر على ذلك. فقال: ألا أخبركم بشيء إذا أنتم فعلتموه أدركتم مثل فضلهم؟ قولوا: الله أكبر فى كل صلاة إحدى عشرة مرة، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، وسبحان الله مثل ذلك، تدركون مثل فضلهم. ففعلوا، فذكروا ذلك للأغنياء ففعلوا مثل ذلك، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له فقالوا: هؤلاء إخواننا فعلوا مثل نقول. فقال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. يا معشر الفقراء، ألا أبشركم أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل

أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام؟»[1] وتلا موسى بن عبيدة: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: ٤٧).

قالوا: فهذا خبر واحد وكلام متصل ذكره بشارةً لهم عندما ذكروا مساواة الأغنياء لهم في القول المذكور، فأشبه أن يرجع الفضل إلى سبق الفقراء للأغنياء وأنهم بهذه البشارة مخصصون، فكان السبق لهم دون غيرهم وإن ساووهم في القول وساووهم في الإنفاق بالنية كما في حديث أبي كبشة المتقدم، وحصلت لهم مزية الفقراء.

قالت الأغنياء: لقد بالغتم في صرف الحديث عن مقصوده إلى جهتكم، وهو صريح في تفضيل هذا الحديث لمن أنصف، فإن قوله: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» خرج جواباً للفقراء عن قولهم إن أهل الدثور قد ساووهم في الذكر كما ساووهم في الصلاة والصوم والإيمان، وبقيت مزية الإنفاق، ولم يحصل لهم ما يلحقهم فيها، وما علمتنا من الذكر قد لحقونا فيه، فقال لهم حينئذ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» وهذا صريح جدًّا في مقصوده، فلما انكسر القوم بتحقق السبق بالإنفاق الذى عجزوا عنه أخبرهم بالبشارة بالسبق إلى دخول الجنة بنصف يوم، وأن هذا السبق في مقابلة ما فاتكم من فضيلة الغنى والإنفاق، ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم في المنزلة والدرجة، فهؤلاء السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب من الموقوفين للحساب، من هو أفضل من أكثرهم وأعلى منه درجة.

قالوا: وقد سمى سبحانه المال خيرًا في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾(البقرة: ١٨٠) وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات: ٨) وأخبر رسول الله ﷺ أن الخير لا يأتي إلا بالخير، كما تقدم، وإنما يأتي بالشر معصية الله في الخير لا نفسه.

---

(١) رواه ابن ماجه(٤١٢٤) وابن أبي شيبة (٨٥/٧) وعبد بن حميد (٧٩٧) وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠١/١٠) رواه البزار وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف. أهـ. والحديث ضعفه البوصيري في «الزوائد» (٢١٧/٤).

وأَعلَمَ اللهُ سبحانه أنه جعل المال قوامًا للأنفس، وأمر بحفظه ونهى أن يُؤْتَى السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبى ﷺ بقوله: «نعم المال الصالح مع المرء الصالح»[1] وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حِلِّهِ، يَكُفُّ به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطى حقه.

وقال أبو إسحاق السبيعى: كانوا يرون السعة عونًا على الدين. وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التُّقَى: الغِنَى. وقال سفيان الثورى: المال فى زماننا هذا سلاح المؤمن. وقال يوسف بن ساباط: «ما كان المال فى زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه فى هذا الزمان، والخير كالخيل: لِرَجُلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِتْر، وعلى رجلٍ وِزْر».

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سببًا لحفظ البدن، وحفظُه سببٌ لحفظ النفس التى هى محل معرفة الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه؛ فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة، وإنما يُذَمُّ منه ما استُخرِج من غير وجهه وصُرِفَ فى غير حقه واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة، فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجعول، قال النبى ﷺ : «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»[2] فذم عبدهما دونهما. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان عن يزيد بن ميسرة قال: «كان رجل ممن مضى جمع مالاً فأوعى، ثم أقبل على نفسه وهو فى أهله فقال: أنعم سنين. فأتاه ملك الموت فقرع الباب فى صورة مسكين، فخرجوا إليه فقال: ادعوا لى صاحب الدار. فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك؟ ثم مكث قليلاً ثم عاد فقرع الدار وصنع مثل ذلك وقال: أخبروه أنى ملك الموت. فلما سمع سيدهم قعد فزعًا وقال: لَيِّنوا له الكلام. قالوا: ما تريد غير سيدنا بارك الله فيك؟ قال: لا. فدخل عليه فقال:

---

(١) رواه أحمد (١٩٧/٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩) وابن حبان (٣٢١٠) والبيهقي في «الشعب» (١٢٤٨) وابن قانع في «معجم الصحابة» (٧١٦)، والحاكم (٢٣٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه أيضًا ابن حبان.

(٢) سبق تخريجه.

قم فأَوْصِ ما كنت موصيًا، فإنى قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصرخ أهله وبكوا، ثم قال: افتحو الصناديق وافتحوا أوعية المال، ففتحوها جميعًا، فأقبل على المال يلعنه ويسبه، يقول: لُعِنْتَ من مال! أنت الذى أنسيتنى ربى وشغلتنى عن العمل لآخرتى حتى بلغنى أجلى. فتكلم المال فقال: لا تسبنى، ألم تكن وضيعًا فى أعين الناس فرفعتك؟ ألم يُرَ عليك من أثرى، وكنت تحضر سدد الملوك والسادة فتدخل ويحضر عباد الله الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن تخطب بنات الملوك والسادة فتنكح ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون؟ ألم تكن تنفقنى فى سبيل الخبث فلا أتعاصى، ولو أنفقتنى فى سبيل الله لم أَتَعاصَ عليك؟ وأنت ألوم منى، إنما خلقت أنا وأنتم يا بنى آدم من تراب: فمنطلق ببر، ومنطلق بإثم. فهكذا يقول المال، فاحذروا». وفى أثر يقول الله تبارك وتعالى: «أموالنا رجعت إلينا، سعد بها من سعد وشقى بها من شقى».

قالوا: ومن فوائد المال أنه قوام العبادات والطاعات، وبه قام سوق بر الحج والجهاد، وبه حصل الإنفاق الواجب والمستحب، وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد والقناطر وغيرها، وبه يتوصل إلى النكاح الذى هو أفضل من التخلّى لنوافل العبادة، وعليه قام سوق المروءة، وبه ظهرت صفة الجود والسخاء، وبه وقيت الأعراض، وبه اكتسبت الإخوان والأصدقاء، وبه توصل الأبرار إلى الدرجات العُلَى ومرافقة الذين أنعم الله عليهم. فهو مرقاة يصعد بها إلى أعلى غرف الجنة، ويهبط منها إلى أسفل سافلين، وهو مقيم مجد الماجد. كان بعض السلف يقول: لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال. وكان بعضهم يقول: اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى. وهو من أسباب رضا الله عن العبد كما كان من أسباب سخطه عليه.

وهؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله به: الأبرص والأقرع والأعمى، نال به الأعمى رضا ربه، ونالا به سخطه[1]. والجهاد ذروة سنام العمل، وتارة يكون بالنفس وتارة يكون بالمال،

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤) ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة.

وربما كان الجهاد بالمال أنكى وأنفع. وبأى شيء فضل عثمان علَى علِيٍّ، وعليٌّ أكثر جهادًا بنفسه وأسبق إسلامًا من عثمان.

وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف أفضل من جمهور الصحابة مع الغنى الوافر، وتأثيرهما في الدين أعظم من تأثير أهل الصفة. وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعته[1] وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياء خيرٌ له من تركهم فقراء[2] وأخبر أن صاحب المال لن ينفق نفقة يبتغى بها وجه الله إلا ازداد بها درجة ورفعة، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر وقرنه بالكفر فقال: «اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر»[3] فإن الخير نوعان: خير الآخرة والكفر مضاده، وخير الدنيا والفقر مضاده، فالفقر سبب عذاب الدنيا، والكفر سبب عذاب الآخرة، والله ﷻ جعل إعطاء الزكاة وظيفة الأغنياء، وأخذها وظيفة الفقراء، وفرق بين اليدين شرعًا وقدرًا، وجعل يد المعطى أعلى من الآخذ، وجعل الزكاة أوساخ المال؛ ولذلك حرمها على أطيب خلقه وعلى آله صيانة لهم وتشريفًا ورفعًا لأقدارهم.

ونحن لا ننكر أن رسول الله ﷺ كان فقيرًا ثم أغناه الله، والله فتح عليه وخوَّله ووسع عليه، وكان يدخر لأهله قوت سنة ويعطى العطايا التى لم يعطها أحد غيره، وكان يعطى عطاءَ مَنْ لا يخاف الفقر، ومات عن فدك والنضير وأموال خصه الله بها. وقال تعالى:﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (الحشر: ٧) فنزهه ربه سبحانه عن الفقر الذى يُسَوِّغ الصدقة، وعوضه عما نزهه عنه بأشرف المال وأَحَلّه وأفضله، وهو ما أخذه بظلِّ رمحه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلمًا وعدوانًا، فإنه خلق المال ليستعان

(١) لقوله ﷺ :«إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال» رواه البخاري (٢٤٠٨) من حديث المغيرة بن شعبة، ومسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة والمغيرة بن شعبة.

(٢) رواه البخاري (٦٧٣٣) ومسلم (١٦٢٨) وأبو داود (٢٨٦٤) والترمذي (٢١١٦) والنسائي (٣٦٢٨) وابن ماجه (٢٧٠٨) من حديث سعد.

(٣) رواه النسائي (٥٤٨٠) وأحمد (٥/٣٦، ٣٩) وابن خزيمة (٧٤٧) والحاكم (١/٣٥) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢١٠).

به على طاعته، وهو بأيدي الكفار والفجار ظلمًا وعدوانًا، فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم. ولكن لم يكن غنى رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنى بنى الدنيا وأملاكهم؛ فإن غناهم بالشيء، وغناه عن الشيء وهو الغنى العالى، وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو ﷺ إنما يتصرف فى ملكه تصرف العبد الذى لا يتصرف إلا بأمر سيده.

وقد اختلف الفقهاء فى الفىء: هل كان ملكًا للنبى ﷺ على قولين هما روايتان عن أحمد، والتحقيق أن ملكه له كان نوعًا آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال: «والله لا أعطى أحدًا ولا أمنعُ أحدًا، إنما أنا قاسمٌ أَضَعُ حيثُ أُمِرْت»[1] ذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث، فإنه عبدٌ محض من كل وجه لربه ﷻ والعبد لا مال له فيورث عنه، فجمع الله له سبحانه بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر، فكمل له مراتب الكمال، فليست إحدى الطائفتين بأحق به من الأخرى.

فكان ﷺ فى فقره أصبر خلق الله وأشكرهم، وكذلك فى غناه، والله سبحانه جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأى غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهبًا، وخُيِّرَ بين أن يكون مِلِكًا نبيًّا وبين أن يكون عبدًا نبيًّا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا. ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشىء، بل تحمل عيال المسلمين ودَيْنَهم فقال: «من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك كَلاًّ فإلَيَّ وعلَيَّ»[2] فرفع الله سبحانه قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة، كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه، وأغنى قلبه كل الغنى، ووسع عليه غاية السعة، فأنفق غاية الإنفاق وأعطى أجَلَّ العطايا، ولا استأثر بالمال

(١) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) (١٠٠) من حديث معاوية.

(٢) رواه أبو داود (٢٨٩٩)، وابن ماجه (٢٧٣٨)، وأحمد (١٣١/٤) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢٣).

ولا اتخذ منه عقارًا ولا أرضًا، ولا ترك شاة ولا بعيرًا ولا عبدًا ولا أمة ولا دينارًا ولا درهمًا.

فإذا احتج الغنى الشاكر بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره ويترك الدنيا اختيارًا لا اضطرارًا، فرسول الله ﷺ وفّى كل مرتبة من مرتبتى الفقر والغنى حقها وعبوديتها، وأيضًا فإن الله سبحانه أغنى به الفقراء، فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنيًا.

قال على بن أبى رباح اللخمى: كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصارى وهو يومئذٍ على مصر وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس معه، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبى طالب فقال: لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير. فقـــال عبد الله بن عمـــرو: ويومئذ كان سيدًا كريمًا قد جاء بخير. فقال مسلمة: ألم يقل الله تعالى:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾(الضحى: ٦-٨) فقال عبد الله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيمًا من أبويه، وأما العيلة فكل ما كان بأيدى العرب إلى القلة. يقول: إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجًا، ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشىء ومضى وتركها، وحذر منها ومن فتنتها. قال: وذلك معنى قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأمته وهو يحذر منها وتعرض عليه فيأباها، وإنما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس فى الإسلام وظهور الدين، إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى سفيان الثورى عن الأوزاعى عن إسماعيل بن عبد الله بن عباس عن النبى ﷺ قال: «رأيت ما هو مفتوح بعدى كنزًا كنزًا، فسَرَّنى ذلك فنزلت: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾(الضحى: ١-٥)» قال: أعطى ألف قصر من لؤلؤ

ترابها المسك، في كل قصر ما ينبغي له[1].

قالوا: وما ذكرتم من الزهد فيالدنيا والتقلل منها، فالزهد لا ينافي الغِنَى، بل زهد الغَنِيِّ أكمل من زهد الفقير؛ فإن الغنيَّ زهد عن قدرة والفقير عن عجز، وبينهما بعد بعيد. وقد كان رسول الله ﷺ في حال غناه أزهد الخلق، وكذلك إبراهيم الخليل ﷺ كان كثير المال وهو أزهد الناس في الدنيا.

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعته، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أُصِبْتَ بها أرغبَ في ثوابها لو أنها بقيت لك»[2].

وسئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار وهل يكون زاهدًا؟ قال: نعم، بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت. وقال بعض السلف: الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره. وهذا من أحسن الحدود: حقيقة مركبة من الصبر والشكر، فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتصف بهما، فمن غلب شكره لما وسع عليه من الحلال وصبره لما عرض له من الحرام فهو الزاهد على الحقيقة، بخلاف من غلب عليه الحلال شكره والحرام صبره، فكان شكره وصبره مغلوبين، فإن هذا ليس بزاهد.

وسمعت شيخ الإسلام يقول: الزهد تركك ما لا ينفعك، والورع تركك ما يضرك. فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها، ويقابله الشح والحرص، وهو ثلاثة أقسام: زهد في الحرام، وزهد في الشبهات والمكروهات، وزهد في الفضلات. فالأول فرض،

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٣٢/٣٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٧٧/١٠) و«الأوسط» (٥٧٢، ٣٢٠٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٨/٧٨) وفيه معاوية بن أبي العباس ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات وإسناد الكبير حسن.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٠)، وابن ماجه (٤١٠٠) من حديث أبي ذر، وقال الترمذي، وعمرو بن واقد منكر الحديث، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٣١٩٤) : ضعيف جدًا.

والثانى فضل، والثالث متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة، وإن قويت التحق بالأول وإلا فبالثالث، وقد يكون الثالث واجبًا بمعنى أنه لا بد منه، وذلك لمن شمر إلى الله والدار الآخرة، فزهد الفضلة يكون ضرورة فإن إرادة الدنيا قادحة فى إرادة الآخرة، ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتى يفرد طلبه وإرادته ومطلوبه، فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب.

أما توحيد المطلوب أن لا يتعلق طلبه وإرادته بغير الله وما يقرب إليه ويدنى منه. وأما توحيده فى الطلب أن يستأصل الطلب والإرادة نوازع الشهوات وجواذب الهوى، وتسكن الإرادة فى أقطار النفس فتملأها، فلا يدع فيها فضلاً لغير الانجذاب إلى جانب الحق ﷻ فتتمحض الإرادة له، ومتى تمحضت كان الزهد لصاحبها ضرورة، فإنه يفرغه لعمارة وقته وجمع قلبه على ما هو بصدده، وقطع مواد طمعه اللاتى هى من أفسد شىء للقلب، بل أصل المعاصى والفساد والفجور كله من الطمع، فالزهد يقطع مواده، ويفرغ البال، ويملأ القلب، ويستحث الجوارح، ويذهب الوحشة التى بين العبد وبين ربه، ويجلب الأنس به، ويقوى الرغبة فى ثوابه إن ضعف عن الرغبة فى قربه والدنو منه وذوق حلاوة معرفته ومحبته، فالزاهد أَرْوَح الناس بدنًا وقلبًا، فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له فى إرادة الله والدار الآخرة بحيث فرغ قلبه لله وجعل حرصه على التقرب إليه وشحَّه على وقته أن يضيع منه شىء فى غير ما هو أرضَى لله وأحب إليه، كان من أنعم الناس عيشًا وأقَرِّهم عينًا وأطيبهم نفسًا وأفرحهم قلبًا، فإن الرغبة فى الدنيا تشتت القلب وتبدد الشمل وتطيل الهم والغم والحزن فهى عذاب حاضر يؤدى إلى عذاب منتظر أشد منه، وتفوت على العبد من النعم أضعاف ما يَرُومُ تحصيله بالرغبة فى الدنيا.

قال الإمام أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا - يعنى بن مسلم - عن إبراهيم - يعنى ابن ميسرة - عن طاوس قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الزهد فى الدنيا يُرِيحُ القلب والبدن، وإن الرغبة فى الدنيا تُطِيلُ الهمَّ والحزن [1] وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين:

---

(1) سبق تخريجه.

إحداهما الرغبة فى الدنيا والحرص عليها، والثانى: التقصير فى أعمال البر والطاعة.

قال عبد الله بن أحمد: حدثنى بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم عن بشر بن الحارث قال: حدثنا أبو بكر بن عياش عن ليث عن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ : «**إذا قصر العبدُ بالعمل ابتلاه الله ﷻ بالهمّ**»[1].

وكما أن الرغبة فى الدنيا أصل المعاصى الظاهرة فهى أصل معاصى القلب من التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر، وهذا كله من امتلاء القلب بها لا من كونها فى اليد، وامتلاء القلب بها ينافى الشكر، ورأس الشكر تفريغ القلب منها. وامتداد المال كامتداد العمر والجاه، فخيركم فى الدنيا من طال عمره وحسن عمله، فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره فنعم المرء، وماله وجاهه: إما أن يرفعه درجات، وإما أن يضعه درجات.

وسر المسألة أن طريق الفقر والتقلل طريق سلامة مع الصبر، وطريق الغنى والسعة فى الغالب طريق عطب، فإن اتقى الله فى ماله ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله - وليس مقصورًا على الزكاة، بل من حقه إشباع الجائع وكسوة العارى وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج والمضطر - فطريقه طريق غنيمة، وهى فوق السلامة، فمثل صاحب الفقر كمثل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضه، فهو يثاب على حسن صبره على حبسه.

وأما الغنى فخطره عظيم فى جمعه وكسبه وصرفه، فإذا سلم كسبه وحسن أخذه من وجهه وصرفه فى حقه كان أنفع له، فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس، والغنى المنفق فى وجوه الخير كالمعين والمعلم والمجاهد، ولهذا جعله النبى ﷺ قرين الذى آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها، فهو أحد المحسودين اللذين لا ثالث لهما. والجهلة يغبطون المنقطع المتخلى المقصور النفع على نفسه، ويجعلونه أولى بالحسد من المنفق والعالم المعلم.

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٠) والديلمي في «الفردوس» (١١٤٠) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٤) و«الضعيفة» (٢١٣٣).

فإن قيل: فأيهما أفضل: من يختار الغنى المتصدق والإنفاق فى وجوه البر، أم من يختار الفقر والتقلل ليبعد عن الفتنة ويسلم من الآفة ويرفه قلبه على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا، أم من لا يختار لا هذا ولا ذاك بل يختار ما اختاره الله له فلا يعين باختياره واحدًا من الأمرين؟

قيل: هذا موضع اختلف فيه حال السلف الصالح، فمنهم من اختار المال للجهاد به والإنفاق وصرفه فى وجوه البر كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة، وكان قيس بن سعد يقول: «اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغِنَى» ومنهم من اختار الفقر والتقلل كأبى ذر وجماعة من الصحابة معه، وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها، وأولئك نظروا إلى مصالح الإنفاق وثمراته العاجلة والآجلة، والفرقة الثالثة لم تختر شيئًا بل كان اختيارها ما اختاره الله لها. وكذلك اختيار طول البقاء فى الدنيا لإقامة دين الله وعبادته، فطائفة اختارته وتمنته، وطائفة أحبت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا، وطائفة ثالثة لم تختر هذا ولا ذاك بل اختارت ما يختاره الله لها وكان اختيارهم معلقًا بما يريده الله دون مراد معين منهم، وهى حال الصديق ﷺ فإنهم قالوا له فى مرض موته: «ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآنى. فقالوا: فما قال لك؟ قال: قال لى: إنى فعال لما أريد»[1].

والأولى حال موسى ﷺ فإنه لما جاءه ملك الموت لطمه ففقأ عينه[2]، ولم يكن ذلك حبًّا منه للدنيا والعيش فيها، ولكن لينفذ أوامر ربه ويقيم دينه ويجاهد أعداءه، فكأنه قال لملك الموت: أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور، وأنا فى تنفيذ أوامر ربى وإقامة دينه. فلما عرضت عليه الحياة الطويلة وعلم أن الموت بعدها اختار ما اختاره الله له.

وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه فإن ربه أرسل إليه يخبره، وكان أعلم الخلق بالله،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٢٣٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (٢٠٨٨)، وأحمد (٢/٢٦٩، ٣٠٥، ٣٥١، ٥٣٣)، وابن حبان (٦٢٢٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له؛ فاختار لقاء الله، ولو علم أن ربه يحب له البقاء فى الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه لما اختار غير ذلك، فكان اختياره تابعًا لاختيار ربه ﷻ. فكما أنه لما خيره ربه ﷻ بين أن يكون ملكًا نبيًّا وبين أن يكون عبدًا نبيًّا، وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبدًا نبيًّا اختار ما اختاره الله له، فكان اختياره فى جميع أموره تابعًا لاختيار الله له؛ ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال فى ذاك الوقت ووفَّى هذا المقام حقه، ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق، فلم يكن له اختيار فى سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التى تقرر الأمر عليها، فكان راضيًا بها مختارًا لها، مشاهدًا اختيار ربه لها، وهذه غاية العبودية، فشكر الله له ذلك وجعل شكرانه ما بشره به فى أول سورة الفتح حتى هنأه الصحابة به وقالوا: هنيئًا لك يا رسول الله. وحق له أن يهنأ بأعظم ما هُنِّئَ به بشرٌ، صلوات الله وسلامه عليه.

۞ فصـــــــل ۞

(الصفات الكاملة فى الرسول ﷺ)

ومما ينبغى أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحلَّ الله رسوله ﷺ فى أعلاها، وخصه بذروة سنامها. فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التى تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها، أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضًا.

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون فى الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغنى الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها، احتج به العارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة، احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذى لا يخرج عن الخلق الحسن وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به فى المشهد والمغيب، احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه فى وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه، احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه؛ فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها، احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر على الشبع.

وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال، احتج به من انتقم فى مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالَى لله، احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئًا لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشواء والحلوى والفاكهة والبطّيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سرد الفطر، فكان يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات، احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا، وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه، احتج به من أدبهنَّ وآلهن وطلق وهجر وخيرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج بها من باشرها بنفسه فآجر واستأجر، وباع و اشترى، واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يجتنب النساءبالكلية فى الحيض والصيام، احتج به من يباشر امرأته وهى حائض بغير الوطء، ومن يقبل امرأته وهو صائم.

وإذا احتج به من رحم أهل المعاصى بالقدر، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزانى وجلد الشارب.

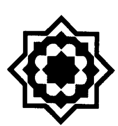
وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر، احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة، فإنه حبس فى تهمة وعاقب فى تهمة.

وأخبر عن نبى الله سليمان أنه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها لصاحبتها به، فلم يحكم بالاعتراف الذى ظهر له بطلانه بالقرينة. وترجم أبو عبد الرحمن على الحديث ترجمتين: إحداهما قال: التوسعة للحاكم أن يقول للشىء الذى لا يفعله أفعله ليستبين به الحق، ثم قال: الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به، وكذلك الصحابة عملوا بالقرائن فى حياته وبعده، فقال على رضي الله عنه للمرأة التى حملت كتاب حاطب: «لتخرجن الكتاب أو لأجردنك» وحدَّ عمر رضي الله عنه فى الزنا بالحَبَل، وفى الخمر بالرائحة.

وحكى الله سبحانه عن شاهد يوسف حكايةَ مقرِّرٍ غير منكر أنه حكم بقرينة شق القميص من دبر على براءته. وقال ﷺ لابن أبي الحقيق وقد زعم أن النفقة أذهبت كنز حيي ابن أخطب: «العهدُ قريبٌ والمالُ أكثرُ من ذلك»[1] فاعتبر قرينتين دالتين على بقاء المال وعاقبه حتى أقر به. وجوز لأولياء القتيل أن يحلفوا على رجل أنه قتله ويقتلونه به بناء على القرائن المرجحة صدقهم. وشرع الله سبحانه رجم المرأة إذا شهد عليها زوجها في اللعان وأبت أن تلاعن للقرينة الظاهرة على صدقه.

وشريعته ﷺ طافحة بذلك لمن تأملها، فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به، فهو حجة لقضاة الحق وولاة العدل، كما أنه حجة على قضاة السوء وولاة الجور، والله المستعان.

والمقصود بهذا الفصل أنه ليس الفقراء الصابرون بأحق به ﷺ من الأغنياء الشاكرين، وأحق الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها، وبالله التوفيق.



---

(١) رواه ابن حبان (موارد- ١٦٩٧) والبيهقي (١٣٧/٩)، وقال الحافظ في «الفتح» (٤٧٩/٧) إسناده رجاله ثقات. أهـ.

الباب الخامس والعشرون
في بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله، والقلب عن التسخط، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها؛ كان ما يضاده واقعًا على هذه الجملة، فمنه الشكوى إلى المخلوق، فإذا شكا العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكا من يرحمه إلى من لا يرحمه، ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم فى شكاية يعقوب إلى الله مع قوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرورة، لم يقدح ذلك فى الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله، وإخبار المبتلَى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه، وقد كان النبى ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول: كيف تجدك؟ وهذا استخبار منه واستعلام بحاله.

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد، قال أبو الحسين: أصحهما الكراهة؛ لما روى عن طاوس أنه كان يكره الأنين في المرض. وقال مجاهد: كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه. قال هؤلاء: وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قال لي أبى في مرضه الذي توفي فيه: أخرج إليَّ كتاب عبد الله بن إدريس، فأخرجت الكتاب فقال: أخرج أحاديث ليث بن أبى سليم، فأخرجت أحاديث ليث فقال: اقرأ عليَّ أحاديث ليث. قال: قلت لطلحة: إن طاوس كان يكره الأنين في المرض، فما سمع له أنين حتى مات. فما سمعت أبى أن في مرضه ذلك إلى أن توفي.

والرواية الثانية أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر. قال بكر بن محمد عن أبيه: سئل أحمد

عن المريض يشكو ما يجد من الوجع، فقال: تعرف فيه شيئًا عن رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم، حديث عائشة: «وا رأساه»[1] وجعل يستحسنه.

وقال المروزي: دخلت على أبى عبد الله وهو مريض فسألته، فتغرغرت عيناه وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العِلّة.

والتحقيق أن الأنين على قسمين: أنين شكوى فيكره، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره والله أعلم.

وقد روى في أثر أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى. وقال شقيق البلخي: «من شكا من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبدًا».

(فصل) والشكوى نوعان: شكوى بلسان القال، وشكوى بلسان الحال، ولعلها أعظمها، ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه، وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير، فهذا أمقت الخلق عند ربه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن زيد حدثنا كهمس عن عبد الله بن شقيق قال: قال كعب الأحبار: «إن من حسن العمل سبحة الحديث، ومن شر العمل التحذيف» قيل لعبد الله: ما سبحة الحديث؟ قال: سبحان الله وبحمده في خلال الحديث. قيل: فما التحذيف؟ قال: يصبح الناس بخير فيُسألون فيزعمون أنهم بشر.

(فصل) ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، وحلق الشعر والدعاء بالويل، ولهذا برئ النبي ﷺ ممن صلق وحلق وخرق. صلق: رفع صوته عند المصيبة، وحلق رأسه وشق ثيابه، لا ينافيه البكاء والحزن، قال الله تعالى عن يعقوب: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(يوسف: ٨٤) قال قتادة: كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيرًا.

---

(١) سبق تخريجه.

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما كان من العين والقلب فمن الله والرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان»[1] وقال هشيم: عن عبد الرحمن بن يحيي عن حسان بن أبي جبلة قال: قال رسول الله ﷺ «من بث فلم يصبر»[2] وقال خالد بن أبي عثمان: مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير متقنعًا فقال: «إياك والتقنيع فإنه من الاستكانة». وقال بكر بن عبد الله المزني: كان يقال: «من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة».

وقال عبيد بن عمير: «ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ».

وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال: «القول السيئ والظن السيئ». ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع إليه العلماء والفقهاء فتذاكروا ما يتبين به من جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال الحسين بن عبد العزيز الحوري: «مات ابن لي نفيس فقلت لأمه: اتقي الله واحتسبيه واصبري. فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أفسدها بالجزع».

وقال عبد الله بن المبارك: «أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت فقال: ابنك يقضي وأنت تصلي! فقال: إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يومًا واحدًا كان ذلك خللاً في عمله».

وقال ثابت: «أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه ريحًا فذكرت له ما رأيت فقال: تأمرني يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابني سوء؟ والله يا أبا محمد لو كانت لى الدنيا كلها ثم أخذها منى ثم سقانى شربة يوم القيامة ما رأيتها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/١٦٦) ورواه البيهقي في «الشعب» (١٠٠٥٠) والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٠١٤) عن ابن عمر.

ثمنًا لتلك الشربة».

ومما يقدح في الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها، وكتمانها رأس الصبر. وقال الحسن ابن الصباح في مسنده: حدثنا خلف بن تميم حدثنا زافر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة»[1] وذكر أنه من بث الصبر فلم يصبر. وروى من وجه آخر عن الحسن يرفعه: «من البر كتمان المصائب، وما صبر من بث»[2].

ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يومًا من قبل عينيه فعلم أن الشيخ قد أصيب.

ودخل رجل على داود الطائي في فراشه فرآه يرجف فقال:

وقال

مغيرة:

۞ فصـــــل ۞

ويضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود النعمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾(المعارج: ١٩-٢١) وهذا تفسير الهلوع:

قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد هلع بالكسر فهو هَلِعٌ وهَلُوع، وفي الحديث

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية»(١٩٧/٨)، والبيهقي في «الشعب»(١٠٠٤٧) وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٣٣) والروياني في «مسنده»(١٤٤٧) والقضاعي في «الشهاب» (٢٩٨) وقال أبو حاتم في «العلل» (٢٥١٨): هذا حديث باطل وامتنع أن يحدث به. أهـ وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٥٥٩).

(٢) انظر ما قبله.

«شرُّ ما في العبد شُحٌّ هالِعٌ وجُبْنٌ خالِع»[1].

قلت: هنا أمران: أمر لفظى، وأمر معنوى. فأما اللفظى فإنه وصف الشح بكونه هالعًا والهالع صاحبه وأكثر ما يسمى هلوعًا، ولا يقال هالع له فإنه لا يتعدى، ففيه وجهان:

أحدهما: أنه على النسب كقولهم: ليل نائم، وسر كاتم، ونهار صائم، ويوم عاصف، كله عند سيبويه على النسب، أى ذو كذا، كما قالوا: تامر ولابن.

والثانى: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع، وله نظير.

وأما المعنوى فإن الشح والجبن أردى صفتين فى العبد، ولا سيما إذا كان شحه هالعًا أى ملقٍ له فى الهلع وجبنه خالعًا أى قد خلع قلبه من مكانه فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه كما يقال: لا طعنة ولا جفنة، ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغره وحقره ودساه الشح والخوف والطمع والفزع، وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذى إذا اصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعًا، وإذا اصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح، فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها فى البدن وإخفائها وتحقيرها، والله المستعان.

---

(1) رواه أبو داود (٢٥١١) ، وأحمد (٣٠٢/٢، ٣٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٠/٧)، والبيهقي (٦/ ١٧٠) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠٣) عن أبي هريرة.

الباب السادس والعشرون
في بيان دخول الصبر والشكر في صفات الرب جل جلاله

أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيهًا له بصيغة المبالغة، ففى الصحيحين من حديث الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبى عبد الرحمن السلمى عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ﷻ يدعون له ولدًا وهو يعافيهم ويرزقهم»[١].

وفى أسمائه الحسنى: الصبور، وهو من أمثلة المبالغة أبلغ من الصابر والصبار. وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة، منها أنه عن قدرة تامة، ومنها أنه لا يخاف الغوث، والعبد إنما يستعجل الخوف الغوث، ومنها أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما، وظهور أثر الاسم فى العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم. والفرق بين الصبر والحلم أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم فى صفات الرب تعالى أوسع من الصبر، ولهذا جاء اسمه الحليم فى القرآن فى غير موضع، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾(الأحزاب: ٥١)، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾(النساء: ١٢)

وفى أثر أن «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» فإن المخلوق يحلم عن جهل ويعفو عن عجز، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) والنسائي في «الكبرى» (٧٧٠٨)، وأحمد (٣٩٥/٤، ٤٠١، ٤٠٩) وابن حبان (٦٤٢).

ويعفو مع تمام قدرته، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى اقتدار ولهذا كان فى دعاء الكرب وصف سبحانه بالحلم مع العظمة، وكونه حليمًا من لوازم ذاته سبحانه.

وأما صبره سبحانه فمتعلق بكفر العباد وشركهم ومسبَّتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة، بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ويرفق به ويحلم عنه، حتى إذا لم يَبْقَ فيه موضع للصنيعة ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم ولا ينيب إلى ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنعم ولا من باب البلاء والنقم، أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد غاية الإعذار إليه وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب. وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهى صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التى توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمله فإنه فرق لطيف ما عثرت الحذاق بعشره وقلَّ من تنبه له ونبه عليه، وأشكل على كثير منهم هذا الاسم وقالوا لم يأت فى القرآن، فأعرضوا عن الاشتغال به صفحًا، ثم اشتغلوا بالكلام فى صبر العبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقه لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق، كما هو أحق باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحى وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين؛ وأن التفاوت الذى بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذى بين حياته وحياتهم وعلمه وعلمهم وسمعه وأسماعهم، وكذا سائر صفاته.

ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله» فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين ومَنْ إحسانُه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش ونسبته إلى كل ما لا يليق به والقدح فى كماله وأسمائه وصفاته والإلحاد فى آياته وتكذيب رسله عليهم السلام ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى وتحريق أوليائه وقتلهم واهانتهم أمر لا

يصبر عليه إلا الصبور الذى لا أحد أصبر منه ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾(فاطر: ٤١) وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾(مريم: ٨٨-٩١) وقوله: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم: ٤٦) على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه، وفى الآية اشعار بأن السموات والأرض تهمُّ وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتى به العباد فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره تعالى، فالذى عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله.

وفى مسند الإمام أحمد مرفوعًا: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم»[1] وهذا مقتضى الطبيعة لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره. وكذلك خرور الجبال وتفطير السموات، الرب تعالى يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتى به الكفار والمشركون والفجار فى مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضى ذلك، فجعل سبحانه فى مقابلة هذه الأسباب أسبابًا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه تقابل تلك الأسباب التى هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها.

(١) رواه أحمد (٤٣/١)، وأورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٣٧) وضعفه الألباني في «الضعيفة (٤٣٩٢) و«ضعيف الجامع» (٤٩٣٢).

وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب؛ ولهذا استعاذ النبى ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين فى الذات إذ هما قائمان بها فقال: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[1] فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذى أذن فى وقوع الأسباب التى يستعاذ منها خلقًا وكونًا، فمنه السبب والمسبب، وهو الذى حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوى التاثير، وهو الذى أوجدها وأعدها ومدها وسلطها على ما شاء، وهو الذى يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: «أعوذ بك منك» من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره، وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذى يمس بالضر بمشيئته، وهو الذى يدفعه بمشيئته، وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته، وهو المعيذ من فعله بفعله، وهو الذى سبحانه خلق ما يصبر عليه وما يرضى به، فإذا أغضبه معاصى الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم، أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له وحمدهم إياه وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ : «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، وإن مقدار يوم من أيامكم عنده اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع منها على ما يكره فيغضبه ذلك، فأول ما يعلم بغضبه حملة العرش يجدونه يثقل عليهم فتسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة حتى ينفخ جبريل فى القرن فلا يبقى شىء إلا يسمع، فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن رحمة، فتلك ست ساعات. قال: ثم يؤتى

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) والنسائي (١٦٩) وابن ماجه (٣٨٤١) وأحمد (٢٠١/٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾(آل عمران:٦) ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾(الشورى:٤٩-٥٠) فتلك تسع ساعات. ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾(الرعد: ٢٦) وقوله:﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾(الرحمن: ٢٩) قال: هذا شأنكم وشأن ربكم». رواه أبو القاسم الطبراني في السنة، وعثمان بن سعيد الدارمي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وابن منده، وابن خزيمة وغيرهم.

ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله، ذكر في أثر ذلك شأن خليله إبراهيم، وما أراه من ملكوت السموات والأرض، وما حاج به قومه في إظهار دين الله وتوحيده، ثم ذكر الأنبياء من ذريته، وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم قال:﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾(الأنعام: ٨٩) .

فأخبر أنه سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به ويجحد توحيده ويكذب رسله، كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ويصدق بما كذبوا به ويحفظ من حرماته ما أضاعوه. وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي، وإلا فلو تبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض وهي كلامه وبيته ودينه والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها. ولما كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف، واسم الصبور في الأفعال؛ كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور، والله أعلم.

(فصـــــل) وأما تسميته سبحانه بالشكور فهو في حديث أبي هريرة، وفي القرآن تسميته شاكرًا، قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾(النساء: ١٤٧) وتسميته أيضًا شكور، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾(التغابن: ١٧) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾(الإنسان: ٢٢) فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر

سعيهم وأثابهم عليه. والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب إليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور.

وقد تقدم في الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه، وأما شكر الرب تعالى فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة؛ فإنه يعطى العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله بأن يثنى عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى ويلقى له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفة، وهو الذى وفقه للترك والبذل، وشكره على هذا وذاك.

ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبًا له إذ شغلته عن ذكره فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه عنها متن الريح، ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه، ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

ومن شكره سبحانه أنه يجازى عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه، ومن شكره أنه غفر للمرأة البَغِيِّ بسقيها كلبًا كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين، فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه،

والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه.

وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذى أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التى لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه؟

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٤) كيف تجد فى ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

وفى هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوًّا كبيرًا، فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التى تنافى كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير ولا يضيع عليه هذا القدر، ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس فيشكره له وينوّه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده، وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور، يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة؛ كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى، أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم. وهو سبحانه جميل يحب

الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستار يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها.

خاتمة

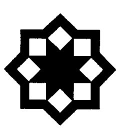
يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لك علم فشمر إليه فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير، فما أبقى مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول: هذه منجيتى من عذاب السعير، ما المعول إلا على عفوه ومغفرته فكل أحد إليهما فقير، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى، أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور. ما تساوى أعمالك - لو سلمت مما يبطلها - أدنى نعمة من نعمه عليك، وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك، فهل رعيتها بالله حق رعايتها وهى فى تصريفك وطوع يديك؟ فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح إنه غفور شكور، نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها، وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها، وحذره من وبال معصيته وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمها وعقابها، وقال: إن أطعت فبفضلى وأنا أشكر، وإن عصيت فبقضائى وأنا أغفر. إن ربنا لغفور شكور. أزاح عن العبد العلل، وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل، ووعده أن يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل، إن ربنا لغفور شكور. أعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه، ووعده على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه، وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه، إن ربنا لغفور شكور. وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها، وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمعها، ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه، فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، إن ربنا لغفور شكور. يجود على عبيده بالنوافل قبل السؤال، ويعطى سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال، إن ربنا لغفور شكور. أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، إن ربنا لغفور شكور. تعرف الى عباده بأسمائه

وأوصافه، وتحبب إليهم بحلمه وآلائه، ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه، إن ربنا لغفور شكور. السعادة كلها فى طاعته، والأرباح كلها فى معاملته، والمحن والبلايا كلها فى معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، إن ربنا لغفور شكور. أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذى كتبه أن رحمته تغلب غضبه، إن ربنا لغفور شكور. يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله، ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له حتى كأنه لم يكن قط من أهله، إن ربنا لغفور شكور. الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض الى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور. بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار، وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث بل هى مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، إن ربنا لغفور شكور. لا يلقى وصاياه إلا الصابرون، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك عليه إلا الهالكون، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون، إن ربنا لغفور شكور.

فإياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غيور، وإذا اقمت على معصيته وهو يمدك بنعمته فاحذره، فإنه لم يهملك لكنه صبور. وبشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته، إنه غفور شكور. من علم أن الرب شكور تنوع فى معاملته، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم ييأس من رحمته، إن ربنا لغفور شكور. من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه، ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه، ومن أحبه أحب أسماءه وصفاته وكانت آثر شيء لديه. حياة القلوب فى معرفته ومحبته، وكمال الجوارح فى التقرب إليه بطاعته والقيام بخدمته، والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته، فأهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائب، إنه غفور شكور.

والحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمدًا يملأ السموات والأرض وما بينهما وما شاء ربنا من شيء بعد، بمجامع حمده كلها، ما علمنا منها وما لم نعلم، على نعمه كلها، ما علمنا منها وما لم نعلم، عدد ما حمد الحامدون، وغفل عن ذكره الغافلون، وعدد ما جرى به قلمه وأحصاه كتابه وأحاط به علمه.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، ورضي الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

